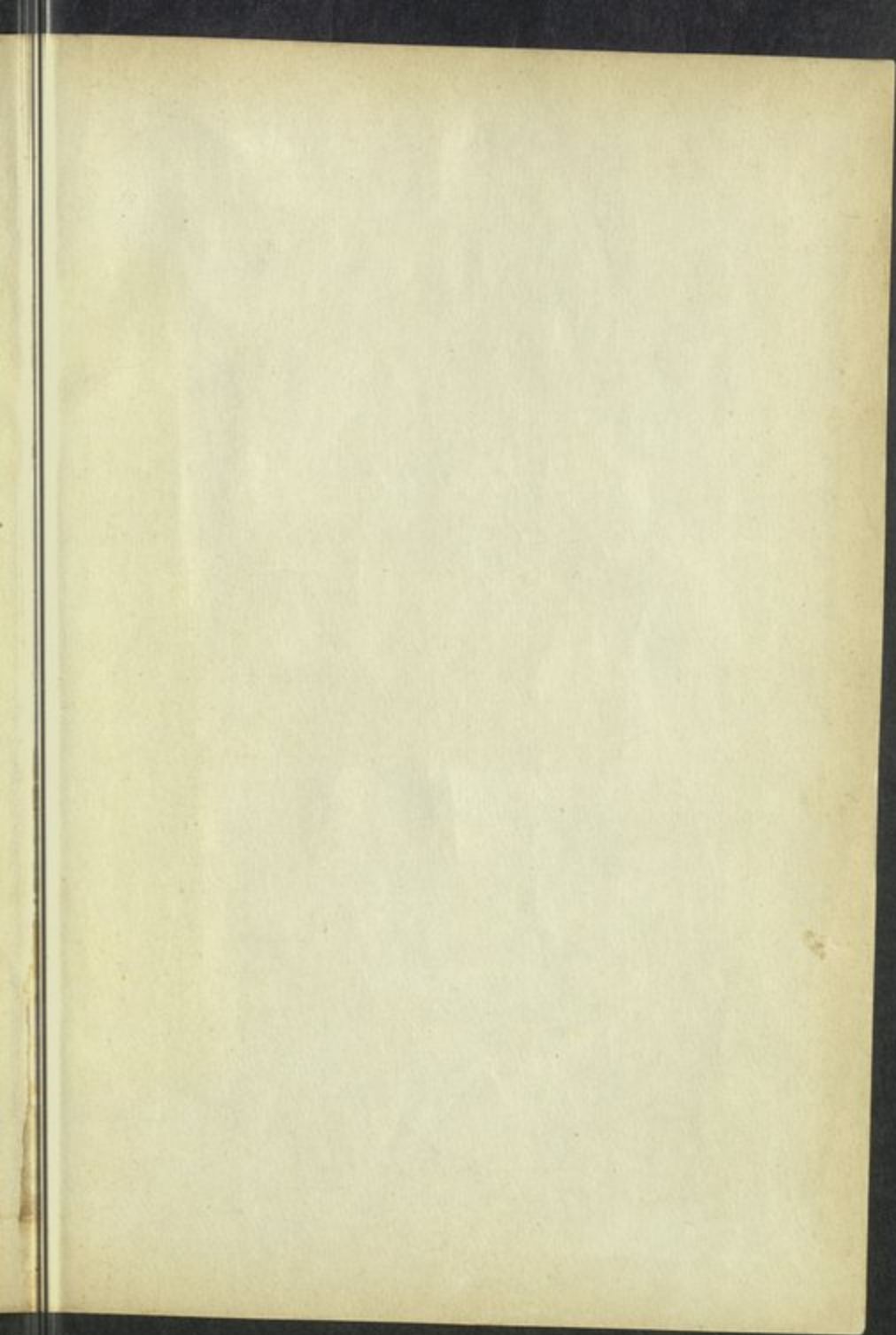


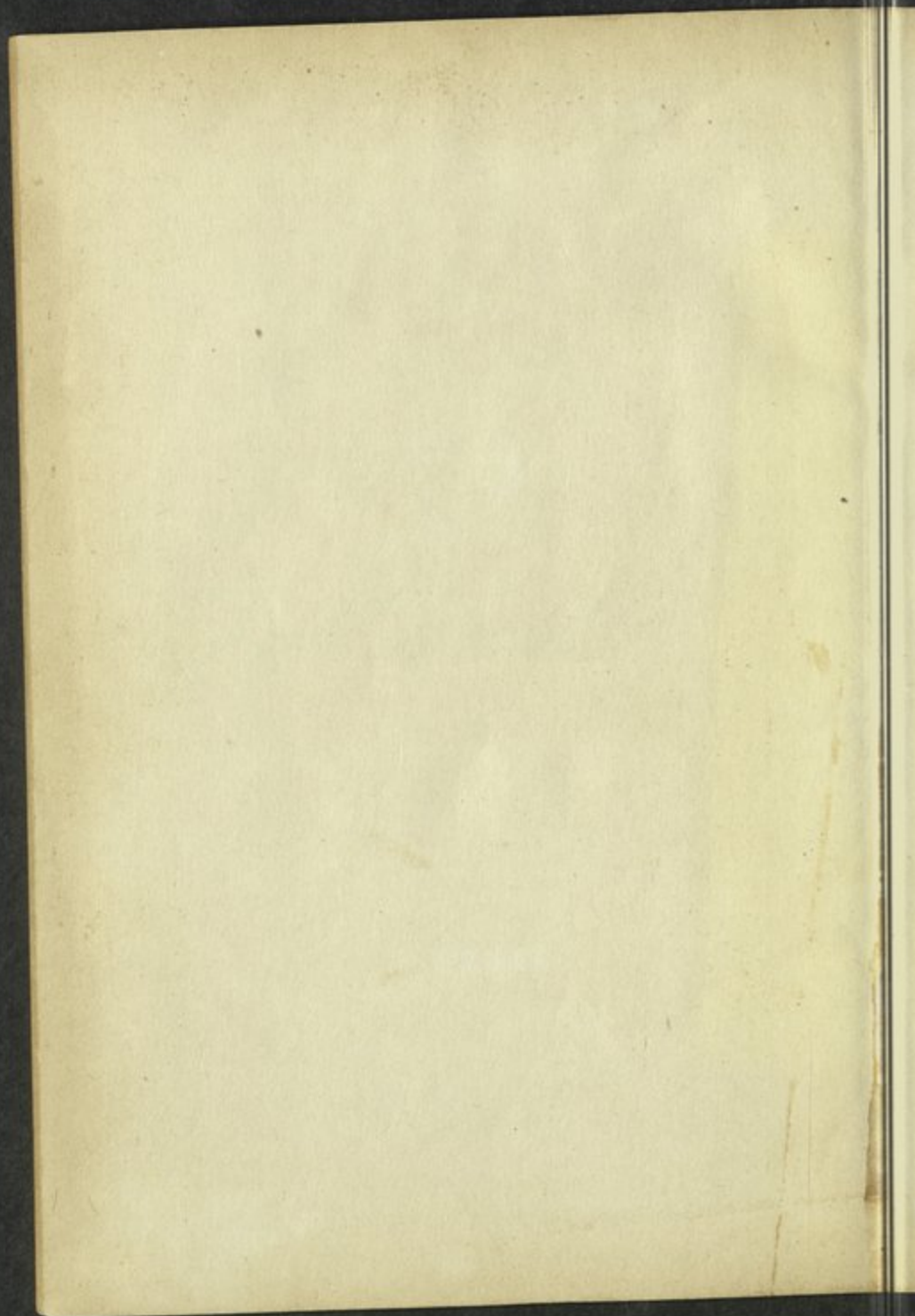


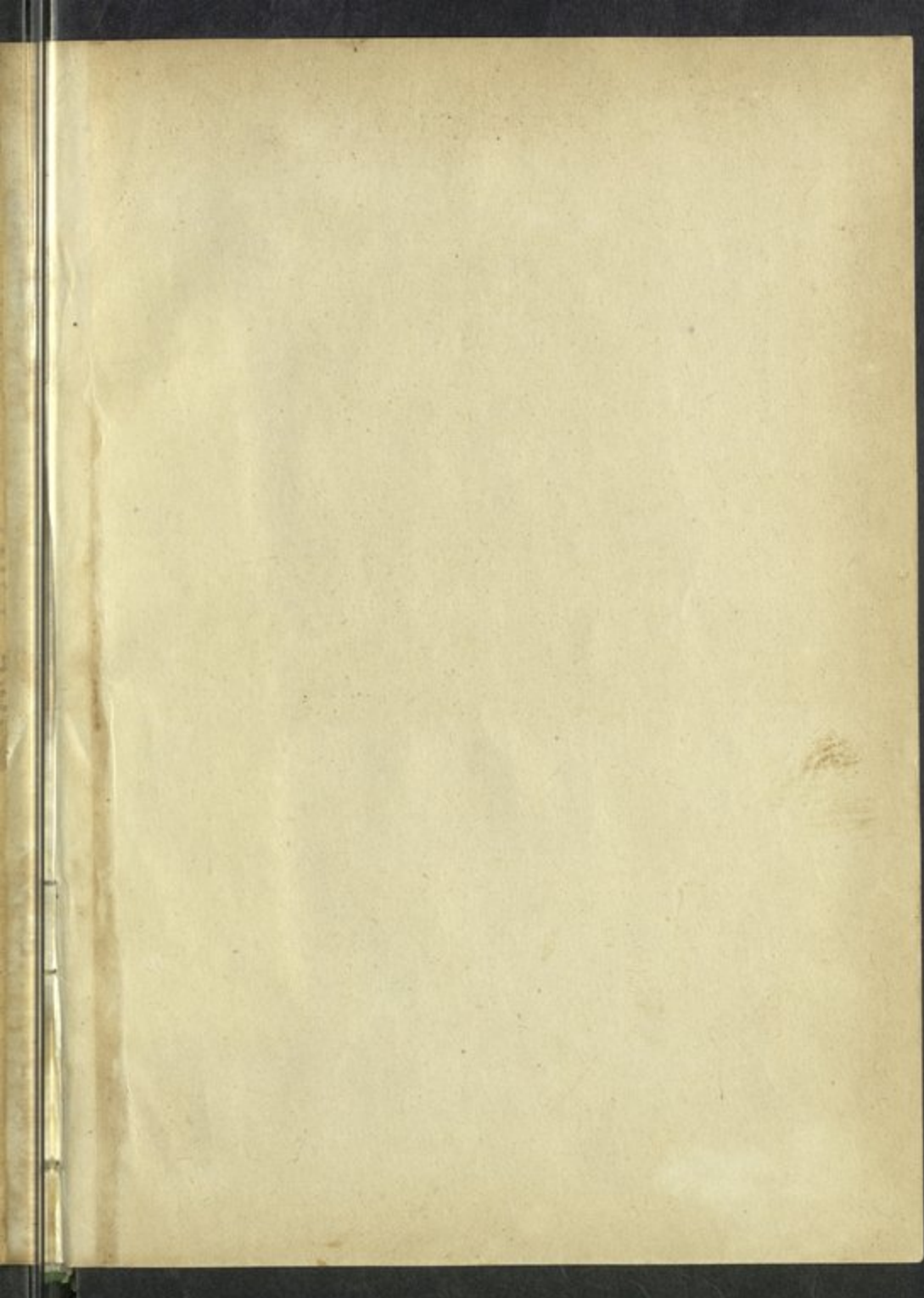
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجليد مائتة الدقة
تكون ٢٢٩٧٧







H 370.1
H96A4
ع. أبو خلدون ساطع المحصري



آراء وأحاديث
في
التربية والتعليم

59300

مطبعة الرسالة

القاهرة

١٩٤٤

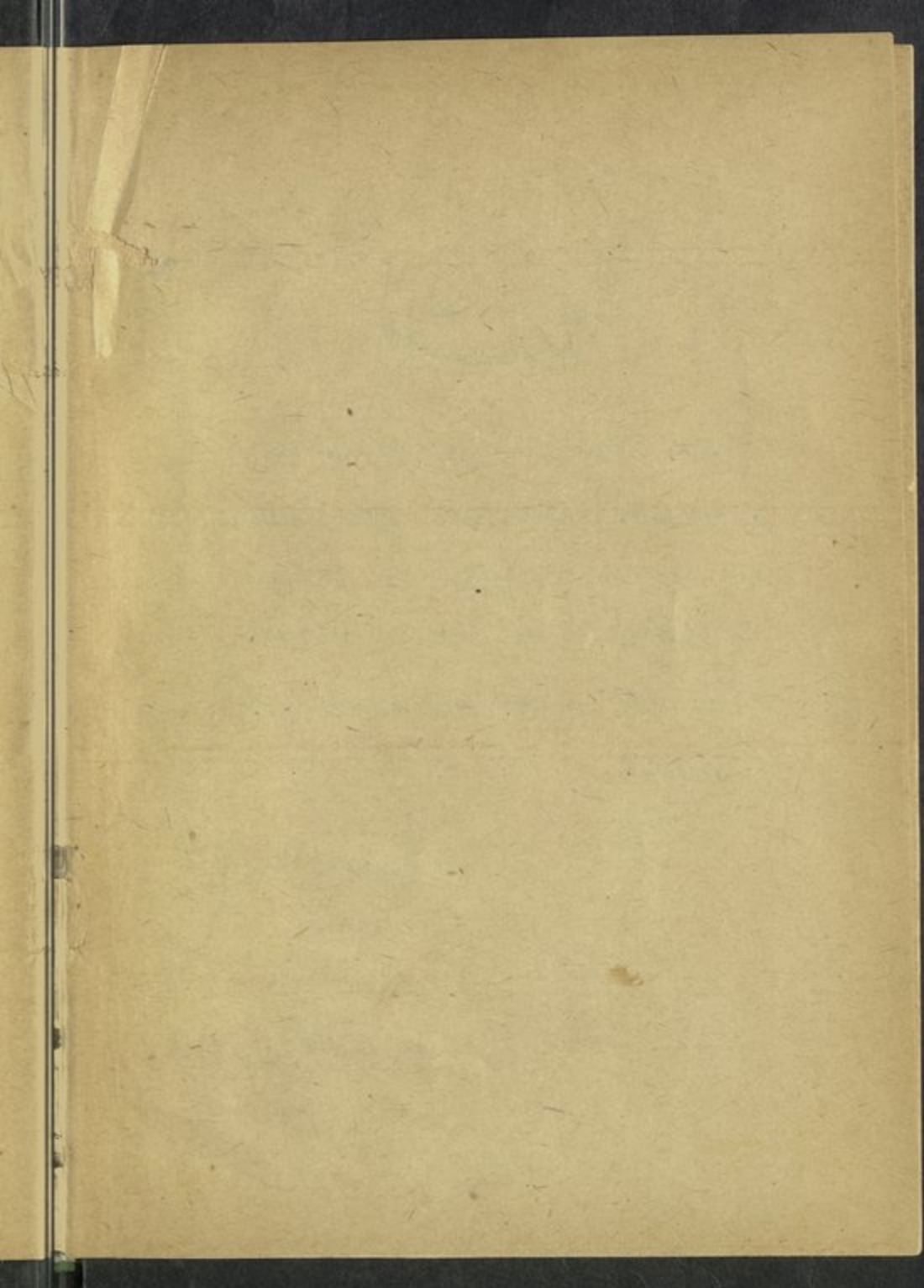


مقدمة

هذه مجموعة مختارة من أحاديث ومقالات ومحاضرات
في التربية والتعليم كُتبت ودوّنت في أوقات مختلفة ،
ومناسبات شتى . وقد نشر قسم منها في بغداد ، وقسم منها
في القاهرة ، في أزمنة متفرقة . وقد رأيت أن أجمعها في هذا
الكتاب لتصبح في متناول المعلمين من الناطقين بالضاد .

أبو حمزة

[بيروت ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٣]



فهرس

القسم الأول

مجاهرات ومهممقات في التربية والتعليم

٨	التأليف والتوزين في أعمال التربية والتعليم
١٢	مجاهرات الطفل المماكس
١٥	شجرة الطوبى
١٨	دحية السكلى
٢٠	حرية الحمار
٢٣	شجرة السكرز
٢٥	لنبات الذات
٢٩	التربية بالثقة
٣٢	اندفاعات النفس وتسويلات المحيط
٣٥	درس الساعة
٣٨	درس الجمل
٤٢	النسوافه الخطيرة
٤٥	ما هذا

القسم الثانى

محاضرات ومقالات في التربية والتعليم

٥٠	التربية الاجتماعية
٦٨	الخدمة العسكرية والتربية العامة

صفحة

٧٦	أنواع المدارس وأنظمتها
٩١	تيارات التربية والتعليم
١٠٩	من حداثتي الأطفال إلى دور الصغار
١٢٠	التعليم الأفتياى والأساليب الأفرادية فى التدرىس
١٣٧	أهم مسائل التربية
١٤٢	آراء وملاحظات حول هذه المسائل
١٥٥	الوظائف الحكومىة والمهن والأعمال الحرة

القسم الثالث

مقالات حول نظام التعليم فى مصر

١٧٤	نقد نظام التعليم فى مصر
١٨٥	معارف مصر ، فى حولىة المعارف الأهمىة
١٨٨	مسألة التعليم الإلزامى فى مصر
١٩٧	تعليم اللاتىنىة واليونانىة



القسم الأول

مشاهدات وملاحظات
في حياة التربية والتعليم

التأليف والتوزيع

في أعمال التربية والتعليم

حضرت يوماً « مناقشة حارة » بين طلاب دار المعلمين الابتدائية ، حول درس ألقاه أحدهم على تلاميذ مدرسة التطبيقات . ألقى بالى للمناقشة مدة غير يسيرة ، ثم رأيت أخيراً أن أبدي رأياً حول « نقطة أساسية » ، بقطع النظر عن الأمور الفرعية . غير أن الطالب وجد ملاحظتى هذه منافية « لبعض القواعد » التى تلقاها من معلميه ، واستغربها استغراباً شديداً . وعند ما شرحت له الأمر ، قائلاً « إن تلك القاعدة ليست مطلقة » ، تألم من زعزعة عقيدته فى « مطلقية القواعد » ، وأخذ يظهر هذا التأثير والتألم ، بصوت ناثر حائر ؛ وصاح قائلاً :

— يحار الإنسان فيما يجب أن يعمل ... عند القيام بمهام التربية والتعليم ! يقولون له : « كذا وكذا » وإذا عمل يعترضون عليه قائلين : « غير أنه ... » ...

ثم واصل كلامه بنفس التأثير والحاسة : لم نتعلم إلى الآن قاعدة إلا وجدناها مقيدة بقيود كثيرة ؛ ولم نطلع على طريقة إلا رأيناها محفوفة بمشاكل كبيرة ... فلا ندرى ما ذا يجب أن نعمل ؟ ! ...

ولقد كنت لمحت عند طلاب دار المعلمين ، قبل ذلك أيضاً ، زعجة شديدة للبحث عن « أحكام باتة » فى مسائل التربية والتعليم : رأيتهم مراراً يطلبون من معلمهم أن يذكر لهم « قواعد مطلقة » ، يصح تطبيقها

٩
بلا قيد ولا شرط في كل الأحوال ... وأن يدلّوهم على « طرق مستقيمة »
توصلهم إلى الغاية المطلوبة بسهولة ، دون أن تتطلب منهم الالتفات إلى
« اعتبارات مختلفة » .

غير أني لم أسمع - حتى ذلك الحين - أحداً يعبر عن هذه النزعة بهذا
الأسلوب الواضح القاطع : يحار الإنسان فيما يجب أن يعمل عند القيام
بمهمة التربية والتعليم

فرايت أن أخلص الطالب - هو ورفاقه - من هذه الحيرة ، فقلت :
- أعدوا أذهانكم « لعدم التحير » في مثل هذه المسائل ...
لا تهيموا وراء « القواعد المختصرة المطلقة » ، ولا تفتشوا عن « الطرق
القصيرة المستقيمة » ؛ واعلموا بكل تأكيد : أنه لا يوجد في التربية
« طريقة » توصل المعلم إلى نتيجة حسنة ، دون أن تضطره إلى مجابهة
« مشاكل عديدة » ، ودون أن تتطلب منه العمل للتوفيق « من محاذير
كثيرة » ، ولا تنسوا : أن أتم القواعد قد تصبح ناقصة في بعض الأحوال ،
وأحسن الطرق قد تصبح عقيمة في بعض الظروف . فإن عمل التربية
عمل « تأليف وتوزين » قبل كل شيء ، وفوق كل شيء .

وإن من أهم الأمور التي يجب أن تبقى ماثلة في أذهان المربين :
أن أفاعيل الحياة النفسية في منتهى الدقة والإعجال ، كما أن مطالب
الحياة الاجتماعية في غاية التنوع والتعقيد ؛ وهذا التعقيد وهذه الدقة
وهذا التنوع ، تحتم على كل مربٍ - يروم القيام بواجباته حق القيام -
أن ينظر إلى كل أمر من الأمور من وجوه عديدة ، وأن يتتبع نتائج كل
عمل من الأعمال في ساحات متنوعة ، وألا يضع خطه إلا بعد ملاحظة

جميع تلك الوجوه ، وكل هذه النتائج ، ملاحظة شاملة

ويمكننا أن نقول : إن أدق الوظائف التي تترتب على المربين ، هي التأليف بين مطالب الحياة المختلفة ، والتوزيع بين غايات التربية المتنوعة ؛ وذلك لا يتيسر إلا بالجمع بين وجهات النظر المختلفة ، والإحاطة بالنتائج المتنوعة

✓ التأليف بين حرارة العاطفة وقوة العقل ؛ بين نزع الاستقلال وضرورة الانضباط ؛ بين الحسيات الوطنية والعواطف الإنسانية ؛ بين القوى الفردية والحصل الاجتماعي ؛ بين الروابط التقليدية والنزعات التجديدية ؛ بين مقتضيات التربية السلوكية ومطالب الثقافة العامة .
 > تنشئة الفرد نزعاً إلى الصراحة ، على ألا تصل به هذه الصراحة إلى درجة السذاجة

تطعيمه على روح الإقدام والشجاعة ، على ألا تؤدي هذه الروح إلى حرمانه من البصيرة

إكسابه نزعاً سامية وثابة تحمله على السير نحو المثل العليا ، دون أن يجعله ضالاً وراء الأحلام

تعويده على الحاصل الاقتصادي دون تركه فريسة للغرائز النفعية .
 حمله على التخصص في مهنة خاصة ، دون حرمانه من الثقافة العامة .
 إيجاد توازن معقول وترتيب مفيد بين نزعاته القومية والدينية والمدنية ، وميوله الشخصية والسلوكية والعائليّة

إن المسائل التي تواجه المربين والمعلمين ، والغايات التي تمتجاذب جهودهم كلها من هذا القبيل تتطلب منهم سلسلة طويلة من أعمال

ولهذا السبب لا نستطيع أن نقدر قيمة الأعمال التربوية . بمجرد ملاحظة كميّاتها وأنواعها ، دون أن نتأمل في نسبها وكميّاتها فإنني أشبه المربين من هذا الوجه بالأطباء الذين يداوون المرضى بالسموم ؛ فإنهم كثيراً ما يضطرون إلى اختيار أهون الشرور ؛ فقد يعمدون إلى الاستفادة من خواص بعض السموم لأجل التغلب على بعض الأمراض . وقد يقدمون على زرق بعض الجرائم الخفيفة ، ليكسبوا البدن مناعة تقيه شرور الجرائم الفتاكة . طبعي أن حدود الفائدة والضرر والشفاء والمرض ، في كل هذه الأحوال ، لا تتعين بنوع الأدوية واللقاحات المستعملة فحسب ، بل إنها تتبع نسبها وكميّاتها أيضاً . ويمكننا أن نقول : إن أهم شيء في فن المداواة ، هو موازنة الفائدة والضرر موازنة دقيقة ، وإيجاد النسبة الملائمة للوصول إلى الغاية المطلوبة بأقل ما يمكن من الضرر وأعظم ما يمكن من الفائدة وكذلك الحال في فن التربية ؛ فهناك أيضاً أن أهم الأعمال هو موازنة الحسنات والمحاذير موازنة دقيقة ؛ وأن أعظم المشاكل هي إيجاد النسبة التي تكفل جلب الحسنات ودفع المحاذير ، إلى أقصى حدود الإمكان . فمن العيب أن يبحث المربون عن قواعد مطلقة لا تتطلب شيئاً من القيود والشروط وأن يفتشوا على طرق لا يشوبها شيء من المشاكل والمحاذير ...

الطفل المعاكس

كنت في زيارة صديق لي ، وإذا بضيف أناه مع ولده ، وأخذ يتحدث إليه في شئون شتى . وكان الولد يتدخل في الحديث بصورة غريبة تتم عن وقاحة وشراسة . فأراد صاحب الدار أن يذهب بالطفل إلى « دائرة الحرم » ، واقترح ذلك عليه وعلى والده ، فارتاح الوالد لهذا الاقتراح ، إلا أن الطفل لم يقبله وصاح معانداً ومكابراً :

— لا أذهب !

وعبثاً حاول صديقي تحبيبه الذهاب إلى الحرم ليلعب ويرتاض في الحديقة ، ولكن ظل الولد معانداً ومكابراً ، يصيح على الدوام :

— لا أريد ... لا أذهب ...

عندئذ تدخل الوالد في الأمر ، وبعد الإشارة على صاحب الدار بالتريث والنظر ، صاح بالولد بطور مفتعل ، قائلاً :

— لا تذهب !

غير أن الولد انتصب في هذه المرة أيضاً معانداً ومكابراً ، وصاح في والده قائلاً :

— لا بد أن أذهب !

كرر الوالد النحي على نفس المنوال :

— أقول لك لا تذهب !

فأجابه الولد بنفس الطور :

— قلت لك إنني سأذهب !

وتكرر الأخذ والرد بين الوالد والولد مرات ، وكان الولد في كل مرة يصبر على العناد ، ويرجع إلى وراء بصع خطوات ، مقترباً على هذه الصورة من الباب ، وفي الأخير عندما كرر الوالد نهيه مرة أخرى ، صاح الولد في وجهه صياحاً نهائياً ، قائلاً :

— أريد أن أذهب

وخرج من الباب فوراً

عندئذ أخذ الوالد يضحك ضحكة المنتصر المفاخر ، وقال لنا معجباً بنفسه وبعمله إعجاباً كبيراً :

— هكذا نتغلب على عناده في كل مرة . إنه عنيد ، جداً عنيد ، وهذا ما حدا بنا إلى الاحتيال عليه بهذه الصورة ؛ فصرنا نقول له عكس ما نريده ظاهراً ، ليفعل ما نريده حقيقة قال ذلك ، مرفقاً قوله بتهمة طويلة ، ثم أخذ يحدق في عيني تحديق من ينتظر الاستحسان ، ويطلب الهتاف

فهتم عندئذ سر وقاحة هذا الولد البأس ، وطفقت أتتبع بالخيال صفحات هذه المأساة التربوية :

ولد يعصى ويعاند من حين إلى حين ، مثل جميع الأولاد ، ووالد يحاول معالجة هذه المعاندة بطريقة سقيمة تؤدي إلى تغذيتها وتقويتها من حيث لا يدري . لم يفكر الوالد في هذا الصدد في شيء سوى « حمل الولد على عمل معين » ، فلم يربأساً من أمره بعكس ما يريد ، فحمله على إتقان ما يريد . وهو يرتاح من الوصول إلى الغاية القريبة التي يرى

إليها من أى طريقة كانت ؛ ولكنه لم يفقه أنه بعمله هذا يسوق
الولد إلى العصيان والمخالفة ، ويخسر جميع الغايات البعيدة التى كان
يجب عليه ألا يهمل ملاحظتها ...

إنه يرتاح إلى النتيجة ، لأنه يرى أن الولد قد فعل ما يريد هو ؛ غير
أن الولد ينظر إلى الأمور بنظر يختلف عن نظر والده اختلافاً كلياً :
إنه يرى والده قد خضع لإرادته ، ولم يقدر أن يعمل شيئاً لكبح عصيانه ،
بل ارتاح لمخالفته ... فيتشجع على المضى فى المخالفة والعصيان ... فتنمو
فيه هذه النزعة يوماً فيوماً ، إلى أن يصبح « ما كينة مخالفة » تعمل
عكس ما يطلب منها على الدوام ، كما رأيناها الآن ...

ترى ماذا سيكون حظ هذه النفسية الغريبة من سعادة الحياة ؟
وماذا سيكون تفاعلها مع النفسيات الأخرى فى الحياة الاجتماعية عند ما
تضطر إلى معاشرته الناس ؟

إن الوالد مرتاح إلى النتيجة وغور بها ، لأنها أتت وفق رغبته
الحقيقية ؛ ولكن هل يدرك مبلغ الشرور التى بذرها بهذه الصورة
فى نفس هذا الولد المسكين ؟

إن قصر النظر من أهم آفات التربية . وكل تربية تقتصر على
النتائج القريبة ، غير حاسبة حساباً للفتائج البعيدة ، هى تربية ضارة أشد
الضرر ، سواء أكان ذلك فى الحياة الفردية أم الاجتماعية .



شجرة الطوبى

إن أقدم ذكرياتى التى تنبعث من مراقدها من حين إلى حين ،
وتتمثل أمام مخيلتى الغينة بعد الغينة ، تعود إلى أيام طفولتى الأولى ،
حيث كنا نقيم على مقربة من مدفن امرئ القيس

كنت إذ ذاك فى الثالثة من العمر ، وقد أصبت بمرض الحمى ، فعزلت
عن إخوتى فى غرفة منزوية مشرفة على الحديقة . كنت أقضى جميع
أوقاى فى تلك الغرفة مع داتى ، ولا أخالط أحداً من أهل البيت غير
والدى وأخى الأكبر ، إذ كانا يزوراننى صباحاً ومساءً ، ويأتياننى بلعب
مختلفة . وكنت أرى أحياناً من الشياك إخوتى يلعبون فى الحديقة ، حول
الحوض وتحت الأشجار ...

لا أدرى كم يوماً قضيت فى تلك الغرفة المنعزلة على هذه الصورة .
إنما أذكر أن والدى أتى ذات يوم برفقة أخى ، وأخرجنى منها ، ومشى بى
فى دهليز طويل ، ثم أدخلنى فى بهو كبير ، منظره لا يزال ماثلاً أمام
عيني . فى إحدى زواياه مضجع مرتفع ؛ وعلى المضجع أمى ، وفى جانبها
سرير صغير . فاحتضنى أخى ورفعى على السرير ، قائلاً بصوت
فرح :

— أخوك ... رصين ...

فرايت فى السرير ، بين الشف والحريز ، وجه وليد وسيم ، نائم
بهدهو تام . وودت أن أقبله كما كنت أقبل الدمنى ؛ ولكنهم لم يدنوني

منه ، بل أعادوني إلى غرقتي ، لا كمال أيام نقاهتي ...

ولا أدرى بعد كم يوم أخرجوني من الغرفة وتركوني حراً طليقاً ؛
فهرولت نحو البهو الكبير ، ورأيت المضحج لا يزال باقياً في محله ، وأنى
لا تزال جالسة عليه ، ولكنى لم أشاهد السرير الصغير بجانبها . فسألتها
سؤال مستفهم : أين رصين ؟

فأجابتنى أمى بصوت خافت ، هو أقدم وأحلى جميع الأصوات التى
أذكرها لها قائلة : فى شجرة الطوبى !

شجرة الطوبى ... عند ما سمعت اسمها توهمت أنها إحدى أشجار
الحديقة ؛ فنزلت إليها ، وأخذت أتمشى فيها ، ورأيت مرفوع نحو أغصان
أشجارها ، محاولاً مشاهدة رصين عليها ...

وكان أخى الثانى يلعب مع أختى فى إحدى زوايا الحديقة ، فعند ما
رأيتى أفتش على شئ بين الأشجار والأغصان ، دنا منى وسألنى :

— ماذا تعمل ؟

فأجبته فوراً : أفتش على شجرة الطوبى

ثم سألنى مستوضحاً : ولماذا ؟

فأجبته بكل بساطة : لى أرى رصيناً

فضحك أخى لجوابى هذا وقال : رصين ! تعال أريك أين هو ...

ثم أخذ يمشى أمامى ... خرجنا من باب الحديقة ، ومررنا من ميدان

فسيح ، ووصلنا إلى محل عجيب : عليه كومات من التراب وبعض

أنصاب من الأحجار ...

مشى أخى ، بين الأكوام والأنصاب بضع خطوات ؛ ثم وقف أمام

كومة من التراب ، وأشار إليها بيده ، قائلاً :

— رصين ... ههنا ...

أما أنا ، فبقيت حائرة أمام هذه السكومة ، إذ لم أفهم شيئاً من علاقتها برصين وبشجرة الطوبى ! ...

لقد تذكرت هذه الواقعة طول حياتي العاطفية والفكرية ، مرات كثيرة بوسائل عديدة ...

تذكرتها ... في صباي ... كلما رأيت شبح الموت الهائل يختطف أحد أقربائي وأصدقائي ، فتحصرت على تلك الأيام التي كنت لا أفهم فيها شيئاً من معاني القبر والموت ، وكنت أبحث فيها عن « شجرة الطوبى » في « عالم الحقيقة » ، وبين « أشجار هذه الدنيا » ...

وتذكرتها بعد ذلك ، كلما أقدمت على محاربة « النزعات الكلامية » وفقشت عن أمثلة حية تظهر إلى العيان عمل الكلمات في الأذهان ، وتقيس مبلغ تضليلها للإنسان .

وها أنا قد تذكرتها في هذه الأيام ، بوسيلة جديدة ، على أثر قصة قصتها على ابني خلدون ، بناء على ما سمعته حول - دحية الكلبي - :



دحية الكلبي

دخل على خلدون ، وعلى وجهه علائم الاستغراب والجلد ، وبادرني
بالسلام قائلاً : تعلمنا اليوم في درس الدين ، كيف أن محمداً عليه الصلاة
والسلام ، صار نبياً ...

وأخذ يقص على تفصيلات هذا الدرس ، باستغراب وحماسة :

— أتى جبرائيل ، وقال له : اقرأ باسم ربك الأعلى ... تخاف النبي
وخديجة قالت له لا تخف ... وصار يأتي إليه جبرائيل كل يوم وكان
يأتي مرة بهيئة الشيخ ، ومرة بهيئة الشاب ، ومرة بهيئة الكلب
فقاطعته مستغرباً : بهيئة الكلب ؟ من قال لك ذلك ؟ -

فأجابني فوراً ، وباطمئنان تام : المعلم قال لنا في الدرس : جبرائيل كان
يأتي أحياناً على هيئة الكلب ...

ثم استمر في قصته بتأكيد أعظم : نعم أتى بهيئة السكاب ، وقال له
— (وهنا أخذ خلدون يلفظ الكلمات بتقليد أصوات السكاب) —
قال له : اقرأ ... باسم ... ربك الـ ... أعلى ...

دهشت لقصة هذا الدرس ، ووطنت النفس على مواجهة المعلم في هذا

الباب ...

واتفق لي أن صادفت ذلك اليوم أحد علماء الدين ؛ فرأيت
أن أستوضح منه تفاصيل الروايات المتعلقة بحادثة الرسالة . فأخذ يشرح لي
تلك الروايات الواحدة تلو الأخرى ، إلى أن قال : إن جبرائيل كان

يتراءى للنبي على الأكثر بهيئة شاب جميل الطلعة ، وعلى الأخص بهيئة
أحد الصحابة الذي كان مشهوراً بصباحة الوجه ، وكان معروفاً باسم
دحية السكبي

دحية السكبي ... إن ذكر اسم هذا الصحابي صار بمثابة بارقة هدتني
إلى تفرس ما جرى في الدرس الذي بحث عنه خلدون : يظهر أن المعلم
أراد أن يتوسع في بحث الرسالة ، وذكر هذه الرواية ، قائلاً للطلاب
إن جبرائيل كان يأتي أحياناً بهيئة السكبي ، بدون أن يوضح هوية هذا
الصحابي ؛ فظن خلدون أن المعلم قصد من ذلك « الكلب الحقيقي » ،
وتصور الواقعة على هذه الصورة ... وبفعل « النزعة التجسيمية » التي
تسود في أدمغة الأطفال ، والخيالة التمثيلية التي تتحكم في خواطرهم ...
أقدم على تكرار الكلمات بتقليد أصوات الكلاب !

ما أعظم الفروق التي تحدث بهذه الصورة بين ما يقوله المعلم ، وما يفهمه
الطالب ... وما أشد الأضرار التي تنجم عن الدروس التي لا يلاحظ فيها
المعلم عقليات الأطفال ونزعاتهم !



حرية الحمّار

لا أذكر لماذا اخترت في ذلك اليوم الاضطجاع على الكرسي الطويل في القاعة الكبيرة ، وقت القيلولة

كانت القاعة مفضية إلى الحديقة ومتصلة بها بباب كبير زجاجي ، ونافذتين مائلتين ، تزداد بهما مساحة النظر اتساعاً . فكنت أرى ، وأنا مضطجع على الكرسي كل ما في صحن الدار : الحديقة التي في الوسط ، والأشجار والأزهار المغروسة فيها ، والممشى العريض الذي يحيط بها ، والجدار الجانبي الذي يؤدي إلى الباب الخارجي ، فشاطىء النهر ، فباب السرداب وشباك المطبخ ، والحمّار الصغير المربوط بحديد هذا الشباك ، في الزاوية المقابلة للقاعة

كان الجو حاراً ، والهواء راكداً ؛ وكنت لا أرى للحركة أثراً حتى في أخف الأزهار وأدق الأوراق . فأخذت أعصابي تتخدر بتأثير هذه الحرارة المستولية ، وهذا السكون الشامل . غير أنني رأيت بعد مدة أن الحمّار قد أدخل بفتحة بهذا السكون ، وتحرك من الزاوية التي كان مربوطاً بها . فدار إلى الوراء ، وأخذ يمشي طول الحديقة ، ثم توجه نحو مجاز الباب . إنه كان جحشاً صغيراً ، ربيّناه في الدار منذ بضعة شهور ليتركبه خلدون من حين إلى حين ؛ فسكان الخادم يوصله إلى شاطئ النهر كل يوم عدة مرات ، ثم يعيده ويربطه بحديد الشباك . فعند ما رأيته يتباعد عن قرنته المعتادة ، ظننت أن الحبل الذي كان يربطه قد انحل . وحينما

رأيتُه يقترب من مجاز الباب ، هممت أن أنهض من محلى لأنادى الخادم ،
وأطلب إليه أن يمسك الحمار ويعيده إلى مربطه . غير أنني قلت في نفسي :
لا حاجة إلى ذلك . إنه سيذهب إلى الشاطئ ، بطبيعة الحال . فلا يصعب
على الخادم أن يمسكه عند ما يستيقظ ، وهكذا عدلت عن فكرتي ،
وعدت إلى قيلولتي

ولكن لم يمض على ذلك وقت طويل ، حتى سمعت وقع أقدام الحمار
على البلاط ، ورأيتُه يدخل صحن الدار من حيث خرج ، ويدور حول
الحديقة إلى أن وصل قرنة المطبخ ، ووقف هناك ... كما كان يقف عادة
عند ما كان يربط بمحيد الشباك

فهمت عندئذ أنه لم يكن مربوطاً بحبل ما قبل خروجه من الدار
أيضاً ، وأنه كان يقف هناك بحكم الاعتياد ، ويخرج إلى الشاطئ كلما شعر
بعطش ، ثم يعود إلى مربطة من تلقاء نفسه بعد أن يستوفي حاجته
من الماء

لقد أثارت هذه الواقعة في ذهني سلسلة طويلة من الملاحظات :
أن هذا الجحش حر غير مقيد بقيد مادي ؛ وها هو مع ذلك
واقف هناك كأنه مشدود بحبل قصير إلى الشباك . لم يقده أحد إلى
شاطئ النهر ، ولم يرجعه أحد إلى صحن الدار ؛ غير أنه ذهب إلى الشاطئ
وعاد منه كأنه في رعاية سائس يتودده على الدوام
إن الحبل الذي كان يربطه بالشباك قد زال من عالم الوجود منذ أمد
غير يسير ؛ غير أنه ترك محله — قبل زواله — إلى حبل معنوي وقيد

داخلي أقوى منه فعلاً وأشد تأثيراً . إذ كان الحمار ولا شك يحاول الإفلات من ذلك الحبل المادي من حين إلى حين ، ولكنه لم يحاول قط الإفلات من هذا الحبل المعنوي أبداً ...

والسائس الذي كان يقوده إلى الشاطئ ويعيده إلى الدار ، انقطع عن العمل منكز من غير يسير ؛ ولكنه ترك محله — قبل ذلك — إلى قائد داخلي ، يقوده كسائس غير مرئي إلى نفس المحلات ، من نفس الطرق ، وفي نفس الأوقات

إنه الآن حر طليق في الظاهر ، ومقيد أسير في الحقيقة : إنه مقيد معني بالحبال التي كانت تربطه في الماضي فعلاً ؛ كما أنه منقاد داخلياً للسائس الذي كان يقوده قبلاً

ولكن هل هذا الحال خاص بالحمار ؟ أفلا تقشابه حرية الإنسان أيضاً مع حرية هذا الحمار في بعض الأحيان ؟

إن للحرية وجهتين ونوعين : الحرية الداخلية والحرية الخارجية . الحرية الظاهرية والحرية الحقيقية . وبتعبير آخر : الحرية المادية والحرية المعنوية

فكم من الناس من لم يكونوا أحراراً إلا في ظواهر الأحوال ! وكم منهم من يعيشون مقيدين بقيود داخلية معنوية ، تحدد عليهم أعمالهم وأفعالهم من حيث لا يشعرون !

وكم من الآباء والمربين من يقيدون الأحداث بقيود شتى — معقولة وغير معقولة — ظناً منهم بأنها ستكون مؤقتة ، وبأنهم سيتمكنون من رفعها عند ما يتأكدون من عدم الحاجة إليها

نعم ! إنهم يتوهمون بأنه سيكون في استطاعتهم أن يفسحوا أمام
الطفل مجال الحرية عندما يشاءون . غير أنه يفوتهم بأنهم سوف لا يفعلون
ذلك إلا بعد أن يكونوا قد أبادوا من نفسه بذور الحرية من حيث
لا يدرون !

نعم ! إنهم سيقولون له يوماً من الأيام : « أنت حر الآن ، فافعل
ما تشاء » ؛ ولكنهم سوف لا يقولون ذلك إلا بعد أن يكونوا قد كبلوا
مشيئته بأصفاد وأغلال لا تعد ولا تحصى ، من حيث لا يشعرون !
ألا يكون في قصة هذا الجحش الصغير عبرة لهؤلاء المربين والآباء !

شجرة الكرز

كنا قضينا بضع سنوات من حياة صبانا في دار ذات حديقة صغيرة ،
لم يكن فيها من الأشجار سوى تينة كبيرة ، ولكنها غير مثمرة ، وخوخة
صغيرة لم تصل بعد إلى دور النضوج والإثمار

وكما لعبنا في تلك الحديقة الصغيرة ، كنا نشعر بحسرة غريبة على
الحداثق التي عشنا فيها قبل انتقالنا إلى تلك المدينة . وكما رأينا وأكلنا
الفواكه ، كنا نتذكر بشوق وحنين تلك الأيام التي اقتطفنا فيها
مثل تلك الفواكه من أشجارها ، ذكرى يمازجها شيء كبير من
التشوق والتلهف

وفي ذات يوم ، بينما كنا نأكل الكرز ، اكتشفنا طريقة بديعة
لتسكين هذا الشوق وهذه الحسرة : أخذنا نعلق الكرز على أغصان

شجيرة الخوخ من أذنا به المزوجة ، وجعلناها بهذه الصورة على هيئة
شجرة مشمرة تحمل عدداً كبيراً من الأثمار الحمراء القانية !

لا أزال أذكر الفرح العظيم الذي تملك قلوبنا أمام منظر هذه
الشجرة المصطنعة : أخذنا نقفز ونلعب حول الشجرة التي أثمرت أثماراً
جائياً بهذه الحيلة البسيطة . وصرنا نحني من حين إلى حين بضع حبات
من الكرز ، ونأكلها بشهوة ولذة لا حد لها ، كأننا نقطف الأثمار من
شجرة مشمرة حقيقية !

وبينما كنا نفرح ونفرح بهذه الصورة ، إذلمت في أذهاننا بارقة
فكرة جديدة : أن الكبار لم يكونوا عندئذ في الدار ؛ ما أعظم الحيرة
التي ستستولي عليهم عند ما يرون هذه الشجرة مزدانة بالأثمار ، عقب
دخولهم من باب الدار !

فقررنا فوراً ، وتأهبنا للتفرج على ذلك بتهالك عظيم : تعهد أحدنا
أن ينتظر عودة الكبار خلف الباب ، ليفتحه حالاً دون أن يترك مجالاً
لحجى الخدم ، واختبأ كل منا في زاوية أو وراء نافذة

ما أعظم الهياج الذي شعرنا به في ذلك اليوم ، ونحن ننتظر دق
الباب ! وما أشد الضحك الذي استسلمنا إليه عندما دخلت أمنا من
الباب ، وضحكت للعبثنا

وكم مرة عدنا بعد ذلك اليوم أيضاً إلى هذه اللعبة الغريبة ، وزيننا
الشجيرة بأثمار شبيهة ! كم مرة خدعنا أنفسنا كما حاولنا أن نخدع أهل
بيتنا بمثل هذه الألعاب الصبائية !

لا أدري إذا كان الأولاد الذين يقدمون على مثل هذه الألعاب

كثيرين ، ولكنى أرى أن الرجال الذين يقدمون على أعمال أشبه هذه
الألعاب الصبائية غير قليلين

وما الفرق في الحقيقة بين المربين الذين يتوهمون أنهم قد قاموا
بواجبهم بمجرد نجاحهم في تحفيظ بعض الكلمات وتكرير بعض العبارات ،
وبين أعمال الأطفال الذين يلعبون بتعليق الفواكه على الأغصان !

أوليس مثل المربين الذين لا يدركون بأن كل فضيلة ومزية إنما
هي ثمرة تتكون على شجرة ، وأن إنتاج هذه الثمرة يتوقف على
الاشتغال والاهتمام بالأتربة والجذور والديدان والأشواك ... كمثل
الأطفال الذين يحاولون استثمار الأشجار بتعليق الفواكه المستعارة على
أغصانها الطرية !

إثبات الذات

كما اتهمنا من قبلولتنا ، وجلسنا في القاعة ، وأخذنا نشرب
الشاي ونتجاذب أطراف الحديث ، عند ما سمعنا ولولة طفل ، تتغلغل
في الهواء تغلغلاً غريباً : صوت خلدون ، يتدفق بقوة وسرعة ، ويموج
بالفرح والسرور :

— شوفوني أين أنا ؟ ... شوفوني : نزلت وحدى ! نزلت بنفسى !
شوفوني ... شوفوني ...

وكان الصوت يرتعش من فرط الوجد والاعتباط ، ويكرر نفس
الألفاظ بأشكال مختلفة ، بدون أن يفقد شيئاً من أداء الهياج والخبور :

— يا بو، شوفنى ... يا مسو، شوفينى ... نزلت وحدى ا شوفونى
نزلت بنفسى ...

خرجنا من القاعة ، ورأينا وراء الحجر ، يقفز ويصيح ، وخداه
محران من الهياج ، وعيناه تلعبان من الاغتياب :
— نزلت بنفسى ، نزلت وحدى

كان إذ ذاك فى الثانية والنصف من العمر . وكان ينام — كل يوم —
بعد الظهر — فى سرير مرتفع الجوانب . وعند ما يفيق من القيلولة ، كان
ينادى الخادمة ، لتأتى وتنزله من السرير . أما فى ذلك اليوم ، فيظهر أنه
لم يرد أن يناديها ، بل أراد أن يحاول النزول بنفسه ، من غير أن يستعين
بها . ولا ندرى بعد أى جهد جهيد تمكن من إدراك بغيته ، ونجح
فى « النزول وحده » . إن كل سروره ، وكل هياجه ، وكل ولولته ،
كانت ناتجة عن هذا « النجاح » . إنه كان ينادينا ، لنشاهد نجاحه ،
ونشاركه أفراحه .

أقول « نجاح » ، لأن « النزول من السرير بدون مساعدة أحد »
مهما ظهر لنا ، نحن الكهول ، من الأمور التافهة ، فإنه بالنسبة إليه وإلى
أمثاله لمن « الأمور الجسام ، التى تحتاج إلى جهد وإقدام » ، وكان
من حقه أن يغتبط كل ذلك الاغتياب ، لنجاحه فى هذا العمل الهام .

لقد فوجئنا — فى اليوم التالى — بولولة معكوسة ، ولولة بكاء
وعويل : سمعنا بكاء متهيجاً ، وصراخاً متألماً ، ممزوجاً بكلمات غير
مفهومة : وظننا أنه قد وقع من السرير ، عند ما كان يحاول النزول منه .

وحده ، كما فعل بالأمس . ظننا ذلك ، وهزلنا نحو غرفته ولكننا بهتنا
بمشاهدة منظر غريب ، غير ما كنا توقعناه : كانت الخادمة هناك ، وكان
هو واقفاً على الأرض بجانب السرير ، يحاول التسلق إليه ، ويصيح
بصوت متقطع ، يكاد يخنقه الهياج :

— حظوني في السرير : خلوني أنزل وحدي ... أعيدوني إلى
السرير ... أريد أن أنزل بنفسى

فهمنا عندئذ أنه أراد أن يعيد عملية الأمس ، ويدوق مرة
أخرى لذة « النزول بدون مساعدة أحد » . ولكن الخادمة رآته ،
وأرادت « تخليصه من تعب النزول » فحملتته وأنزلته من السرير .
إن كل ألمه وصراخه ، كل غضبه وهياجه ، كان متولداً من ذلك ، من
منعه من « النزول بنفسه » .

كان يبكي مع خفقان ، ويرتجف من شدة الهيجان ، ويكرر طلبه
بالخاح وإصرار :

— حظوني في السرير ... خلوني أنزل وحدي ... حظوني ...
خلوني ...

حملناه ووضعناه في السرير فانقطع حالاً عن البكاء والعيويل ،
وأخذ يجرب قوته ، ويبذل جهده ، ويحاول « النزول وحده » ...
وعند ما تمكن من ذلك أخيراً . صار يصفق ويقفز ويرقص من
الفرح والخبور

إن الخادمة أرادت « تخليصه من تعب النزول » ، ولكنها

ما عرفت أنه كان لا يشعر في ذلك بتعب ، بل كان يجد فيه « لذة
عظمى » . وإنها بمحاولتها تخليصه من تعب النزول « حرمة من
وسائل إثبات الذات »

إن نزعة « إثبات الذات » من أهم نزعات الأطفال . فكل طفل
يميل بوجه عام إلى إثبات ذاته وإظهار قوته ، وينزع دوماً إلى العمل
والحركة من تلقاء نفسه

ولكن كم وكَم من الآباء والأمهات ، والمعلمين والمعلمات ، يعملون
عمل هذه الخادمة الساذجة ، ويحرمون الأطفال من لذة إثبات الذات
والعمل التلقائي ، ويستأصلون من نفوسهم هذه النزعة الثمينة ، من
حيث لا يدرون !



التربية بالثقة

كل العلامات المراقبة كن يشتكين منه مر الشكوى : كان طفلاً في التاسعة من العمر ، ذكياً نشيطاً ، لا يتأخر عن رفقاته ورفيقاته في شيء ، بل يتفوق على معظمهم في كثير من الأشياء ؛ غير أنه كان يظهر — في صباح كل يوم — كسلاً غريباً ، يخالف سلوكه العام مخالفة بينة : يتأخر في النهوض ، يتراخي في اللبس ، لا ينتصب في فراشه إلا بعد عدة إخطارات ، ولا ينتهي من عملية لبس جواربه إلا بعد ما ينتهي السكل من جميع عمليات اللبس وتنظيم المندام ؛ ولا يتمكن من مفارقة قاعة النوم إلا بعد أن يكون قد دخل كل الطلاب والطالبات قاعة الطعام . وكل النصائح التي أسديت إليه من العلامات في فرص متنوعة ، وكل التدابير التي اتخذت لحمله على الإسراع في النهوض واللبس ، في أيام مختلفة ، ذهبت بأجمعها سدى ، ولم تجده نفعاً ؛ فقد ظل « أكسل التلاميذ في قاعة النوم » مع أنه كان من أنشطهم في حديقة الألعاب ، كما ظل من أبطأ التلاميذ في الصباح ، مع أنه كان من أسرعهم طول النهار .

أردنا أن نستطلع أسباب هذه الحالة الغريبة من أمه ، آملين أن نهتدي من معلوماتها عنه وخبرتها به ، إلى طريقة تمكننا من معالجة هذا الكسل الغريب . غير أنها ما سمعت قصتنا إلا وقد انبرت تقول ، بابتسامة يمازجه الألم : إن هذه الحالة متأصلة فيه منذ صغره ، وإنها عجزت

عن تخليصه من هذا الكسل الصباحي ، بالرغم من كل الجهود التي بذلتها
والوسائل التي عمدت إليها منذ أمد طويل

وقد استمررنا بعد ذلك على محاولة إصلاحه بكل الطرق التي تخطر
على البال ، إلى أن أعيتنا الحيل

فأطرقت أفكر في الأمر عندئذ باهتمام أكبر ، ورأيت أن أستعين
بإحدى وسائل التربية الجديدة التي أنت بكثير من النتائج الباهرة
في المدارس الحديثة : فقررت أن أحاول معالجة هذا الكسل بالثقة
والاعتماد ...

كنا نعهد ببعض الوظائف الليلية إلى الطالبات الكبيرات ، على
طريق المفاوبة : وكان من جملة تلك الوظائف مهمة إيقاظ الطلاب
والطالبات ، كل صباح ، في الوقت المعين للنهوض . فقد قررت أن نعهد
بتلك المهمة ، في ذلك الأسبوع ، إلى هذا الطفل الكسول ، لعلنا
نستطيع بهذه الطريقة تخليصه من تأخره المستمر

إن المعلمات والمربيات قد استغربين هذا القرار استغراباً كبيراً :
كيف يجوز لنا أن نعهد بمهمة إيقاظ الطلاب والطالبات إلى طفل يحتاج
هو كل يوم إلى إيقاظ مكرر ؟ كيف يعقل أن نترك هذه المهمة
في أيدي كسول ، قد عجزنا نحن عن إيقاظه في الأوقات المعينة ؟

غير أنني لم أبال بهذه الاعتراضات وقلت لهن : « فلنجرب ! »
ولقد جربنا ، ووصلنا إلى نتيجة باهرة ، في أول ليلة من ليالي تجربتنا
لقد فرح الطفل فرحاً عظيماً من الثقة التي وضعناها فيه ، وطلب
إلى الخادومات بالحاح شديد إيقاظه قبل الوقت المعين بساعة تامة ،

لكي يتمكن من الاستعداد لأداء المهمة المودعة إليه . وقد علمنا بعدئذ ،
 إنه استيقظ من النوم في تلك الليلة عدة مرات ، وسأل في كل مرة
 الخادومات « هل حان الوقت لدق الجرس ؟ » وهكذا ، لبس ثيابه
 ونهياً لعمله قبل الوقت المعين بمدة غير قليلة . وعند ما حان الوقت حمل
 الجرس بيده تهالك عظيم ، وأخذ يطوف على غرف النوم بنشاط كبير
 ويوقظ رفقاءه ورفيقاته باغتياب ظاهر

توالت الليالي ، وظل الطفل مغتبطاً بالمهمة التي أودعت إليه كل
 الاغتياب ، متهاكاً على أدائها حق الأداء

وعند ما نقلنا تلك المهمة — بعد مدة — إلى طالب آخر ، كان هو
 قد تخلص من كسله الصباحي ، وتعود النهوض من الفراش دون تأخر ،
 وإتمام اللبس وتنظيم الهندام دون تباطؤ

وهكذا قد عملت « الثقة » في نفسه ، ما لم تستطع عمله أنواع
 الترغيب ، والنصح ، والإنذار ، والتخجيل
 وقد آمنا كلنا ، بعد هذه التجربة ، أن وضع « الثقة » في الطفل ،
 من أئمن وأنجح وسائل التربية والنهذيب



اندفاعات النفس

ونسوب موت المميط

بينما كنت أشتغل في مكتبتى قبيل المساء ، إذ دخل على بفتة خلدون ، فى حالة عصبية غريبة ، وطلب بإلحاح أن أتبعه إلى طنف الدار المشرف على شاطئ دجلة وعند ما رأى تباطؤى فى تلبية طلبه هذا ، أخذ يقص على ما شاهده من الطنف ، بهياج شديد ، ممزوج ببكاء وعويل قال :

بينما كان طفل صغير يستحم فى النهر ، إذ هم عليه رجل كبير ، وأخذ يضربه بلا رحمة ولا إشفاق :

— أرجوك يا بو ... تعال قوام ، رايح يموت الولد ! هو عريان ، والرجل يضربه بلا رحمة ... تعال قوام ، وخلصه من أيدي هذا الظالم ... تعال قوام ، أرجوك قوام ...

قال لى كل ذلك ، وصوته يرتجف من ثورة الألم ، وجوانحه ترتعش من شدة الهياج

شعرت فى تلك اللحظة بسرور عميق ، لدى مشاهدة آثار الشفقة والعطف التى كانت تبدو على محياه . فخرجت من مكتبتى ، وتبعته إلى طنف الدار

ورأيت هناك أناساً متجمهرين على الشاطئ ، وصرت أسمع من بين ضوضائهم أصوات الضرب ورنين البكاء ، ولكننى لم أتمكن من تشخيص

الضارب ، كما أنني لم أجد سبيلاً إلى إسماع صوتي المتجهمين لحثهم على
حماية المضروب ، فرأيت أن أنزل إلى الشاطئ بنفسى ، وطلبت خوذتى .
كان خلدون مستمراً على البكاء والهيّاج طول هذه المدة ، فكلاماً
نزلت ضربة جديدة على بدن الطفل ، كانت تصدر صيحة شديدة
من جوارحه ، وكأن الضربة نزلت عليه . وكان يحتدم غيظاً على المعتدى ،
ويطلب إلى الإسراع فى نجدة المسكين ...

كنت قد وضعت الخوذة على رأسى ، وممّمت بالخروج من الدار
للذهاب إلى الشاطئ ، وإذا بصوت جديد يطرق سمعى من الطنف :
— وما عليك أنت ؟ لِمَ تصيح وتبكي على هذه الصورة ؟ هل
ضربك أحد ؟ وماذا يهمك إذا ضربوا ...

كان ذلك صوت الطباخة التى يظهر أنها ذهبت إلى الطنف لمشاهدة
ماحدث ؛ فاستغربت بكاء خلدون وأرادت أن تنصحه بهذه الكلمات ،
من غير أن تدرك ما فى نصيحتها هذه من تخدير وتسميم لأرق العواطف
الإنسانية ...

ولقد غضبت على هذه النصيحة المخدرة غصبة شديدة ، فتهرت
الطباخة نهراً عنيفاً ، وأمرتها بالعودة إلى مطبخها حالاً ...

ثم خرجت من الدار ، وفى ذهنى مقارنة بين كلام الطباخة العجوز
وبين عمل الشيطان : ألم تكن هذه العجوز بمثابة « الشيطان الخناس
الذى يوسوس فى صدور الناس ؟ »

عندما وصلت الشاطئ ، كان الضارب قد هرب ، والجمع تبعثر ...

فأخذت أستعلم من الناس عن هوية الضارب ، وأستطلع منهم تفاصيل الواقعة ؛ غير أنني لم أحظ بجواب يطلعني على حقيقة الأمر ؛ لأن جميع الأجوبة التي تلقيتها منهم لم تخرج قط عن دائرة السلب والإنكار : « لا أدري ، لم أشاهد ، لا أعرفهم ، لم أكن هناك ، لم أقرب منهم ، لم أتبعه إليهم » ولم أصادف بين جميع الحاضرين شخصاً واحداً يعترف بأنه رأى شيئاً مما حدث ...

كان يستحيل عليّ أن أسلم بصدق هذه الأجوبة ، وألا أجزم بأن معظمهم كان يعرف تفاصيل الواقعة معرفة تامة . فماذا حملهم على هذا التجاهل ياترى ؟ ماذا حدا بهم إلى سلوك مسلك الإنكار والسكتمان بهذه الصورة ؟

وبينما كنت أحاول إقناع أحدهم بتبيين الحقيقة سمعت من ورائي صوت رجل يتحدث إلى رفيقه قائلاً :

— مالى ولهؤلاء الناس ؟ لماذا أتدخل فى أمورهم وأستجلب عداوتهم ؟

ماذا يهمنى ما يحدث بينهم ؟

ماذا يهمنى ! ماذا يهمك !

تذكرت فى تلك اللحظة النصيحة الخدرة التى سمعها خلدون على لسان الطباخة قبل برهة من الزمن . فقلت فى نفسى : لا شك فى أن أمثال تلك النصيحة قد أقيمت على مسامع هؤلاء الناس منذ صغرهم ، مئات بل آلافاً من المرات ، وعملت فى نفوسهم عملاً مستمراً ، تظهر آثاره للعيان فى المسلك الذى يسلكونه الآن

فعادت إلى تخيلتى فكرة « الشيطان الخداس » إنه كان قد تمثل

أمام عيني — قبل برهة من الزمن — على هيئة « مجوز توسوس في صدر
خلدون » ! وها هو يتمثل الآن أمام مخيلتي على شكل « بيثة توسوس
في صدور الناس » وتنجيح في الوسواس ...

درس الساعة

سار الدرس بارتباك شديد ، وانتخى بفشل غريب ، مع أن المعلم
كان قديراً والموضوع كان بسيطاً

إنه كان من أمهر طلاب دار المعلمين . أما الموضوع المخصص لدرسه
فكان تعليم « كيفية قراءة الساعة » بصورة عملية

دخل المعلم الفصل ، وفي يده « دائرة ساعة » كبيرة ، عليها عقربان
يحركان بالأصابع ، وفي محيطها حلقتان لتعليقها على الحائط

افتتح الدرس بسؤال عام : « من منكم يعرف الساعة ؟ » ، فعلم من
أجوبة التلاميذ أن عدد الذين يعرفونها لم يكن قليلاً ، فأخذ يستعين
بمعلومات هؤلاء في شرح كيفية قراءة الساعة لبقية التلاميذ

ثم شرع يطبق القواعد التي ذكرها على « دائرة الساعة » :
فوضع العقربين على وضع الساعة « الثانية عشرة » ، وطالب إلى التلاميذ
أن يقرأوها ، ولكنه اصطدم بجواب غريب : إذ أن عدة تلاميذ ادعوا
أن الساعة تدل على « واحدة وخمسة » . فغير المعلم وضع العقربين ،
وجعلهما يشيران إلى « الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة » حقيقة ،
ليريهم خطأهم في هذا الباب ، ولكنه دهش هذه المرة لتلقيه جواباً

آخر بعيداً عن الحقيقة بعداً كبيراً : إذ أنهم قالوا إن الساعة هي « اثنتان وعشرة ! » وجعل العقربين بعد ذلك يشيران إلى الساعة « الثانية والدقيقة العاشرة » ، ولكنه رأى التلاميذ يقعون في خطأ جديد ، ويقولون هذه المرة : « إن الساعة ثلاثة وربيع ! »

واستمر الحال على هذا المنوال في جميع التمارين والأمثال : وعبثاً حاول المعلم تفهيم الأمر بطرق وأساليب مختلفة : فكل الطرق التي طرقها ، وجميع الوسائل التي توسل بها ، لم تزده إلا ارتباكاً . وفي كل مرة كان التلاميذ يجيبون على سؤاله بجواب خطأ ، ويصرون على هذا الجواب ، وكان هو يعترض على جوابهم ، ويحاول تفهيمهم الصواب من غير أن يتمكن من إزالة الغموض الذي أحاط بالدرس إحاطة غريبة ، ومن التغلب على الشكوك التي كانت تخامر التلاميذ على الدوام

فظهر لنا عندئذ أن المعلم أخذ يعزو سلوك التلاميذ تارة إلى « التعنت » وتارة إلى « المزاح » ، كما أن التلاميذ أخذوا يعزون كلمات المعلم تارة إلى « الجهل » وتارة إلى « الخداع » ، وصار التلاميذ يتهايمسون ويتغامزون ويتضاحكون ، وأخذ المعلم يخرج عن دائرة الاعتدال ، يصيح وينهر ، ويصخب ويغضب ، فاختل نظام الدرس وعمت الفوضى في الفصل

انتهى الدرس وخرج المعلم ذاهل اللب من المشاكل التي اعترضته بصورة غير منتظرة ، منهوك القوى من الجهود التي بذلها للتغلب على تلك المشاكل الغريبة . وظل رفاقه في حيرة عميقة ، لا يدرون بماذا يعللون القشل الذي أصاب زميلهم ، خلافاً لما كانوا يعدونه به من المقدرة في

تفهيم الدرس وضبط الفصل

أتدرون ما ذا كانت علة ذلك الفشل الغريب ؟
 خطأ يسير في كيفية عرض « دائرة الساعة ! » كان في طرف
 الدائرة حلقتان للتعليق : الواحدة حذاء خط « الحادية عشرة » ، والثانية
 حذاء خط « الواحدة » ، وكان المعلم يمسكها من إحدى هاتين الحلقتين ،
 عندما يعرضها على أنظار التلاميذ ، ولم ينتبه إلى أنه كان يغير بذلك
 أوضاع الخطوط ، ويعطى « الشاقولية » تارة إلى خط « الحادية عشرة »
 وأخرى إلى خط « الواحدة ! » وذلك في حين أن التلاميذ كانوا يظنون
 أن الخط الشاقولي هو الذي يدل على « الثانية عشرة » ، ويبعدون سائر
 الخطوط اعتباراً من هذا الخط !

إن جميع المشاكل التي جابهها المعلم كانت ناتجة عن هذا الذهول
 الطفيف .

مضى على هذه الحادثة مدة طويلة جداً ، ومع هذا لا أزال
 أذكرها بجميع تفاصيلها بوضوح تام ، لأنني وجدت فيها أحسن الأمثلة
 وأبلغها ، لتبيين (خطورة العرض) في الدرس
 إن خطأ يسيراً في كيفية عرض (دائرة الساعة) على أنظار التلاميذ ،
 وذهولاً بسيطاً في ملاحظة (نقطة نظرم إليها) إديا إلى ارتباك البحث ،
 وفشل الدرس ، واختلال النظام

فهل من شك في أن كيفية « العرض » قد تؤثر تأثيراً أعظم من ذلك ،
 عند ما يكون الموضوع معنوياً وذهنياً ، حيث تختلف نقاط النظر اختلافاً
 كلياً ، لا يمكن أن يقاس باختلاف نقاط النظر في الأمور المادية والملموسة ؟

ألا يمكن أن نقول إذن : إن معرفة « أحسن الأساليب في عرض الأشياء والأبحاث » لمن أهم (شروط النجاح) في التفهيم والإقناع ؟

درس الجمل

دخل المعلم الفصل ، وفي يده لوحة كبيرة مستورة بالورق ؛ فعلق اللوحة على الجدار ، بدون أن يكشف عنها الستار ؛ ثم شرع يستجوب التلاميذ :

— ماذا تعملون صباحاً ، عند ما تستيقظون من النوم ؟
فانهاالت عليه — رداً على هذا السؤال العام — كمية كبيرة من الأجوبة المتنوعة :

— أغسل وجهي ... أبوس يداي ... ألبس حذائي ... ألعب مع أختي ... أشرب الشاي ... آكل فطوري ... أشرب الحليب ... أقرأ درسي ... أكتب واجبي ... ألبس ثيابي
فارتاح المعلم إلى الجواب الأخير ، فوجه أولاً إلى صاحب الجواب ، ثم وجه إلى سائر التلاميذ سؤالاً آخر :

— ومن أي شيء يصنع الثياب ؟
فانتقلت الأجوبة عندئذ إلى الصوف والكتان والقطن والحرير والخروف الذي يعطينا الصوف ، والدود الذي يصنع الحرير
غير أن المعلم لم يرتح لهذه الأجوبة ، وظل يسأل :
— وبعد . من أي شيء يصنع الثياب ؟

وثابر على تكرير هذا السؤال حتى سمع من أحد التلاميذ كلمة « وير » ؛ وفرح عندئذ فرحاً ظاهراً ، ثم سأل بهالك عظيم :

— ومن أى شيء يأتينا الوير ؟

غير أن فرحه هذا لم يدم طويلاً ، لأنه تلقى على هذا السؤال أجوبة لا توافق ما يجول في خاطره :

— من السوق ، من البدو

فأخذ المعلم يتعجب من هذه الأجوبة ؛ وظل يكرر السؤال باشمزاز واقباض ، إلى أن قال أحدهم :

— من الجمل

تنفس المعلم عندئذ الصعداء ، وصاح بالتلاميذ قائلاً :

— إذن ، درسنا اليوم (الجمل)

فذهب تَوّاً إلى السبورة وكتب بجانب تعبير « موضوع الدرس » كلمة « الجمل » . ثم كشف الستار عن اللوحة المعلقة على الجدار ، وأظهر الجمل الذى كان مرسوماً عليها

وهكذا شرع فى الدرس ... بعد أن صرف نحو ربع ساعة فى مقدمة غريبة

انتهى الدرس وخرج التلاميذ من الفصل : فوقف المعلم بين زملائه : مستعداً للدفاع عن الخطة التى اتبعها ، وعلى وجهه من علائم الارتياح والاعتباط ما يدل على أنه كان واثقاً من طريقته ، مسروراً من نجاح خطته ...

فقد جرت بينه وبين زملائه مناقشة طويلة ، دارت حول نقاط

عديدة ؛ غير أنها لم تتناول قط المقدمة الغريبة ؛ فاضطرت إلى الاشتراك في المناقشة من هذه الوجهة ، وقلت للمعلم :

— أود أن أناقشك في المحادثة الطويلة التي بدأت الدرس بها ؛ إنك صرفت ربع الدرس في محادثة لا تتعلق بالموضوع . لماذا ؟
وبأي قصد ؟

فأجابني فوراً — بقصد التوصل إلى موضوع الدرس
فسألته ثانية : — وما الفائدة من الالتجاء إلى مثل هذه الوسائل ،
للتوصل إلى موضوع الدرس ؟

فأجابني مستغرباً : — أليس من الضروري أن يبدأ الدرس بمقدمة ؟
— وما القصد من المقدمة ؟
— التوصل إلى موضوع الدرس
— إذا كان الغرض من المقدمة هو التوصل إلى موضوع الدرس ،
فأني أقول إنه لا لزوم للمقدمة أبداً

ولكن المقدمة ضرورية لجمع شتات أفكار التلاميذ .
— جمع شتات أفكار التلاميذ ؟ لا شك في أن هذه غاية مهمة ؛
ولكن ألا تظن أن مثل هذه المقدمات تؤدي إلى تشتيت أفكار التلاميذ
عوضاً عن جمع شتاتها ؟

سكت المعلم سكوت المرتاب المرتبك ؛ وبدلني حينئذ أنه استغرب
انتقادي استغرباً كبيراً ، لأنه وجدها موجهة إلى أحسن ما كان
في درسه ؛ كما بدلني أن زملاءه أيضاً شاركوه في الاستغراب ، كأنهم
وجدوها موجهة إلى خطة طبيعية معتادة ، لا مساغ للمناقشة فيها

فرايت أن أتوسع في موطن الخطأ في هذه المقدمة ، وألفتُ نظر الجميع إلى فساد المنطق المندمج فيها فقلت :

— فكروا جيداً : عندما لفظ أحد التلاميذ كلمة « الجمل » قال المعلم

« إذن موضوع درسنا اليوم : الجمل » ، فهل تجدون علاقة منطقية بين هذه النتيجة وبين المقدمات التي سبقتها ؟ أما كان في إمكان المعلم أن يقول ذلك في بداية المحادثة قبل هذه الكلمة أيضاً ؟ أما كان يستطيع أن يقول كذلك : « إذن ، درسنا اليوم الحليب أو الحذاء ... » مثلاً ؟ غير أن المعلم أبي أن يفكر في الأمر من هذه الوجهة ، واستمر في الدفاع عن تلك المقدمة فقال :

— ولكننا نحن تعلمنا في دروس التربية أن المقدمة ضرورية لكل

درس ، وهي المرتبة الأولى من مراتب التدريس الخمس

أحلت نظري في وجوه الحاضرين فرايت معظمهم يهزؤون رؤوسهم تأييداً لمدعاه ، وبعضهم يقلب صفحات كتاب « هدية المدرس » ويستعد للرد على انتقاداتي بما في ذلك الكتاب

وفهمت بعدئذ أن تلك المقدمة كانت موافقة كل الموافقة للمبادئ التي غرسها والنماذج التي عرضها معلمو التربية في دار المعلمين حتى ذلك الحين ؛ فاضطرت — بعدئذ — إلى بذل جهود كبيرة لمعالجة هذه العادة ، وحمل المعلمين على تحكيم عقولهم في مسألة « للندمة » ...

كنت أكره القواعد البائنة في التعليم ، وأحذر المعلمين من الوقوع في شر الميكانيكية في التدريس منذ زمن طويل ... غير أن

نفورى من القواعد الباتة لم يصل يوماً من الأيام إلى الدرجة التى وصل إليها بعد مشاهدة أمثل هذه الدروس :

— إذن ... درسنا اليوم ... الجمل !

التوافه الخطرة

عهدنا إلى أحد طلاب دار المعلمين العالية القيام بتدريس بحث الماء فى الصف الأول من مدرسة متوسطة ، وحضرنا الدرس مع أترابه ، وأخذنا نتتبع خطة المعلم فى الدرس من جهة ، ونلاحظ درجة انتباه أترابه إلى دقائق الدرس من جهة أخرى

كان المعلم قد استعد للدرس استعداداً كافياً ؛ فأخذ يجرى التجارب واحدة بعد أخرى ، ويناقش التلاميذ فى نتائجها مناقشة لا بأس بها . وقد ألقى فى الماء قطعة من البوتاسيوم ، وأرى التلاميذ الغاز المشتعل الذى يتولد من تفاعل هذا الجسم بالماء ؛ ثم أخذ قطعة من الصوديوم ، وألقاها كذلك فى الماء ، وافت أنظار التلاميذ إلى ما يحدث من تفاعل الصوديوم بالماء

غير أننى لاحظت خلال هذه التجربة أن الماء قد احمر احمراراً شديداً . ففجبت فى الوهلة الأولى لهذه الحادثة ؛ لأننى لم أعرف سبباً كيميائياً لهذا الاحمرار . وعند ما أخذت أفكر فى الأمر ، لاحظت السبب من فوق الشباك إذ كانت المدرسة فى دار اعتيادية ، وكان يعلو شبايكها أقواس مزخرفة ، مزدانة بزجاجات ملونة . ومن غرائب الاتفاق ،

أن أشعة الشمس التي مرت من إحدى الزجاجات الحمراء وقعت على الماء في الوقت الذي كان يحترق الصوديوم فيه

فأخذت أرقب البأثير الذي سيحدثه هذا الاتفاق في مدير الدرس ؛
عبر أنني دهشت دهشة كبيرة ، لأن المعلم لم ينتبه إلى الحادثة ، والطلاب
أيضاً لم يتساءلوا عن أسباب هذا الاحمرار ...

وقد ازداد دهشى هذا ، عند ما انتقلنا مع المعلم وأترابه إلى قاعة
المناقشة والانتقاد ؛ إذ رأيت أن المناقشة دارت حول مسائل شتى
كثيرة دون أن تتناول هذه الحادثة الغريبة في بابها
لفت نظر الطلاب إليها قائلاً :

— تبشون عن أدنى تغير يحدث في خواص المادة ، ولم تحملوا
تلاميذكم على ملاحظة التغير الذي حصل في لون الماء بهذه الصورة ...
ورأيت أن بعضهم لم ينتبهوا إلى هذه الحادثة ، والبعض الآخر انتبهوا
إليها ، غير أنهم لم يتأكدوا من وجوب الاهتمام بمثل هذه الحوادث
النافعة ...

بعد أسبوع ذهبنا إلى المدرسة نفسها ، ودخلنا الصف نفسه ،
في الساعة نفسها ، لاستماع درس طالب آخر ، عن « الهواء »
قام المعلم بتجارب عديدة ، حتى وصل إلى تجربة « إشعال الفسفور
تحت ناقوس موضوع على حوض ماء » وأرى التلاميذ العاز الأبيض
الذي يتولد من احتراق الفسفور ، وقال إنه بخار « حامض الفسفور »
ثم لفت أنظارهم إلى ذوبان هذا الحامض في الماء وارتفاع الماء

في الناقوس شيئاً فشيئاً

وبما كان المعلم يبحث عن مقدار الصعود ، أخذ الماء في الاخضرار ،
من جراء مرور النور ، هذه المرة ، من زجاجة خضراء !
فرايت أن أتهز هذه الفرصة الجديدة ، لأبرهن لطلابي « خطورة
بعض الأمور التافهة » ، وسألت أحد تلاميذ الصف — بعد الاستئذان
من المعلم :

— هل لاحظت شيئاً من التحول في الماء ؟
فأجابني على الفور : — نعم ، قد اخضر الماء
ثم سألت الجميع : — هل تستطيعون أن تعللوا هذا الاخضرار ؟
فأجابني تلميذ آخر — يجب أن يكون السبب بطبيعة الحال ذوبان
حامض الفسفور في الماء
وسألت عندئذ : أما لاحظتم لون حامض الفسفور في حالته الغازية ؟
فأجابوا :

— نعم إنه كان أبيض
— أفلا تستغربون إذن ، أن مجرد ذوبان هذا الغاز في الماء البراق
يكسب هذا الماء لوناً أخضر ؟
فأخذ كل واحد من التلاميذ يبدى رأياً في الأمر ، إلى أن فطن
أحدهم إلى السبب الأصلي : وكان جالساً في زاوية الصف الأمامي في وضع
يمكنه من مشاهدة ارتسام الضوء الملون على الخوان ، مع اختراقه للماء ...
فصاح ضاحكاً ، وهو يشير بيده إلى أعلى الشباك :
— إن الاخضرار نشأ عن زجاجة الشباك

وعند ما انتقلت إلى غرفة الانتقاد ، رأيت أن التجربة الأخيرة أثرت
 في نفوس طلابي تأثيراً عميقاً ... ولم يعد بينهم من يقول :
 — « ما الفائدة من الاشتغال بمثل هذه الأمور التافهة ؟ »
 إنهم فهموا بعد ذلك : (أن أفعه الأشياء وأحقهر الحواث قد تكسب
 أحياناً خطورة كبرى

ما هذا ؟

كان لي صديق مغرم بملاعبة ابنته الصغيرة ، وهو معجب بذكائها الوقاد .
 زرته يوماً في داره ، فوجدته جازلاً من تقدم ابنته في التكلم . فقص
 علي مناقب هذا التقدم ؛ ثم نادى البنت واحتضنها ، وأخذ يسألها بكل
 لطف وحنان :

— ما هذا ؟

وكان قد أشار إلى أنفها الصغير ، وأخذ يلامسه بين اصبعيه ملامسة
 لطيفة ، تظهر كل ما في قلبه من فرح وشغف
 فأجابت البنت فوراً بابتسامة جلية وفرح شديد :
 — أنف ...

فأظهر الوالد استحساناً حاراً لهذا الجواب . ثم انتقل إلى أذننها وأخذ
 يلامسها ، مثلاً :

— وما هذا ؟

فأجابت بلا تردد ، مع ابتسامة أحلى من ابتسامتها الأولى ، وفرح

أظهر من فرحها الأول :

— أذن ...

ثم انتقل إلى العين ، والرجل ، والخذ ... وفرح من صحة الأجوبة
التي تلقاها على هذه الأسئلة إلى أن وصل إلى اليد ، فأخذ يفرك أصابعها ،
وسأل :

— وما هذا ؟

فأجابت هذه المرة أيضاً بلا تردد ، وبابتسامة تقارب الضحك :

— ثلاثة ...

فتغير وجه الوالد من هذا الجواب ، وأخذ يهز أصبعها بشدة ، وكرر

السؤال بكل اهتمام :

— هذا ؟ ... هذا ؟ ...

غير أن الجواب كان في هذه المرة : أربعة

حار الوالد في أمره ، وعاد يكرر عليها أسئلته السابقة :

— ما هذا ؟

— أنف

— وهذا ؟

— عين

— وهذا ؟

— خذ ...

— وهذا ؟

— اثنين ...

وكان قد عاد في السؤال الأخير إلى الأصبع . وعندما رأى البنت
تجيب جواباً مغلوطاً في هذه المرة أيضاً احتدم غضباً ، وصاح في وجهها قائلاً :
— كيف تقولين اثنتين .. يا حقاً ؟

فقرعت الصغيرة من هذا الغضب والصياح ، وأخذت تبكي بكاء
سراً ؛ فاضطر الأب إلى الخروج بها من الغرفة ليوصلها إلى أمها
وعندما عاد إلى الغرفة أخذ يظهر استغرابه من حالتها ، ويؤكد كل
التأكيد بأنها كانت تعرف كل ذلك جيداً
سألته عندئذ : وهل علمتها الأعداد ؟
فأجابني قائلاً : نعم إنها تعد الخمسة جيداً
قلت له بكل اطمئنان :

— اعذرها إذن أيها الصديق ؛ فلا شك في أنك علمتها العد على
أصابعها ، وهي ظلت أن كلمات الإثنين والثلاثة والأربعة ما هي إلا أسماء
تدل على الأصابع المختلفة ، كما أن الأذن والأنف والحد أسماء تدل على
بعض الأعضاء !

كثيراً ما تذكرت هذه الواقعة ، وأنا أستمع إلى دروس بعض المعلمين
في الحساب

وفي الحقيقة كم وكَم منهم من كان يسلك في تعليم الحساب مسلكاً
لا يختلف كثيراً عن مسلك هذا الأب في تعليم الأسماء والأعداد !
وقد دخلت يوماً على صف في مدرسة ، ووجدت تلميذاً صغيراً واقفاً
أمام السبورة يقوم بحسابات طويلة تتكرر فيها أسماء للملايين

والكيلومترات . فأردت أن أؤكد من مبلغ فهمه للكيلومتر ، فسألته :
ما هو الكيلومتر ؟

فلم يتردد في الإجابة على سؤالى هذا بقوله : ألف متر

غير أنى لم أقتنع بهذا الجواب ؛ فسألت :

— وهل الكيلومتر أطول من هذه السبورة ؟

فأجابنى بشيء من التردد : نعم أطول ؟

فسألته : وهل هو أطول من هذا الصف ؟

فأجابنى هذه المرة بدون تردد :

— لا ... أقصر من الصف ...



القسم الثالث

مقالات ومحاضرات
في مسائل التربية والتعليم

التربية الاجتماعية

[من محاضرة ألفت على شبيبة دار
السلام . بدعوة من نادي التضامن]

كلنا يعلم أن الإنسان مخلوق اجتماعي . وكلنا يقول : إن الإنسان مدني
بالطبع . وكلنا يعني بذلك : أن الإنسان لا يطبق عيشة الانفراد أبداً ،
وأنه يعيش في جميع أنحاء الأرض في حالة اجتماعية دائماً
إن الإنسان لا يعيش إلا مجتمعاً مع عدد من بني نوعه — قليلا
كان هذا العدد أو كثيراً — ، مؤلفاً جماعات من البشر صغيرة
كانت هذه الجماعات أو كبيرة

فيمكننا أن نقول بهذا الاعتبار : إن « الحالة الاجتماعية » وبتعبير
أفصر « الاجتماعية » Socialité — هي من أبرز خصال الإنسان وأعمها ؛
فلا يتجرد منها أحد ، ولا تشذ عنها أمة

نعم ، إن جميع أفراد البشر مشتركون في هذه الخصلة ؛ فكل فرد
من أفراد البشر اجتماعي بلا استثناء . ولكن للاجتماعية درجات وأنواعا
مختلفة ؛ فإذا كان كل الناس يشتركون في الاجتماعية ، ويتساوون
في التخلق بها من حيث جوهرها ، فإنهم يختلفون في درجات هذه
الاجتماعية والتخلق بأنواعها

نعم . كل الناس يعيشون في مجتمع ؛ واسكن البعض منهم يعيش
فيه كما تعيش الطفيليات في البدن : يعيش مع أبناء نوعه ، وهو يأخذ

منهم دوماً بدون أن يعطيهم شيئاً ، وهو يستفيد منهم دائماً بدون أن يفيدهم أبداً . إنه ليعيش في المجتمع ، لا كعضو نافع وعنصر فعال ، بل كعضو طفيلي وعنصر مخرب هدام ...

فكل إنسان مخلوق اجتماعي ، ولكنه اجتماعي من أنواع ودرجات متفاوتة .

فلأجل أن نتفهم هذه الدرجات وهذا التفاوت بصورة أجلى ، علينا أن نتأمل قليلاً في أنواع الميول الأصلية التي تعمل في نفوسنا من جراء عيشتنا مجتمعين مع أبناء نوعنا :

كل منا يشعر في نفسه بكيان خاص ، يعبر عنه بكلمة (أنا) ؛ وكل منا يحب هذا (الأنا) ، فيرمي إلى المحافظة على (أنا) ، وإلى توسيعه وتمييزه وتقويته بصور مختلفة ؛ هذا ما نسميه (حب النفس) *égoïsme* أو (الأثرة) ؛ ونرجح تسميته (الأوية)

ومع ذلك ، فإن كلاً منا يحب — في الوقت نفسه — شيئاً من (اللا أنا) *non-moi* ، ويرتبط به : يحب مثلاً أحد المناظر الطبيعية ، ويتوق إلى التمتع بمشاهدتها ؛ أو يحب أحد الأشخاص ويلتذ بمعاشرته ؛ أو يحب دمية فيسعى إلى امتلاكها واللعب بها . فالتعطف على ما هو إنسان من (اللا أنا) يسمى (حب الغير) ، أو (الإيثار) *altruisme* . وقد يكون من الأوفق تسميته (الغيرية)

وعدا ذلك ، فكل منا يشعر بارتباط باطني (بمجموع بشري) ينتسب إليه ، سواء أكان ذلك المجموع فرقة أم أسرة أم عصابة أم عشيرة أو أمة . وإنا نعبر عن هذا الشعور عادة بكلمة (نحن) ؛ ونفهم منها

(مجموعاً بشرياً) مؤلفاً من الـ (أنا) ، مع شيء قليل أو كثير من (اللا أنا) . وكل منا يحب هذا (النحن) وهذه (النحنات) التي ينتسب إليها ، ويرمى إلى توسيعها وتقويتها ؛ ويشعر بفرح أو ألم وبمباهاة أو خجل من جرائها ... هذا ما يمكننا أن نسميه (حب النحن) أو بتعبير أقصر (النحنية)

ففي نفس كل إنسان شيء من (حب النفس) وشيء من (حب الغير) وشيء من (الارتباط بالمجموع) وبتعبير أقصر : شيء من كل من الأنوية والغيرية والنحنية

ولكن نسبة هذه الأشياء بعضها إلى بعض ، تختلف اختلافاً كبيراً من فرد إلى فرد . ولا حاجة إلى الإيضاح بأن شدة النحنية أو ضعفها بالنسبة إلى الأنوية ، ما هي إلا شدة أو ضعف في الاجتماعية بالنسبة إلى الفردية

فترى بعض الناس متصفين بنحنية شديدة : يشعرون شعوراً واضحاً بأن كلاً منهم جزء من مجتمع واحد ، أو جزء من مجتمعات متعددة ؛ فيعملون كثيراً من الأعمال مشتركين مع بقية أفراد هذا المجتمع أو تلك المجتمعات ، وهم متعودون على كل ما تقتضيه هذه الأعمال المشتركة ، من تبعية وتضحية ، وترتيب ونظام ، وتضامن وتعاطف ؛ وهم دائبون على التعاون والتناصر لأجل غايات مشتركة ، كما أنهم يشعرون بكثير من العواطف — من مسرات وآلام — من جراء هذه الغايات والأعمال المشتركة . إن هؤلاء ليجمعون في أنفسهم أرقى الخصال الاجتماعية ، فيصلون بها إلى أعلى الدرجات من سلم الاجتماعية

في حين أننا نرى بعض الأفراد ، لا يأخذون من جميع تلك الخصال
إلا حظاً قليلاً ، ولا يشعرون من جميع تلك العواطف الاجتماعية إلا شعوراً
يسيراً ؛ حتى أننا نجد بينهم من حُرِمَ هذه الخصال والعواطف حرماناً
يكاد يكون تاماً .

وكما أننا نرى فروقاً كبيرة بين الأفراد باعتبار الاجتماعية ، كذلك
نرى فروقاً واضحة بين الأمم أيضاً بنفس الاعتبار

ومقارنة بسيطة بيننا وبين الأمم الغربية ، تكفي لإظهار هذا الفرق
العيان بكل وضوح وجلاء

نرى في البلاد الغربية الوفاً وألوفاً من الشركات والأندية والجمعيات
كل منها مؤلف لغاية خاصة ، من تجارية ورياضية وأدبية وخيرية
وسياسية على اختلاف أنواعها . ونرى لسلك منها عدداً كبيراً من المنتسبين
والشركين ، ولسلك منها كياناً ثابتاً مستديماً . وعدا هذه الجمعيات
للتعضية والدائمة ، نرى أن في كثير من المحلات العامة تجري اجتماعات
واحتفالات ومسامرات ، يشترك ويجتمع فيها عدد كبير من أهل البلدة
من حين إلى حين ، للقيام بعمل أو لإظهار عاطفة ، للاحتفاء برجل
أو بإعادة ذكرى واقعة

أما بلادنا فما أقل عدد هذه الأندية والجمعيات فيها ! وما أكبر
للشاكل التي تعترض كلاً منها ! وما أقل أنواع تلك الاحتفالات
والاجتماعات ، وما أضال حيويتها ! ولا سيما الخيرية منها . فهناك نرى
في كل محل ، جمعيات خيرية متنوعة مؤلفة لمساعدة المرضى

والأطفال والفقراء وتجهيزهم بكل ما يحتاجون إليه ، من حليب ودواء ، وعيادة ولباس ، ولعب وكتب ، ومصاريف دراسة ونفقات سياحة . كما أننا نجد أياماً مخصوصة ، يفكر فيها كل فرد من أفراد المدينة - بل كل فرد من أفراد الأمة أحياناً - بالمحتاجين والأطفال ، ويشترك في خلالها باستكمال وسائل المساعدة والإسعاف على قدر استطاعته

أما نحن ، فقلما نفكر في كل ذلك ! وقلما نعرف أقوم السبل وأنجع الوسائل للوصول إلى مثل تلك الغايات

ومما هو جدير بالانتباه خاصة أن حالتنا هذه لم تنشأ عن حرماننا من عواطف الشفقة والحنان ، بل إنها ناشئة - في الدرجة الأولى - عن عدم تعودنا الحياة الاجتماعية وعدم تطبعنا بالطباع التي تقتضيها الأعمال المشتركة . قد نرحم الفقراء وقد نواسي المحتاجين ، ولكن رحمتنا هذه ومؤاساتنا تلك تبقى فردية نوعاً ما ، إذ أن كلا منا يقوم بعمل البر والإحسان الذي يقرره لنفسه بمفرده بدون أن يشترك في أمر تنظيمه مع غيره ، فيمكننا أن نقول : إن حميتنا لا تتحرك - عادة - إلا أمام الفقراء الذين يطرقون أبوابنا ، أو يمدون أيديهم نحونا ، أو يعيشون في جوارنا .. نحن نتصدق على الفقراء ، على شرط أن نراهم أمامنا ؛ ونهدي بعض الملابس إلى أولاد الفقراء ، على شرط أن يكونوا ممن تعرفنا عليهم بأعيننا . وخلاصة القول : أننا نواسي الفقير ولا نفكر في الفقراء ، ونساعد الطفل ولا نبالي بالأطفال وذلك لأننا لم نتعود التفكير في غيرنا تفكيراً اجتماعياً ، كما أننا لم نتعود

العمل مع غيرنا عملاً إيجابياً معشراً collectif

إن هذه الحالة تظهر للعيان من سلوكنا في الشوارع والمجالات العامة أيضاً :

إننا نعرف أن الشارع الذي نسير فيه هو (شارع عام) ، ولكننا لا نشعر عادة بمعنى هذه الكلمة بوضوح تام : لا نلاحظ أن وصف الشارع بوصف (العام) يعنى أنه من الأشياء التي يحق لكل أن يتمتع بها على حد سواء . فلا نشعر - لذلك - أنه لا يحق لنا أن نحتكر ولو جزءاً من هذا الشارع لمصلحتنا الذاتية ، أو أن نمنع الغير من التمتع به مثلنا . فإذا مشينا في الشارع مشينا كأننا في حديقةنا الخاصة غير مباليين بحق الغير به . وإذا ما لافينا خلال سيرنا بعض الأصحاب والأصدقاء ، وقفنا في محلنا وأخذنا نحادثهم طويلاً بدون أن نعبأ بما يحدثه هذا الوقوف وهذا التجمع من الخلل في السير العام

كلنا نقول إن المسارح من المجالات العامة ، وكلما نعرف أن كل من يدفع الأجرة المعينة يكتسب حق دخولها والتمتع بمشاهدة التمثيل وسماع السمر فيها ؛ ولكن كم منا من يشعر بالواجب الذي يترتب عليه أن يضحي هناك شيئاً من حريته الشخصية للمصلحة العامة ؟ كم واحد منا يلاحظ أنه لا يحق له أن يتحدث إلى رفاقه بصوت جهير خلال العزف والتمثيل ؟

إنني أذكر الآن ما حدث قبل بضعة أعوام خلال حفلة تمثيل قامت بها كشافة العاصمة في أحد المسارح : فقد رأيت في المقصورة المتصلة بمقصورتى عدة أشخاص يتكلمون فيما بينهم بصوت جهورى ، ويققهون لقصة يقصها عليهم أحدهم ، ويحولون بأحاديثهم وبقهقهاتهم هذه دون

سماع أصوات الممثلين . فالتفت إليهم آملاً بفهمهم لزوم السكوت بلسان
الحل ، ولكنهم لم يكثرثوا لذلك أبداً ، واسترسلوا في الحديث والضوضاء .
استرسلوا تماماً . فرأيت من الضروري عندئذ أن أدعومهم إلى السكوت
إلا أن أحدهم أجابني بالجواب التالي :

— إننا أحرار ... لا حق لأحد أن يتدخل في أمرنا !

فدهشت لهذا الجواب ، لأن الرجل كان يدعى — بدون تردد —
أن له الحرية التامة في التحدث والعريضة ، كأنه في دار خاصة به ، أو في
محل منعزل عن العالم بأجمعه ... إنه لم يفهم أن هناك أناساً اجتمعوا
للمشاهدة والسماع ، وأنه يجب على كل من يدخل ذلك المحل ألا ينسى
حق المجموع وغاية الاجتماع ، وأن يعمل وفق ما يقتضيه ذلك الحق العام
وتلك الغاية العامة

إن الرجل قال لنا ذلك بصراحة شاذة ... ولكن ما أكثر الذين
يعملون عمل هذا الرجل فعلاً ، ولو لم يقولوا قوله صراحة !

إن الفرق بيننا وبين الغربيين بهذا الاعتبار ، أعظم جداً : فإذا
دخلت مسرحاً هناك ، ترون الصمت والسكوت يسودان سيادة تامة أثناء
التمثيل والعزف ... فلا تسمعون صوتاً غير أصوات الممثلين أو العازفين
والمغنين ... وإنكم تشاهدون أن المتفرجين يمشون على رؤوس أصابعهم ،
إذا ما تأخروا عن الوصول إلى مواضعهم قبل هصر الستار ، حذراً من أن
يحدثوا شيئاً من الضوضاء يحول دون تمتع الحاضرين بالمشاهدة والسماع
تمتعاً تاماً . حتى إنهم ليلبثون واقفين عند الباب حتى ختام الفصل ، إذا
كان هناك شيء من التلحين أو العزف الذي يتطلب السكوت التام .

وذلك لأنهم يشعرون شعوراً واضحاً بأنهم في محل عام ؛ ولأنهم يعملون علماً تاماً ماذا يترتب من الواجب الاجتماعى على كل فرد من الأفراد الذين يدخلون محلات عامة كهذه

إن هذا الشعور والاعتقاد يظهران بشكل أعجب من كل ذلك ، فى مداخل المسارح وفى المحطات : ترون هناك جماعاً غفيراً ، مصطفياً أمام محل توزيع البطاقات — حتى على طول الشارع العام — اصطفاة الجيش المنتظم ؛ وكل منهم ينتظر دوره للتقدم لأجل أخذ البطاقة ، ولا يحاول أحد منهم أن يسبق من تقدمه فى الحجى ، والانتظار ؛ وذلك باعتقاد طبيعى ، بدون أن تكون ثمة حاجة لأمر آمر ، أو مداخله ضابط لإدامة هذا النظام العجيب ... ليس هناك مانع مادي يمنع أحداً من الالتحاق بالصفوف الأمامية من هذا (الذيل) الطويل ، ولكن هناك مانع معنوى متكون من التربية الاجتماعية والعرف العام ؛ فإذا حاول أحدهم الالتحاق بأحد الصفوف الأمامية ، أسرع كل من المنتظرين إلى إيقافه وإخطاره ، قائلاً (إلى الذيل يا سيدى ، إلى الذيل !) فيضطره أن يعود إلى آخر الصفوف ...

كذلك الحال فى المحطات وفى المخازن ، وفى جميع المحلات التى يزدهم فيها الناس ... فالكل يخضع للنظام الذى تقتضيه الحياة الاجتماعية والعشرية فى مثل هذه الظروف (لمصلحة الجميع) ؛ فيسير كل فرد من أولئك الأفراد بنظام تام ، وبدون جدال أو خصام ...

إننى لا أود أن أشرح جميع مظاهر التربية الاجتماعية في البلاد الغربية ، ولأن أذكر جميع النقائص التي تكتنف حياتنا الاجتماعية من هذه الناحية ؛ بل سأكتفي بما سرده آنفاً ، لتبيين أهم الخطوط من تلك المظاهر وهذه النقائص

كما إننى لا أود أن أتعق الآن في تحليل أسباب هذه النقائص ، ولأن أذكر جميع وسائل المعالجة التي تترتب علينا لرفع مستوى تربيتنا الاجتماعية ؛ وسأكتفي ببيان الأهم من هذه العلل والأنجع من هذه الوسائل ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بحياة المدارس

ولا أرانى في حاجة إلى الشرح الطويل لإظهار العامل الأصلي الذي يفرق بين الغرب والشرق في هذا الباب : فلا مراء في أن هذا العامل الأصلي هو شكل العائلة ليس إلا ... فإن النظام العائلي الذي ساد في بلادنا ، جعل عضويتنا الاجتماعية متفككة متجزئة cloisonné — مثل أنسجة النبات ، وبخلاف أنسجة الحيوان — ، فلم يسمح لنا بحياة اجتماعية شديدة نشيطة ، وأضعف بذلك الحياة العامة وضمورها atrophier

فماذا يجب أن نفعل الآن ؟ بماذا يجب أن نعالج هذه النقائص التي تأصلت في بنائنا الاجتماعي من جراء أسباب فعلت فينا فعلها منذ أجيال ، كما أنها لا تزال تفعل فعلها الآن ؟

ماذا يجب أن نفعل لتقوية الاجتماعية في نفوسنا ، وللوصول إلى نتائج مماثلة لما وصلت إليها التربية الاجتماعية في البلاد الغربية ؟ من المعلوم أن الإنسان يعمل ما يعمل تحت تأثير ثلاثة عوامل أصلية :

الفكر والعاطفة والعادة . والتربية الأخلاقية التي ترمى إلى تنظيم العمل والسلوك وفقاً للغايات سامية واجتماعية ، تعالج — بطبيعة الحال — كلا من هذه العوامل الثلاثة ؛ فترمي من جهة إلى توليد أفكار وقناعات موافقة للغاية المتوخاة ، وتسعى من جهة ثانية لتوليد ميول وعواطف تجذب مشاعر الإنسان نحو تلك الغاية أو تدفعه إليها ، وتجتهد من جهة أخرى لتأسيس اعتيادات ملائمة للذاتية والغايات الأخلاقية . فيمكننا أن نقول إن أساليب التربية الأخلاقية تجتمع في ثلاثة فصول أساسية : (أ) التفهيم والإقناع ، (ب) التحبيب والتحميس ، (ج) التفعيل والتعويد

وكذلك الأمر في التربية الاجتماعية التي لم تكن إلا فرعاً من فروع التربية الأخلاقية العامة ؛ فإن واجب المربي في هذه الناحية أيضاً يتمركز في هذه الوسائل الثلاث : الإقناع والتحميس والتعويد

لأن الحطوط الأساسية للوسائل التي يجب على المربي أن يتوصل بها لأجل النجاح في التربية الاجتماعية إذن هي تكوين الأفكار والآراء الموافقة للغايات الاجتماعية ، تفهيم الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض في الجماعات والجمعيات ، والأنظمة التي لا تقوم الحياة الاجتماعية بدونها ، والفوائد التي تنجم عن التضامن والتعاون والتعاطف ، والأضرار التي تحدث من فقدانها

وتوليد الميول والعواطف التي تؤلف خيرة الحياة الاجتماعية من رافة وشفقة ، ومن محبة وتعطف ، ومن نخوة إبلية ومطامح معشرية . وتقوية

الشعور بالغيرية والنخبة

وتأسيس الاعتيادات الموافقة لمقتضيات الاجتماع بحمل الأفراد على العمل مشتركاً ومتضامناً ، وتعويدهم على اتباع الأنظمة التي تقتضيها مثل هذه الأعمال

إن العوامل الثلاثة التي ذكرناها آنفاً لا تتساوى في التأثير ؛ فأهم العوامل هي العواطف والعادات ؛ أما الآراء والأفكار فتأثيرها أقل من ذلك ، كما أنه مقيد بنفوذها إلى العواطف . هذا وإن العادات تتكون من تكرار العمل ، كما أن العاطفة تتولد من المعاشرة ، فيمكننا أن نقول إن أهم واسطة للتربية الاجتماعية هي العيشة المعشربة المنظمة ، فإن مثل هذه العيشة هي التي تولد العواطف الاجتماعية وتؤسس العادات الاجتماعية

ويجب ألا يعزب عن بالنا أن الطفل يولد بصورة عامة « فردياً » ، فيمكننا أن نقول إنه يكون في بادئ الأمر مخلوقاً « لا اجتماعياً » *asocial* وإنه لا يخرج عن حالة اللا اجتماعية ، ولا يكتسب الخصال الاجتماعية إلا بصورة تدريجية . إن ذلك (الفرد اللا اجتماعي) لا يتحول إلى (مخلوق اجتماعي) إلا بنتيجة معايشرة الغير من بنى نوعه ، وبتأثير البيئة الاجتماعية التي تسيطر على حياته

فإذا أردنا أن تقوى وننمي اجتماعيته ، وجب علينا أن نؤثر على بيئته وحياته : يجب علينا أن نفرغ حياته وبيئته إلى حالات — ونزتها على أشكال — تضمن نمو الخصال الاجتماعية في نفسه . يجب علينا أن نضع الطفل الناشئ في أحوال وظروف يشعر فيها

شعوراً واضحاً بارتباطه بجماعة محدودة وماموسة حيث تختلط منفعته بمنفعة
 المجموع ، وشعوره بشعور المجموع ، وحيث يتحسس ويتميز حتماً
 مما يعود إلى هذه الجماعة ، فيضطر إلى العمل مشتركاً ومتضامناً مع
 أفرادها ، اتقالم للألام التي لا يمكن أن تبقى منحصرة في واحد منهم ،
 وابتغاء الملذات التي لا بد أن تشملهم جميعاً

إن هذه الشروط كلها ، تتحقق وتجتمع بصورة عجيبة ومؤثرة
 في الألعاب التي تسمى « الألعاب الاجتماعية » : تلك الألعاب التي
 لا تجري المباراة فيها بين فرد وفرد ، بل بين جماعة وجماعة . إن لهذه
 الألعاب أنواعاً عديدة ، منها ما يلائم قابليات الأطفال الصغار ، ومنها
 ما يوافق ميول الأطفال الكبار ، ومنها ما يلذ الشبان ، حتى أن منها ما يلائم
 الكهول . نذكر ألعاب جمع البطاطة ، وأخذ الأسير ، وسباق الأحمر
 والأبيض ، وجر الحبل ، وألعاب كرة السلة وكرة القدم ... أمثلة لأنواع
 هذه الألعاب الاجتماعية

إن ألعاب كرة السلة وكرة القدم ، ربما كانت من أكمل وأحسن
 نماذج هذه الألعاب ، إذ من المعلوم أن الانتصار والانسكاس في هذه
 الألعاب يعود كل منهما إلى فرقة تقابل فرقة أخرى ؛ فلا يقول
 اللاعبون « أنا غلبت » أو « أنا انغلبت » بل يقولون « نحن غلبنا »
 أو « نحن إنغلبننا » ؛ فمرور الفوز يشمل جميع أفراد الفرقة الغالبة ؛
 كما أن ألم الفشل يشمل أيضاً جميع أفراد الفرقة المغلوبة . والعواطف
 والهواشج التي تتولد خلال هذه الألعاب لا تبقى منحصرة في نفوس الأفراد ،
 بل تشمل الجماعة كلها . وإذا تمكن أحدهم من القيام بضربة ناجحة ،

فسرور هذه الضربة وغررها يشمل جميع أفراد الفرقة ؛ كما أنه إذا
أضاع أحدهم فرصة سانحة ، فإلم هذا الضياع أيضاً يشمل جميع أفراد
الفرقة . وإذا وقعت إحدى الفرقتين في مأزق حرج ، فالقلق الناشئ
من هذا الحرج يشمل جميع أفرادها ، ويضطرم إلى مضاعفة
الهمة والعزم ، وإلى جمع الصفوف ، وتقوية أواصر التعاون ؛ وإذا
تمسكتوا من الخروج من هذا المأزق ، ففرح ذلك أيضاً يسري إلى
قلوبهم أجمعين . فاللعب بهذه الصورة لا يترك مجالاً لتسرب « الأنوية »
إلى القلوب ، بل يجعلها كلها تخفق بـ « نغمة » شديدة . إن فائدة
النظام ، وضرورة التعاون تظهران خلال هذه الألعاب بصورة بارزة
ملموسة ؛ فالأضرار التي تنجم عن نقص النظام أو تقشي الأنوية
تظهر للعيان في مدة وجيزة بدون أن تحتاج إلى أمد — قليل أو
كثير — كما هي الحالة في الحياة الحقيقية . فلذلك نرى جميع أفراد
الفرقة يتفقون على تقسيم الوظائف فيما بينهم بأضمن الصور لإحراز الفوز
والنصر ، بدون أن يتركوا مجالاً لديب المحاسدة في النفوس ؛ لأن
نتائج المحاسدة المهلكة لا تلبث أن تظهر بصورة مادية ملموسة بفشل
يشمل الحاسد والمحسود . فهذه الألعاب تعود اللاعبين على العمل يداً
واحدة ، وتعلمهم الرياسة من غير تكبر ولا تعجرف ، والاتباع بدون
خضوع وتذلل . فيمكننا أن نقول : إن هذه الألعاب من أحسن
المدارس وأنجع الوسائل لتنمية الحاصل الاجتماعية وتعليم معاني الرياسة
والزعامة والتبعية

فنحن في حاجة إلى تعميم مثل هذه الألعاب ، على ألا تنسى

لحظة واحدة الفوائد والغايات الاجتماعية المطلوبة منها ، وألا نترك مجالاً لتردّيها في هوة الفردية والأنانية

ولا حاجة إلى البيان بأن الأطفال والشبان متى تعودوا العناصر بهذه الصورة ، ولو كان في سبيل التسلية واللعب ... رمتي تعلموا الترتيب والنظام ، ولو كان مع أشخاص محدودين ... ومتى شعروا بنجنية واضحة ، ولو كان في دائرة ضيقة ... يكونون قد تقدموا في ساحة التربية الاجتماعية وحصلوا على كثير من بذور الخصال الاجتماعية ، تلك البذور التي لا بد من أن تنمو وتثمر بتأثير الحياة الحقيقية بصورة تدريجية

إن مجال التربية الاجتماعية ووسائلها في المدارس لا تنحصر في الألعاب ؛ فإن أمام المعلمين مجالاً واسعاً ووسائل متنوعة للوصول إلى الغاية نفسها ، ولتقوية تأثير هذه الألعاب وإكمالها :

إن جميع الأساليب والتدابير التي تؤدي إلى تعويد الأطفال والشبان العمل المشترك و (الأي) ، وتجعلهم يقولون (نحن) ، وتحملهم على الشعور ب (محنة) ، أو تثير في نفوسهم ولو شيئاً من عواطف الغيرية . كل ذلك من وسائل التربية الاجتماعية

ففي استطاعة المعلمين أن يعودوا الطلاب (العمل المشترك والأي) حتى في الدروس ، كأن يطلبوا منهم أن يشتركوا - فرقا فرقا - في صنع بعض الأشياء في دروس الأشغال اليدوية ، أو أن يتعاونوا على التتبع وجمع المعلومات والوثائق وإجراء التجارب حول أحد الموضوعات في الدروس المختلفة ، أو أن يشتركوا في كتابة بعض الموضوعات في دروس الإنشاء ،

أو أن يتداولوا فيما بينهم لوضع رواية أو تمثيلها
كما أنه في إمكان المعلمين أن يحملوا الطلاب على معاونة بعضهم لبعض
في بعض الأمور ، سواء أكان ذلك في الدروس أم في الأكل واللبس
واللعب ... وإن يعودوهم على تأليف الجمعيات وعقد الجلسات واتخاذ
المقررات لغايات مدرسية أو رياضية أو خيرية

وأخيراً يستطيع المعلمون أن يشركوا الطلاب في أمور الإدارة
والمراقبة ، حتى يتركوهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، فيجتمعون ويتذاكرون
ويصوتون وينتخبون ، ويتراأسون ويتبعون ، ويأمرين ويأتمرون ...
حسب ما تقتضيه الحال . ونحن في حاجة شديدة إلى الاستفادة من جميع
هذه الوسائل

أما خارج المدرسة — قبل سنى الدراسة ، وفي خلال تلك السنين
وبعدها — فهناك أيضاً وسائل كثيرة ومتنوعة للتربية الاجتماعية ،
يمكننا أن نلخصها كما لخصنا وسائل تلك التربية في المدرسة :

إن كل ما يوجه الأفكار والعزائم نحو غاية واحدة ، ويحشد
فيها ... وكل ما يحمل النفوس على التباعد عن الملاحظات الذاتية ، ولو
بصورة مؤقتة — وعلى التفكير بالغير وبالجماعة ، ولو في أوقات مخصوصة —

كل ذلك يدخل ضمن وسائل التربية الاجتماعية

لا مجال لدى الآن للتوسع في تعداد هذه الوسائل وشرحها ؛ إلا أنني
أرى من الضروري أن ألفت الأنظار نحو واحدة منها ، ألا وهي حياة
الجندي والخدمة العسكرية

إن الجندي يعيش — خلال الخدمة العسكرية — خارجاً عن دائرة

الشخصية ، وبعيداً عن حياته الذاتية ؛ حتى إنه ليفترق عن جماعته القريبة والخاصة . إنه يترك داره وبلدته ، وأهله ومهنته ؛ يترك كل شيء يعود له أو لأسرته ، فيعيش مع جماعة من أبناء وطنه ، في معشر مؤلف من أناس آتين من مدن مختلفة ، ومن أسر وطبقات متنوعة ، ومن مذاهب ومهن شتى ... إنه ليعيش معهم ، خاضعاً لنظام عام يشمل الجميع ولا يستثنى أحداً . يعيش هناك ، لغاية لا تعود لشخصه ، ولا تنحصر في أسرته ، حتى أنها لا تتركز في بلدته ؛ بل لغاية أسمى من كل ذلك ، لغاية تعود إلى وطنه ، وتشمل أمته ... إماية تقوخي حياة الوطن ورقى الأمة ...

هل من حاجة إلى إيضاح خطورة التأثيرات النفسية والتربوية التي تحدث من جراء هذه الحياة في هذه الظروف ؟ إنني لا أعرف شيئاً يضاهي حياة الجندي ، في تأثيرها على الخصال الاجتماعية ؛ فالتسكنات العسكرية بمثابة مدارس اجتماعية ، تصل الفرد بالأمة ، وتدخله في أهم حلقة من حلقات المجتمع ، وتجعله يشعر بوجود الأمة والوطن شعوراً واضحاً ، وتعوده التضحية الحقيقية على اختلاف أنواعها — من تضحية الراحة إلى تضحية الدم والنفس — في سبيل الأمة والوطن ...

ولذلك يمكننا أن نقول : إن نظام الحياة العسكرية من أهم وسائل التربية الاجتماعية وأفعالها ...

هذا ومما لا يحتاج إلى إيضاح أن قوة المجتمعات البشرية وقدرتها لا تتعين بعلة الأفراد الذين يؤلفونها ، بل تناسب مع شدة الروابط التي تربط بعضهم ببعض ؛ كما أن صلابة الأحجار والصخور لا تتبع حجمها ،

بل تتناسب مع تماسك أجزائها . فترى بعض الأم تشبه الأحجار الهشة ،
حتى أنها لقشبه أحياناً أكوام التراب والرمال : لأن أجزائها قليلة
التماسك والالتصاق ولو كانت كثيرة العدد ؛ في حين أن بعض الأم تشبه
الأحجار الصلبة ، والصخور الصلدة : فإن أجزائها شديدة التماسك
والالتصاق وإن كانت قليلة العدد . فيجب علينا أن نسمى لجمل
أمتنا المحبوبة متماسكة الأجزاء شديدة الالتصاق ، مثل الصخور ...
لاهشة رخوة الأجزاء قليلة الالتصاق ، مثل الرمال ...

وعلينا ألا ننسى أننا نعيش في عصر تمت فيه القوى الاجتماعية
7 نمواً عجيباً ، فاكتمت فيه النظم الاجتماعية خطورة عظمى

كلنا يعلم ما طرأ من الانقلاب العظيم على حياة الإنسان في كل
مظاهرها - من بيئية إلى صناعية فاجتماعية - من جراء اختراع
الآلات على اختلاف أنواعها

إن تأثير الأنظمة والترتيبات الاجتماعية في الحياة البشرية ، تشبه
شبهاً عظيماً الدور الذي تلعبه هذه الآلات في حياة الحضارة : وكما
أن الآلات البخارية والكهربائية زادت قوى الإنسان زيادة هائلة ،
فالترتيبات والتأسيسات الاجتماعية أيضاً قد زادت قوة الأفراد زيادة
مدهشة ...

وكما أن الآلات هي منظومة عتلات تُظهر القوى الكامنة في
الأجسام وتعظم تأثيرها تعظيماً كبيراً ، كذلك الترتيبات والتأسيسات
الاجتماعية ، هي منظومة عتلات معنوية ، تُظهر القوى الكامنة في النفوس
وتعظم تأثير الأفراد تعظيماً عائلاً

فإذا كانت حضارة القرن العشرين مستندة من جهة إلى الآلات
 المادية ، فإنها تستند من جهة أخرى وبدون شك إلى تلك الآلات
 والعتلات المعنوية التي تعرف بالتأسيسات الاجتماعية ...
 أما وقد أخذنا الآن نستعمل الآلات ونستفيد من خدماتها ، فقد
 أصبح من الواجب علينا أن نهتم بالترتيبات والتأسيسات الاجتماعية
 أيضاً ؛ ونسعى إلى الاستفادة من قواها الهائلة لاستكمال أسباب النجاح
 في معترك الحياة .



الخدمة العسكرية

والتربية العامة

[من محاضرة أقيمت في نادي المعلمين ببغداد]

لو سألتني سائل ما هي أهم الحوادث التي حدثت في السنة الأخيرة في الشرق العربي لأجبت على الفور : هي الشروع في تطبيق قانون الدفاع الوطني في العراق . لأن هذا القانون يستهدف جعل الجيش آلة دفاع وطنية تستمد قوتها من جميع طبقات الأمة ، وفقاً لمبدأ « الخدمة العسكرية الإلزامية العامة » عوضاً عن نظام التطوع للأجور

من المعلوم أن « الخدمة العسكرية الإلزامية » من المبادئ التي أخذت بها جميع الأمم المتقدمة ، وأن هذا المبدأ يقضى بتهيئة جميع أفراد الأمة إلى خدمة الدفاع عند الاقتضاء ، ويجعل الجيش ممثلاً لقوى الأمة المكنوزة بكل معنى الكلمة

غير أنني لا أود الاسترسال في البحث عن فوائد الخدمة العسكرية العامة من هذه الوجهة ؛ بل أود أن أحصر بحثي في فوائد هذه الخدمة الإلزامية من وجهة تأثيرها على التربية العامة .

إذا ألقينا نظرة عامة على التطورات الاجتماعية والسياسية التي حدثت في العالم المتقدم خلال القرن الأخير ، وجدنا أن هذه التطورات

أوجدت مؤسستين إلزاميتين عامتين : مؤسسة التعليم الإلزامي ، ومؤسسة الخدمة العسكرية الإلزامية

إن المؤسسة الاجتماعية الأولى تتمثل وتتجلى في المدارس الابتدائية ؛
وأما المؤسسة الاجتماعية الأخرى فتتمثل وتتجلى في الشككات العسكرية .
وإذا لاحظنا عمل هاتين المؤسستين من الوجهة الاجتماعية العامة
وجدنا بينهما — بعض المماثلة : فإن الأولى تأخذ الطفل من عائلته ، وتضمه
إلى أترابه ، وتتمهده بالتربية والتعليم لمصلحة أمته ؛ والثانية تأخذ الشاب
من بيئته ، وتضمه إلى أمثاله وتتمهده بتهيئته لخدمة الدفاع عن وطنه

فعمل المدرسة في الطفل يشبه عمل الشككة في الشاب ، بهذا الاعتبار ؛
فمكل واحدة من هاتين المؤسستين تأخذ الفرد من المجتمع الخاص الذي
ينسب إليه ، وتدخله في مجتمع عام وتتمهده بالتربية والتدريب حسب
ما تقتضيه المصلحة العامة . فيمكننا أن نقول : إن النظم الاجتماعية
العصرية تحتم على كل فرد من أفراد الأمة أن يدخل كل واحدة من
هاتين المؤسستين في دور خاص من أدوار حياته ؛ فيمر من المدرسة
في طفولته ، ومن الشككة في شبابه

فيمكننا أن نعتبر الشككة العسكرية — من هذه الوجهة — مؤسسة
تربوية عامة مثل المدرسة الابتدائية

مع هذا إذا تعمقنا في المقارنة نجد أن سيطرة الشككة على حياة
الفرد وتأثيرها فيه ، تكون أشد وأقوى من سيطرة المدرسة على حياته
وتأثيرها فيه

لأن المدرسة تأخذ الفرد من بيئته الخاصة وعائلته الأصلية كل يوم
 العدد محدود من الساعات فقط ؛ ثم تعيده إلى بيئته الخاصة وتركه يعيش
 وينام في داره ، ويقضى بقية ساعات اليوم مع أهله ، في حين أن السكنة
 تحتكر حياة الفرد أكثر من ذلك ؛ لأنها لا تكتفى بأخذ البعض من
 ساعات أشغاله من كل يوم ، بل تقضى عليه بالانفصال عن عائلته الأصلية
 وبيئته الخاصة ، وتحتم عليه أن يعيش مع زملائه في بيئة جديدة ، لمدة
 طويلة ، مدة تعد بالشهور وقد تبلغ السنين .

ولا حاجة لبيان أن انفصال الشاب من بيئته الخاصة بهذه
 الصورة ، منكباً على الحياة العسكرية انكباً كلياً مما يؤثر على نفسيته
 تأثيراً عميقاً

أولاً لأن الحياة العسكرية حياة حركة وتعب ؛ فهي تقوى
 في الشباب روح الحركة والنشاط ، وتعوده على خشونة العيش وتحمل
 الشاق ، وتتمى فيه شيم الرحولة والجلد

ومن جهة أخرى أن الحياة العسكرية حياة نظام وانضباط ؛ تتطلب
 القيادة من البعض وانقياد من البعض ، وتعطى للنظام الموقع الأول
 في كل شيء . فالشاب الذي يدخل السكنة يضطر إلى أن يعيش عيشة
 منتظمة ، مهما كان بعيداً عن النظام في حياته الاعتيادية ؛ ويتشرب
 روح الانضباط مهما كان محروماً من روح الانقياد في حياته الخارجية .
 فالشاب الغنى يضطر إلى الائتمار بأوامر الرئيس الذي قد يكون فقيراً .
 والجدى المستنير يضطر إلى العمل بإيعازات العريف الذي قد يكون
 جاهلاً .

ولا شك في أن كل ذلك يعلم الشاب معنى الانضباط الاجتماعي ويكسبه السجيا الاجتماعية التي يقتضيها هذا الانضباط فعلاً

فضلاً عن أن الحياة العسكرية حياة تضحية وإيثار : إذ الجندي يعيش خلال الخدمة العسكرية خارجاً عن دائرة أعماله الأصلية بعيداً عن حياته الذاتية ، حتى أنه يعيش مفترقاً عن جماعته القريبة الخاصة . إنه كما قلنا في كلمة أخرى يترك داره وبلدته وأهله ومهنته . يترك كل شيء يعود له أو لأسرته . فيعيش مع جماعة من أبناء وطنه في معشر مؤلف من أناس آتين من مدن مختلفة ، ومن أسر وطبقات متنوعة ، ومن مذاهب ومهن شتى . إنه يعيش بين جميع هؤلاء خاضعاً لنظام عام يشمل الجميع . يعيش هناك عاملاً لغاية لا تعود إلى شخصه ، ولا تنحصر في أسرته ، حتى أنها لا تتمركز في بلدته ، بل لغاية أسمى من كل ذلك : لغاية تعود إلى وطنه وتشمل أمته ، لغاية تتوخى حياة الوطن وسعادة الأمة

ولا حاجة لبيان أن ظروف هذه الحياة تؤثر تأثيراً عميقاً في نفسية الشباب ، وتقوى الخصال الاجتماعية بمقياس واسع

ويمكننا أن نقول بهذا الاعتبار : إن الشككات العسكرية بمثابة مدارس اجتماعية تعمل على تخليص الفرد من الأنانية وتعويده الإيثار وتجعله يشعر بوجود الغير - الوطن والأمة شعوراً واضحاً ، وتعوده التضحية الحقيقية على اختلاف أنواعها من تضحية الراحة إلى تضحية الدم والنفس في سبيل الأمة والوطن

من المعلوم أن الإنسان (مدني بالطبع) كما قال الفلاسفة منذ القرون

القديمة ، و (مخلوق اجتماعي) كما يقول علماء الاجتماع الآن . فإنه لا يستطيع أن يعيش بمفرده ، بل يعيش دائماً مندجاً في جماعة من أبناء نوعه ؛ غير أن درجة هذه الاجتماعية وقوة هذا الشعور الاجتماعي لا تتساوى عند جميع الأفراد : فقد تكون قوية عند البعض وضعيفة عند الآخرين ، والربية الاجتماعية تستهدف تقوية الروح الاجتماعية عند الأفراد . وأهم وسائل هذه التربية هي العدسة الاجتماعية والعمل الاجتماعي . وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقول : إن الحياة العسكرية من أفعال وأفعال هذه الوسائل ، كما أن تعميم الحياة العسكرية بين جميع الشبان — عن طريق خدمة العلم الإلزامية — من أهم الوسائل لنشر هذه التربية وتوحيد اتجاهها

وقد اتبه بعض المفكرين إلى أهمية الخدمة العسكرية من هذه الوجهة في البلاد الغربية منذ بدء الأخذ بها ؛ غير أن أجلى آثار هذا الانتباه تجلى بعد الحرب العالمية في الخطة التي انتهجتها الأمة البلغارية . فمن المعلوم أن الحلفاء بعد انتصارهم على الدول المركزية فرضوا على الدولة البلغارية معاهدة « نويي » وحتموا عليها إلغاء نظام التجنيد . فالدولة البلغارية خضعت لأحكام هذه المعاهدة ؛ غير أن مفكرها شعروا بأن ضرر ذلك سوف لا ينحصر في حرمانهم من جيش الدفاع ، بل سيؤدى إلى حرمانهم من التربية الاجتماعية التي كان يحصل عليها شبابهم خلال الخدمة العسكرية ؛ فقد استسلموا إلى الحرمان من الجيش ، غير أنهم لم يشاءوا أن يستسلموا إلى حرمان شبابهم من تلك التربية . لأنهم شعروا بوجه خاص أن هذا الحرمان قد يكون قتالاً بالنسبة إلى الأمة البلغارية ؛

لأنه لم يمض بعد أكثر من أربعين عاماً على استقلالهم القسوى ، وعشرة أعوام على استقلالهم التام . ولذلك بحثوا ملياً في الأمر وأحدثوا آخر الأمر نظام الخدمة المدنية الإلزامية : حتموا على كل شاب بلغ العشرين من العمر ، أن ينفصل عن داره ثمانية أشهر ، يضع نفسه وعمله في خلالها تحت تصرف الدولة للقيام بالخدمات المدنية . إنهم استفادوا من « كتائب العمل » التي أوجدوها بهذه الصورة في إنجاز المشاريع العمرانية ، غير أن غايتهم الأصلية ومنفعتهم القصوى منها كانت في إدامة روح الاجتماع والتضحية والانضباط في نفوس الشباب .

* * *

فأرنت ، في بداية حديثي ، بين المدرسة والثكنة ، وأظهرت بعضاً من أوجه الشبه والمباينة بينهما . وأود أن أعود إلى تلك المقارنة مرة ثانية ظناً أن التعليم الإلزامي يتناول الأطفال ، والخدمة العسكرية الإلزامية توجه وجهها نحو الشبان ؛ فالأولى تؤثر في نفسية الأطفال ، والثانية تؤثر في نفسية الشبان

وقد أخذ المفكرون والعلماء يهتمون بسن الشباب اهتماماً عظيماً ، حتى لقد ظهر بينهم من يقول : إن سنى التربية الأخلاقية الحقيقية ليست سن الطفولة ، بل هي دور الشباب . فإن كثيراً من الغرائز النفسية لا تظهر إلا بعد المراهقة ؛ فالتربية الخلقية التي يمكن أن تعطى في الطفولة قد تتدثر تحت سيل الغرائز التي تظهر بعد المراهقة . لقد اعتاد الناس أن يقولوا دوماً : « التعليم في الصغر كالنقش في الحجر » ولكن هل يجوز لنا أن نقول ذلك ، بدون قيد ولا شرط ؟ إن الإنسان ليس مخلوقاً

جامداً مثل الحجر ، فلا يجوز تشبيه تعليمه بالنقش في الحجر . فإذا أردنا أن نشبه التعليم بالنقش وجب أن نشبهه بالنقش في الشجر ، على الأقل ، لا في الحجر . وكلنا يعلم أن ما ينقش على الشجر لا يبقى على حاله عند النمو بوجه من الوجوه ، فضلاً عن البون الشاسع الموجود بين التعليم والنقش

وعلى كل حال نستطيع أن نقول بدون تردد : إن سنى الشباب يحتاج إلى التعهد بالتربية بقدر سنى الطفولة إذا لم يكن أكثر منه . إن هذه الحقيقة أخذت تسيطر على أعمال الدول بمقياس واسع ، فالشباب أصبح موضع اهتمام الجميع

لقد اعتاد المفكرون أن يسموا القرن الذي نعيش فيه باسم « عصر الطفل » حسب تنبؤات الكاتبة السويدية الشهيرة (اللن كي) ؛ غير أن بعض المفكرين أخذوا يقولون بأن الحضارة القادمة ستكون حضارة الشباب ...

وعلى كل حال يجب أن ينظر إلى عمل الخدمة العسكرية في التربية العامة كمتعم لعمل التعليم الإلزامي . ولذلك يجب أن تؤسس صلات وثيقة بين المدرسة والثكنة . فعلى المدرسة أن تهني الأطفال إلى خدمتهم العسكرية المستقبلية ، وعلى الثكنات أن تعمل لإتمام مفعول دراستهم السابقة .

وقد سلكت الأمم المختلفة ، لضمان هذا التعاون بين المدرسة والثكنة ، طرائق متنوعة ، لا أود أن أسترسل في تعدادها الآن غير أنني أود أن أشير بوجه خاص إلى أهمية هذه المسائل بالنسبة إلينا :

قلنا إن الخدمة العسكرية العامة من أهم الوسائط التي تفيد التربية الاجتماعية، وتزيد في روح التماسك والانضباط بين أفراد الأمة. ولا أراى في حاجة إلى التدليل بأن حاجتنا نحن إلى كل ذلك أقوى بكثير من حاجة الأم الأخرى. فإن روح الفردانية قوية عندنا بعكس روح الاجتماعية التي لا تزال ضعيفة في نفوسنا. وربما كان ذلك متأثراً من الحوادث التاريخية التي أخرجت تكتلنا واتحادنا وتكوننا كأمة متماسكة متلاصقة. (معا)

فإذا كانت الخدمة العسكرية العامة أفادت التربية الاجتماعية لدى جميع الأمم، فلا شك في أن فائدتها لنا ستكون أكبر من جميعها بدرجات...



أنواع المدارس وأنظمتها

نظرة إجمالية

— ١ —

تقسم المدارس في جميع البلاد إلى ثلاث درجات أصلية : ابتدائية ،
وثانوية ، وعالية

فالمدارس الابتدائية ، تؤلف الدرجة الأولى والدنيا من معاهد التعليم ؛
والغرض منها « تعليم الأطفال وتربيتهم » منذ السادسة أو السابعة
من أعمارهم ؛ وهى ترمى إلى إكساب المعلومات والعادات اللازمة لجميع
الأطفال على حد سواء ، مهما كانت المهن التى سيمارسونها والمسالك التى
سيسلكونها فيما بعد

أما المدارس الثانوية ، فتؤلف الدرجة الثانية والوسطى من معاهد
التعليم ؛ وهى تستهدف « تعليم المراهقين وتربيتهم » بعد انتهائهم من
الدراسة الابتدائية تعليماً أرقى من التعليم الابتدائى وتربية أنهم من التربية
الابتدائية . وترمى إلى رفعهم إلى المستوى العلمى الضرورى للاستفادة
من معاهد التعليم العالية من جهة ، ولتكوين « النخبة المتوسطة أى الطبقة
المديرة الوسطى » من الأمة من جهة أخرى

وأما المدارس العالية ، فهى الدرجة الأخيرة والعليا من معاهد
التعليم ؛ وهى تستهدف « تعليم الشبان وتربيتهم » — بعد انتهائهم

من الدراسة الثانوية - تعليمًا أرق وتربية أتم من التي حصلوا عليها خلال تلك الدراسة ، ترقى بهم إلى المستوى العلمى الضرورى لتكوين « النخبة أو الطبقة المديرة العليا » من الأمة

إن هذه التعريفات كافية لإظهار الفروق والعلاقات الموجودة بين هذه الدرجات المدرسية :

(١) - إن كل درجة من هذه الدرجات الثلاث تستهدف تعليم « الجيل الجديد » وتربيته فى دور من أدوار الحياة المتتالية ؛ فالمدارس الابتدائية تقوم بمهمة التعليم والتربية فى عهد الطفولة ، والمدارس الثانوية تتعهد بإتمام ذلك فى عهد المراهقة ، والمدارس العالية تتم هذا العمل فى عهد الشباب

ومع هذا يجب ألا يعزب عن البال ، أن الدراسة الابتدائية قد تستهدف تعليم المراهقين أو الشباب أو الكهول الذين لم يتمكنوا من الدرس فى طفولتهم ؛ كما أن الدراسة الثانوية أيضاً تستهدف تعليم الشباب أو الكهول الذين لم يتمكنوا من مواصلة الدرس فى عهد مراهقتهم . فيمكننا أن نقول إن الأوصاف الأساسية التى تتميز بها الدراسة الابتدائية عن الثانوية ، لا تتبع أعمار الطلاب الذين يتلقونها ، بل تتعين بالمستوى العلمى والغاية الاجتماعية التى تستهدف بها

(ب) - إن كل درجة من هذه الدرجات الثلاث تستهدف تكوين طبقة من طبقات الأمة ؛ لأن كل أمة تنقسم - من الوجهة الاجتماعية - إلى ثلاث طبقات أساسية : الطبقة الأولى وتتألف من سواد الناس ؛ والطبقة العليا وتتألف من الرجال الذين يدبرون شؤون الأمة

ويؤثرون في سير هذه الشؤون تأثيراً كبيراً — سواء أكان ذلك عن طريق الوظيفة الرسمية أم كان بحكم المنزلة أو السيطرة العلمية والاجتماعية والاقتصادية — وسواء أكان في ساحة الإدارة أم السياسة أم في الأدب والعلم أم في الصناعة والتجارة ؛ وأما الطبقة الثالثة فتتألف من الرجال الذين يشغلون منزلة متوسطة بين عامة الناس وأولى الأمر ؛ ويكونون بمثابة حلقة الاتصال بين هاتين الطبقتين . وتعرف الطبقة العليا باسم *الطبقة المديرة* *la classe dirigeante* أو *النخبة العليا* *la haute élite* والطبقة الدنيا تعرف باسم «طبقة العوام» أو «الناس» أو «سواد الناس» . وأما الطبقة الوسطى فتعرف باسم «الطبقة المتوسطة» *classe moyenne* أو *النخبة المتوسطة* *l'élite moyenne*

وغني عن البيان أن تكون أفراد الطبقات العليا والمديرة الراقية يتطلب تعليماً أرقى وتربية أتم مما يتطلبه تكوين الطبقات الوسطى ؛ كما أن تكون أفراد الطبقات الوسطى أيضاً يتطلب تعليماً أرقى وتربية أتم مما يحتاج إليه سواد الناس

فيمكننا أن نقول إن كل درجة من درجات التحصيل الثلاث ، تقابل حاجات كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث

(ج) — إن الدراسة العالية تقوم على الدراسة الثانوية وتكملها ؛ كما أن الدراسة الثانوية تتأسس على الدراسة الابتدائية وتتممها . فيمكننا أن نقول إن درجات الدراسة الثلاث ، بمثابة «ثلاثة طوابق» ، تؤلف *بنية واحدة*

غير أنه يجب ألا يغرب عن البال ، أن هذه الطوابق الثلاثة

لا ينطبق بعضها على بعض كل الانطباق ؛ فالطاق الأعلى مثلاً لا يعلو
إلا قسماً محدوداً من الطابق الثاني ، كما أن هذا الطابق الثاني نفسه
أيضاً لا يرتفع إلا فوق قسم صغير من الطابق الأول . فإذا شبهنا مجموع
معاهد التعليم ببناية كبيرة مرتفعة ، وجب أن لا ننسى أن قسماً كبيراً
من هذه البناية ذو طابقين فقط ، كما أن قسماً أكبر من ذلك ذو طابق
واحد ليس غير

ومع هذا لا يمكن لأحد أن يصعد الطابق الأعلى دون أن يصعد
السلم الموضوع في الطابق الثاني ، أو يصعد الطابق الثاني دون أن يصعد
إليه من الطابق الأول

- ٢ -

✓ هذا ، ومن جهة أخرى تنقسم المدارس — باعتبار ماهية الغايات التي
رمى إليها بوجه خاص — إلى نوعين أساسيين :

- | | |
|---|--|
| (أ) — المدارس التي تستهدف الثقافة العامة والتعليم العام | (ب) والتي تستهدف التربية المهنية والتعليم المهني الخاص |
|---|--|

فإن المدارس التي من النوع الأول لا تتعهد بتحضير الطلاب إلى
مهنة معينة ، بل تسعى إلى تجهيزهم بمعلومات عامة وتثقيفهم بثقافة أساسية ،
وتترك مهمة إكسابهم المعلومات والعدات اللازمة للمهنة التي سيختارونها
فيما بعد ، إلى المدارس والمعاهد التي هي من النوع الثاني . والمدارس التي
من هذا النوع هي التي تتعهد بتهيئة الطلاب إلى مهنة معينة خاصة ،
كالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو الهندسة

يظهر من ذلك ، أن المدارس التي من النوع الثاني تستند بوجه عام على المدارس التي من النوع الأول ؛ لأن الدراسة المهنية تحتاج حتماً إلى شيء قليل أو كثير من الدراسة العامة والثقافة العامة ومما يجدر بالذكر أن مزاوِلي المهن المختلفة ينقسمون — مثل سائر أفراد الأمة — إلى طبقات عديدة — دنيا ووسطى وعليا — ؛ فالمدارس التي تتعهد بتحضير الطلاب إلى تلك المهن أيضاً يجب أن تنقسم — مثل المدارس العامة — إلى درجات ابتدائية وثانوية وعالية

فإذا استعرضنا الأعمال الصناعية المختلفة مثلاً ، نجد بينها ما لا يتطلب شيئاً من التحضير غير « احتراف عملي » مستند على دراسة ابتدائية بسيطة ؛ وما يتطلب دراسة صناعية خاصة مؤسسة على دراسة عامة متوسطة ؛ بل وما يحتاج إلى دراسة صناعية راقية ، لا بد لها من أن تستند على ثقافة عامة قوية ودراسة ثانوية تامة ؛ فالمعاهد التعليمية التي تؤهل الطلاب إلى الدرجة الأولى من هذه المهن ، تعد من المدارس الصناعية الابتدائية ؛ والتي تؤهل إلى الدرجة الثانية من هذه المهن ، تعتبر من المدارس الصناعية المتوسطة أو الثانوية ، وأما التي تؤهل إلى الدرجة الثالثة من هذه المهن ، فتعتبر من المعاهد الصناعية العالية

يظهر من هذه التفصيلات ، أن عمل المدارس الابتدائية الاعتيادية لا ينعصر في التعليم العام ، بل يشمل إعداد الطلاب لتعلم المهن أيضاً ، كما أن عمل المدارس الثانوية لا ينعصر في الدراسة الثانوية العامة ، بل يشمل إعداد الطلاب للمدارس المهنية العالية أيضاً

إن المدة التي تستغرقها كل درجة من درجات التعليم الثلاث ،
لم تكن متساوية في جميع البلاد

فمدة الدراسة الابتدائية تتحول بين أربع وثمانى سنين ؛ فهي
أربع سنين في بلغاريا ، وخمس في تركيا ، وست في العراق ، وسبع في بولونيا
وثمان في روسيا

وأما مدة الدراسة الثانوية ، فتتحول بين خمس وتسع سنين ؛ فهي
خمس سنين في العراق ، وست في تركيا ، وسبع في بولونيا ، وثمان في
السويد وتسع في روسيا

غير أنه يجب أن يلاحظ أن الفروق التي تظهر من مقارنة بعض هذه
الأرقام ببعض مقارنة انفرادية ، لا تدل على فروق حقيقية وفعلية ؛
لأن الحد الذي يفصل الدراسة الابتدائية عن الثانوية من الأمور
الاعتبارية ولاصطلاحية التي تختلف باختلاف الممالك والبلدان ؛
فإن الدراسة الثانوية في العراق مثلاً تبتدىء بعد إتمام الدراسة
الابتدائية التي تستغرق عادة ست سنين ؛ في حين أن هذه الدراسة
تبتدىء في روسيا بعد انتهاء القسم الأول من الدراسة الابتدائية ؛
وهذا القسم لا يستغرق عادة أكثر من أربع سنين ؛ فيمكننا أن
نقول : إن الصف الأول من صفوف الدراسة الثانوية في روسيا يقابل
— بهذا الاعتبار — الصف الخامس من صفوف الدراسة الابتدائية
في العراق

هذه نقطة جوهرية يجب ألا تقرب عن البال ، عند ما يراد

مقارنة النظم المدرسية المقررة في البلاد المختلفة : إن مبدأ الدراسة التي تسمى باسم « الابتدائية » ثابت ومتماثل تقريباً في كل البلاد المتمدينة ؛ غير أن مبدأ الدراسة التي تسمى باسم « الثانوية » يختلف باختلاف البلاد ؛ فالطريقة الوحيدة التي تساعد على إظهار الفروق الحقيقية الموجودة بين النظم المدرسية المختلفة هي : ملاحظة المدة التي تستغرقها الدراسة الثانوية مع مدة الدراسة الابتدائية التي تتقدمها ؛ وبتعبير آخر : حساب عدد السنين التي تمر منذ بدء الدراسة الابتدائية ، وملاحظة أعمار الطلاب الذين يدرسون عادة في كل صف من الصفوف

فإذا لاحظنا مجموع السنين التي يقضيها الطلاب عادة في الدراسة الابتدائية والثانوية ، نجد أنه : (٦ ب + ٥ ث) في العراق ، (٥ ب + ٦ ث) في تركيا ، (٧ + ٥) أو (٤ + ٨) في بولونيا ، (٦ + ٦) أو (٨ + ٤) في الولايات المتحدة الأمريكية ، و (٤ + ٩) في ألمانيا ...

ولا حاجة إلى تبين أن الفروق التي تظهر من مقارنة بعض هذه الجمل ببعض ، تقل كثيراً عن الفروق التي تتراءى من مقارنة كل مدة من مدد الدراسة الابتدائية والثانوية على الانفراد

ومما يجدر بالذكر أن المدد المخصصة لكل واحدة من الدراستين الابتدائية والثانوية — تقسم بدورها — في معظم البلاد — إلى دورتين متتاليتين ، يستطيع الطلاب أن ينفصلوا عن مدرستهم عند الانتهاء من أولاهما عند الافتضاء . فيمكننا أن نقول إن الدراسة الابتدائية تتم في المدد التالية : ٣ + ٢ في تركيا ، ٥ + ٢ في العراق ، ٤ + ٣ في بولونيا ،

٤ + ٤ في بروسيا . وأما الدراسة الثانوية ، فإنها تتم في المدد التالية :
 ٣ + ٢ في العراق ، ٣ + ٣ في تركيا ، ٣ + ٤ في بولونيا ؛ ٦ + ٣
 في ألمانيا ...

— ٤ —

إن الدراسة الثانوية تستند — كما بينا ذلك آنفاً — على دراسة
 ابتدائية بوجه عام :

غير أن هذه الدراسة الابتدائية التي تكون أساساً للدراسة الثانوية
 تعطى في بعض البلاد في مدارس ابتدائية من نوع خاص ، في حين أنها
 تعطى في بعض البلاد في المدارس الابتدائية العامة

ففي البلاد التي تتبع النظام الأول ، يوجد نوع خاص من المدارس
 الابتدائية ، يقصد منه إعداد الطلاب لتلقى الدروس الثانوية بوجه
 خاص ؛ فالآباء الذين يودون تعليم أطفالهم تعليماً ثانوياً أو عالياً ، يرسلونهم
 إلى هذا النوع من المدارس الابتدائية منذ بدء حياتهم المدرسية .
 وأما سائر الآباء الذين لا يريدون تعليم أطفالهم تعليماً راقياً ، فيرسلونهم
 إلى المدارس الابتدائية العامة ، التي لا تهتم بإعدادهم لتلقى الدروس الثانوية
 وأما البلاد التي تتبع النظام الثاني فلا توجد فيها مدارس ابتدائية
 مؤسسة بقصد إعداد الأطفال للدراسة الثانوية بوجه خاص ، فجميع
 الأطفال يتلقون دروسهم الابتدائية في مدارس عامة من نوع واحد سواء
 أكانوا من الذين سيتمكنون من مواصلة الدراسة إلى حين التخرج من
 المدارس الثانوية أو العالية ، أم كانوا من الذين سيضطرون — بحكم

أحوال عائلاتهم الاجتماعية والاقتصادية — إلى الاكتفاء بالدراسة الابتدائية ، أو بدراسة احترافية بسيطة ، أو دراسة مهنية متوسطة ومن الواضح أن هذه النظم المدرسية ذات علاقة شديدة بالنظم الاجتماعية والسياسية ، لأن النظام الثانى يجمع جميع أطفال الشعب فى مدرسة واحدة ، سواء أكانوا من أولاد الأغنياء أم من طبقة الفقراء ، وسواء أكانوا من الدين تضطربهم حالة عائلاتهم الاقتصادية إلى خوض غمار العمل والسعى وراء الرزق بعد دراسة بسيطة قصيرة ، أم من الذين تمكنهم حالتهم الاقتصادية من مواصلة الدراسة مدة طويلة ، ولا تضطربهم إلى خوض غمار العمل والارتزاق قبل انتهائهم من الدراسة الثانوية أو العالية ...

وأما النظام الأول فيفرق بين هذين الصنفين من الأطفال منذ أوائل حياتهم الدراسية ولا يترك مجالاً لاجتماعهم على مقعد واحد فى مدرسة واحدة فيمكننا أن نقول إذن : إن النظام الأول هو « نظام تعليمى أرستقراطى » وأما النظام الثانى فهو « نظام تعليمى ديمقراطى »

والنظام الأول كان هو السائد فى معظم الممالك الأوروبية قبل الحرب العالمية ؛ غير أنه أخذ يترك محله إلى النظام الثانى منذ انتهاء الحرب الكبرى فى أكثر البلاد

والأمة التى بذل مبروها ومفكروها أعظم الجهود فى هذا السبيل هى الأمة الألمانية ؛ فإنهم أخذوا يطالبون بتوحيد الدراسة الابتدائية منذ مدة طويلة ، إذ كانوا يقولون (شعب واحد ، ومدرسة واحدة ، إلى أن تمكنوا من إدماج هذا المبدأ فى دستور الدولة الألمانية الذى

وضع في « وإيمار » بعد انتهاء الحرب ؛ وحوِّروا نظمهم التعليمية وفق هذا
المبدأ تحويراً تاماً

إن روسية السوفيتية أيضاً دانت بهذا المبدأ بطبيعة الحال . وأما
الإنجليترا فظلت متمسكة بالنظام الأول ، كما أن فرنسة لم توفق إلى الآن
للتخلص من النظام القديم ، بالرغم من جهود مفكريها المجددين .
وأما البلاد الشرقية ، فمصر لا تزال باقية على النظام الأول ، وربما
كانت بعيدة عن التفكير في تبديله . أما تركيا فتركت النظام الأول منذ
بضع سنين . وأما العراق فقد أسس معارفه على المبدأ الثاني منذ قيام
الحكومة الوطنية فيه

— ٥ —

تعتبر الدراسة الابتدائية « إلزامية وإجبارية » في جميع البلاد
الراقية . فعلى جميع الأطفال أن يدرسوا في مدرسة ابتدائية ، وعلى جميع
أفراد الأمة أن يكونوا قد أتموا على الأقل دراستهم الابتدائية . هذه من
المبادئ المقررة لدى جميع الأمم .

ومما يجدر بالذكر أن مبدأ « إلزامية التعليم الابتدائي » يلزم مبدأ
آخر وهو « مجانية هذا التعليم » « فإدما ننجبر الآباء على تعليم أولادهم
في المدارس الابتدائية ، يجب علينا أن نجعل الدراسة فيها مجانية » .
وهذا المبدأ أيضاً من الأمور المقررة في جميع البلاد .

غير أن حدود هذه المجانية وشمولها من الأمور التي تختلف باختلاف

البلاد :

إن الحد الأدنى لمجانية التعليم هو : « عدم أخذ أجور خاصة من الطلاب الذين يدرسون في المدارس الابتدائية » .

غير أن هذا القدر من « المجانية » يعتبر « غير واف بالمقصود » في كثير من البلاد الراقية ، لأن نفقات الدراسة لا تنحصر في حقيقة الأمر بالأجور المدرسية : فهناك المبالغ التي يجب أن تصرف لشراء الكتب والأقلام والدفاتر اللازمة للطالب ، وهذه المبالغ أيضاً تعتبر في كثير من البلاد من جملة « نفقات الدراسة » وتدخل في حدود « المجانية » .

وعدا ذلك يقولون في بعض البلاد : « إننا نجبر الآباء على إرسال أولادهم إلى المدرسة ليدرسوا فيها طول النهار ؛ فيترتب علينا أن نتعهد بإطعام هؤلاء الأطفال وقت الظهر في المدرسة ولا سيما إذا كانوا من الفقراء » كما يقولون : « إننا نحتم على الآباء أن يرسلوا أولادهم إلى المدرسة ، ولو كانت مساكنهم بعيدة عنها ؛ فيترتب علينا إذن أن نتعهد بنقلهم من مساكنهم إلى المدرسة ومن المدرسة إلى مساكنهم ، وأن نقوم بالنفقات اللازمة لذلك أيضاً » .

حتى أنهم يقولون في بعض البلاد : « إننا نحرم الآباء والأمهات من مساعدة أطفالهم بسبب إجبارهم على الدرس ؛ فيترتب علينا أن نعوضهم من أضرار هذا الحرمان ، إذا كانوا في حاجة إلى مثل هذا التعويض » وهكذا نجد أن كل أمة تفسر المجانية بأحد هذه المعاني الواسعة أو الضيقة ، حسب ما تسمح لها أحوالها المالية والاقتصادية .

وأما مدة « الدراسة الإلزامية » فإنها تختلف بين ٤ و ٨ سنين : بتتدى عادة بيده السنة السابعة من العمر ، وتستمر حتى انتهاء السنة

الحادية عشرة أو الرابعة عشرة

إن جميع الأم واجهت مشاكل عديدة لتثبيت حدود التعليم الإلزامي ؛ لأن الدراسة التي يمكن أن تعطى قبل الرابعة عشرة من العمر تبقى ناقصة ، وتكون غير كافية بحاجات الرجال بطبيعة الحال ، غير أن تمديد مدة الإلجبار أيضا لا يخلو من محاذير اقتصادية عديدة ، أهمها تأجيل أجل العمل والارتزاق إلى درجة قد تؤدي إلى ارتباك حياة العائلات . ولهذا السبب قد استحدثوا في معظم البلاد « دروساً إتمامية » يتلقاها المراهقون والشبان في أوقات وفواصل مناسبة بعد انتهائهم من الدراسة الابتدائية ، على أساس بضعة دروس في كل أسبوع طول السنة ، أو ستة أو ثمانية دروس في الأسبوع في بعض شهور السنة ، وقد أصبحت هذه الدراسة أيضاً إلزامية في بعض البلاد .

٦- -
الموضوعات

إن تعيين الموضوعات التي يجب أن تدرس في المدارس الابتدائية لم يكن مثاراً لمشاكل كبيرة ومناقشات طويلة ، لأن الغايات التي تستهدفها الدراسة الابتدائية بسيطة محدودة لا يصعب تحقيقها كلها صفقة واحدة .

غير أن تحديد الموضوعات التي يجب أن تدرس في المدارس الثانوية كان من الأمور التي أوجدت مشاكل كبيرة ، وأثارت مناقشات طويلة ، واستوجبت القيام بتشكيلات متنوعة ، لأن الغايات التي تستهدفها الدراسة الثانوية كثيرة ومعقدة إلى درجة يصعب معها تحقيقها كلها دفعة واحدة .

إن أهم المسائل التي أثرت في تنظيم المدارس الثانوية في البلاد الغربية كانت مسألة الثقافة الكلاسيكية ، وبتعبير آخر مسألة تعليم اللغتين القديمتين اللاتينية واليونانية وأداهما باعتبارهما « من أسس الثقافة الأوروبية ، ومن ضرورات الثقافة الراقية » .

كان هذا التعليم يشغل القسم الأعظم من أوقات الدراسة في جميع المدارس الثانوية في كل البلاد الأوروبية إلى عهد قريب . غير أنه كلما ترقى العلوم الحديثة وزادت سيطرتها على فروع الحياة المسماة توسعت علاقات الأمم بعضها ببعض ، واشتدت حاجة الناس إلى تعلم اللغات الحية العصرية ، وتزعزعت مكانة اللاتينية واليونانية ، وظهرت ضرورة قطعية لتنويع خطط الدراسة في المدارس الثانوية . وفي كل البلاد نجد خططاً عديدة ، بعضها يحتم تعليم اللاتينية مع اليونانية ، وبعضها يحتم تعليم اللاتينية دون اليونانية ، في حين أن بعضها لا يدخل إحدى هاتين اللغتين بين مواد الدراسة ، كما نجد أن بعض المدارس العالية يتطلب من الذين يودون الانتساب إليها دراسة كلاسيكية مع معرفة اللغات القديمة ، في حين أن بعضها يتطلب دراسة عصرية مع معرفة اللغات الحية ، وبعضها يتطلب دراسة أدبية أكثر منها علمية ، في حين أن بعضها يتطلب دراسة علمية أكثر منها أدبية .

إن كل خطة من هذه الخطط المتنوعة تطبق في بعض البلاد في فرع خاص ، وفي بعض البلاد في نوع خاص من المدارس الثانوية . ففي البلاد التي تسير على النظام الأول لا يوجد إلا نوع واحد من المدارس الثانوية ؛ وتتفرع كل مدرسة — ابتداء من بعض

الصفوف - إلى فرعين أو ثلاثة فروع ، يسير التدريس في كل فرع منها على خطة خاصة . فيختار كل طالب الفرع الذي يوافق رغباته وأهدافه الخاصة ، عندما يصل إلى الصف الذي يبدأ فيه التفرع وأما في البلاد التي تسير على النظام الثاني ، فيوجد أنواع عديدة من المدارس الثانوية ، يسير كل منها على خطة خاصة ، ويختار كل طالب المدرسة التي توافق رغباته وأهدافه الذاتية منذ بدء الدراسة الثانوية .

وهناك نظام ثالث وهو عدم جعل جميع الدروس إحصائية وعدم تثبيت خطط دراسية قطعية ، وتخيير الطلاب في تكوين (مجموعة الدروس التي سيتلقونها في كل صف) ، حسب غايتهم ونزعاتهم الخاصة على شرط مراعاة بعض القيود المحدودة .

إن أتم النماذج للنظام الأول يشاهد في فرنسا ، وأحسن النماذج للنظام الثاني يشاهد في ألمانيا . وأما أكل النماذج للنظام الثالث فيشاهد في بعض الولايات المتحدة الأمريكية .

- ٧ -

إن السياسة التي تتبع في تعليم البنات وتربيتهم تختلف باختلاف البلاد ؛ ففي معظم البلاد الراقية يجمعون البنين والبنات معاً في مدرسة واحدة في المدارس الابتدائية والعالية ، ولا يفرقونهم إلا في المدارس المتوسطة والثانوية ، وفي حين أنهم في بعض البلاد يجمعونهم في جميع درجات الدراسة ، وفي أخرى يفرقونهم في الدراستين الابتدائية والثانوية ويجمعونهم في العالية ؛

وفي بعض البلاد لا يجمعونهم في درجة من درجات الدراسة .

إن دراسة البنات لا تختلف عن دراسة البنين في البلاد التي تسير
 على مبدأ التعليم المختلط إلا في تدير المنزل والأشغال اليدوية . وأما في
 البلاد التي لا تعمل بهذا المبدأ فتختلف دراسة البنات عن دراسة البنين
 اختلافاً أعظم ، وذلك من جراء تكييف المدارس على مقتضيات الأشغال
 النسائية والتربية المنزلية .

ومن المعلوم أنه يوجد في جميع البلاد بعض مدارس مهنية خاصة
 بالبنات أسست بقصد تعليم المهن والأشغال النسائية .



تيارات التربية والتعليم

نظرة إجمالية

- ١ -

لقد وقفت الكاتبة السويدية الشهيرة « ألن كي Ellen Key » في أوائل القرن العشرين وقفة متفكر متكهّن استعرضت في خلالها حاجات العصر ونزعاته . فقالت : « إن هذا العصر سيكون عصر الطفل » يعتنى فيه بحقوق الأطفال وتربيتهم اعتناء جدياً ...

وإن السنين التي مرت علينا منذ بداية هذا العصر حققت تكهنات « ألن كي » كل التحقيق ؛ فقد أخذت الحكومات تفكر في حقوق الأطفال ، وتضع القوانين لصيانة هذه الحقوق ، كما أخذت الشعوب تؤازر الجمعيات وتؤسس المعاهد لحماية الأطفال وإصلاح أحوالهم ووقايتهم من فساد البيئات وإهمال العائلات . وقد تأسست في كثير من الممالك المتقدمة محاكم خاصة بالأطفال تنظر في الدعاوى المتعلقة بهم ، وتفصل في الجرائم السندة إليهم ، وتحكم بأحكام ترمي إلى إصلاحهم . وتآلفت في بعض الممالك ضابطة خاصة بالأطفال ترمي إلى تعقيب المخالفات المتعلقة بالقوانين التي وضعت لأجل حماية الأطفال من جهة ، وإلى تحقيق جرائم الأطفال من جهة أخرى .

هذا وقد شعرت الأمم - بطبيعة الحال - بضرورة شديدة إلى توحيد

المساعي في هذا الباب ، وعقدت مؤتمرات متعددة ، فأُسست ديواناً دائماً لهذا الغرض ، فتكوّن بهذه الصورة « الاتحاد الأُمّى للإسعاف الطفل »
« U. I. S. E. »

وقد فكر هذا الاتحاد في إصدار منشور عام يثبت حقوق الأطفال ، وقرره سنة ١٩٢٣ ؛ ثم قدمه إلى عصبة الأمم ، فأقرت العصبة هذا المنشور سنة ١٩٢٤ ، ودعت الحكومات إلى الاستلھام من مضمونه ، والسعى وراء تطبيقه وتحقيقه .

فاستحق العصر - حتى قبل انتهاء ربه الأول - ذلك العنوان الذي عنونته به الكاتبة السويدية ، فأصبح « عصر الطفل » بكل معنى الكلمة . ولا غرابة في كل ذلك ، لأن أطفال اليوم هم رجال الغد ؛ فحماية الأطفال تعد صيانة للمستقبل ، كما أن حقوق الأطفال تتضمن حقوق الجميع

عصر الطفل !

إذا استحق العصر الذي نعیش فيه هذا العنوان ، فقد استحق في الوقت نفسه عنواناً آخر غير مفارق له ، وهو عنوان « عصر التربية والتعليم » .

ذلك لأن « عهد الطفولة » هو عهد « التربية الأساسية » ودور « التعليم الابتدائي » ، كما أن « التربية الصالحة والتعليم الصحيح » من أهم حاجات الطفل وأقدم حقوقه . فكلما زاد تفكير الأم في حقوق الأطفال زاد اهتمامها بالتربية والتعليم بطبيعة الحال . فقد أصبحت شئون التربية والتعليم من أهم مشاغل الدول والأمم ، وصارت كل أمة ترمي

إلى تميمها بين جميع أفرادها بدون استثناء .

✓ وهذه الفكرة - فكرة التعليم العام الإلزامي - التي أخذت تتحقق في بعض البلاد في القرن التاسع عشر ، أصبحت من الحقائق الراهنة في القرن العشرين ، في جميع أنحاء العالم المتمدن . فتكاثرت معاهد التربية والتعليم في كل البلاد بسرعة كبيرة ، حتى أصبح عددها كافلاً لاستيعاب جميع أبناء الشعب .

فيمكننا أن نقول إن « التعليم العام » قد أصبح الآن أهم أقنوم من الأقانيم الثلاثة الجديدة التي أخذت تسيطر على الحياة الاجتماعية العصرية ؛ لأنه من أهم الوسائط لتنظيم مفعول الأقنومين الباقين ، وهما : « التجنيد العام » و « التصويت العام »

إن حركة تكثير المدارس وتعميم التعليم اقترنت بحركة أخرى ، هي حركة تنويع المدارس وتخصيص التعليم : فازدادت أنواع المدارس مع عددها ، فصار في كل البلاد بجانب المدارس العامة التي ترمى إلى تعليم ما يحتاج إليه المرء بصورة عامة عدد كبير من المدارس الخاصة التي ترمى إلى تهيئة الفرد إلى المهن المختلفة والأعمال الاختصاصية .

فكلما تعددت الحياة الاجتماعية وتنوعت الحاجات البشرية ازدادت هذه الأنواع ، فأصبحنا نرى بأزاء كل مهنة من المهن نوعاً خاصاً من المدارس : فبجانب مدارس الطاهيات والمرضات مدارس الأمهات ، وبجانب الغناء والتمثيل مدارس الطيران والصحافة .

وقد أخذ في السنين الأخيرة يعم في كل البلاد نوع جديد من

المدارس ، وهو « المدارس الاجتماعية » التي تستهدف تهيئة الرجال والنساء لخدمات « المشروعات الاجتماعية » على اختلاف أنواعها ، من دعاية ونشر وإسعاف وتنظيم .

هذا وكلما تنوعت معاهد التربية والتعليم وتوسعت غاياتها حدث تنوع وتوسع في الأعمار المستهدفة بها أيضاً : فلم يبق عمل هذه المعاهد منحصراً في سن الطفولة الثانية وسن الشباب — كما كان قبلاً — ، بل تعدى هذه الحدود وشمل سن الطفولة الأولى من جهة ، وسن السكولة من جهة أخرى

وقد تولدت من جراء هذا التيار المستمر دور الأطفال ودور الحضانة ودور الرضاعة التي تتمهد بتربية الأطفال وتنشئهم قبل السن المدرسية الاعتيادية من جهة ، والدروس الليلية ودروس الآحاد ، والتعليم الشتوي ، والتعليم الإتمامي والمحاضرات العامة ، وما شاكلها من الترتيبات التعليمية التي ترمى إلى إدامة التعليم وإتمامه بعد الحياة المدرسية الاعتيادية ، من الجهة الأخرى

إن هذا التوسع وذلك الشمول ، حدثا من جراء التطورات التي طرأت على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وهي :

(١) — عند ما كانت المرأة تشتغل بالزراعة أو بالصناعة المنزلية كانت تستطيع أن تقوم بتربية أولادها إلى سن التحصيل ، بدون أن تُعَوِّق عن عملها الاقتصادي . ولكنها عندما أخذت تشتغل في المعامل والمتاجر الكبيرة ، لم يبق لديها مجال لذلك ؛ فلم يعد في استطاعتها

أن تتعهد أولادها ، مع الاستمرار على أعمالها . فكما تكاثفت النفوس واشتدت الفعالية الاقتصادية وازدادت الآلات والمصانع ، وكما اشتدت ضرورة اشتغال النساء في العامل والمتاجر ... ازدادت بمقدار ذلك ضرورة افتراق الأمهات عن أولادهن في أوقات العمل . لأنه لم يعد في استطاعة الأمهات أن يستصحبن أولادهن إلى محال اشتغالهن ، ولا أن يبقين في دورهن بالقرب منهم . وهذه الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، قد استوجبت تأسيس المآوى ، بقصد جمع أولاد العاملات وحراستهم وقت العمل

إن المعاهد التي تأسست بهذه الصورة كانت ترمى — في بادئ الأمر — إلى الإيواء والمحافظة فحسب ؛ ولكنها أخذت بعد ذلك ترمى إلى غايات أعلى من غاية الإيواء ، وتحولت بالتدريج إلى معاهد تربية وتنشئة ؛ فصارت عندئذ تجتذب الأحداث من جميع طبقات الشعب ؛ ولا سيما دور الأطفال ، فإنها أصبحت بذلك من أهم عناصر التربية العامة

(ب) — أما حركة تعليم الكهول ، فقد تولدت مع فكرة التعليم العام : فعند ما فكرت الدول في تعميم التعليم ، لاحظت أن آثار هذا التعليم سوف لا تظهر إلا بعد سنين طوال إذا اقتصر على الأطفال . فأخذت تفكر في تعليم الكهول الذين تجاوزوا سن التحصيل الاعتيادي قبل سن قوانين التعليم العام ، فأحدثت الدروس المسائية ودروس الآحاد

إن الدروس والترتيبات التي استحدثت بهذه الصورة ، لم تنقطع بتعميم التعليم العام ، بل تطورت إلى شكل آخر بعد ذلك التعميم ؛ لأن الحكومات وجدت أنفسها أمام مشكلة جديدة ، وهي عدم كفاية التحصيل الابتدائي — بالنظر إلى تطور العلوم والقنون ، وإلى تعقد

الحياة الاقتصادية والاجتماعية من جهة ، وإلى عدم إمكان بقاء جميع الطلاب في المدارس إلى ما بعد الرابعة عشرة من العمر بالنظر إلى مشاكل العيش من جهة أخرى . فحلاً لهذه المشكلة ، أخذت ترتب دروساً متممة لأدامة التعليم بعد إكمال الدراسة الابتدائية ، بدون معارضة الفعالية الاقتصادية والاجتماعية . وقد جعلت بعض الحكومات هذا النوع من التحصيل — أى التحصيل بعد المدرسة — إلزامياً مثل التحصيل الابتدائي نفسه

(ج) — هذا ، وقد انضم إلى هذه العوامل ؛ عامل جديد من جراء ويلات الحرب العامة ؛ لأن عدداً كبيراً من الناس أصبحوا غير قادرين على الاستمرار في مهنتهم السابقة ، بسبب الجروح والعلل التي أصابهم خلال الحرب . ولذلك كان من الضروري استئناف تربيتهم ، لتعليمهم معلومات جديدة ومهناً جديدة ، متناسبة مع علائهم ، ومع قوائم العقلية والبرنية . فاستئناف التربية عند السكول أصبح من أهم المسائل التربوية والاجتماعية التي نشأت بعد الحرب العامة

إن نطاق التربية والتعليم لم ينحصر في الأسماء والأذكياء ، بل أخذ يشمل المولودين والأغبياء

وهذه الحركة ، حركة الاهتمام بالمولودين والعجزة ، ليست جديدة ؛ ولكن المعاهد المؤسسة لهذا الغرض كانت — في بادئ الأمر — « معاهد خيرية » بحتة ، لا تستهدف غاية الإيواء والإسعاف ، ولا تطمح في شيء غير إعاشة المولودين وتخليصهم بهذه الصورة من بؤس الحياة

إلا أن هذه المعاهد لم تبق على هذه الحال ، فقد أخذت تتطور
وتتبدل بصورة تدريجية إلى معاهد تربية وتعليم . وقد استكشف
المشتغلون بها طرقاً عديدة لتعليم المعلمين مهناً مختلفة ، يعيشون بها بدون
أن يبقوا عالة على المجتمع ، بل يصبحون أعضاء عاملين نافعين ، يستطيعون
أن يشتركوا في الحياة الاقتصادية

وقد بدأت هذه الحركة بتعليم العميان : وتكملت طرق هذا التسليم
ووسائله ، فوصلت إلي حد أصبح من السهل معه تعليمهم القراءة والكتابة
والعلوم النظرية ، علاوة على الأعمال والمهن اليدوية

ثم شملت الحركة تعليم الصم والبكم ؛ فقد تمكن المربون الذين
تعدهم ، من إيجاد طرق ناجمة تكفل تمويدهم فهم الكلام — بمشاهدة
حركات شفاه المخاطب — ، وتمارينهم على التكلم بدون سماع بإعانة
الحاسة العضلية والحركية ، وبذلك يجعلهم أعضاء فعالين في المجتمع

هذا ، وعند ما عمّ التعليم الإلزامي ، حدثت ضرورة جديدة ، وهي
ضرورة تعليم الأطفال غير الأسوياء ، من حقى ، وأغبيا ، وضعفاء
ومتخلفين ؛ لأنه قد وجد بين الأطفال الذين أرغموا على التحصيل ،
عدد غير قليل من الشواذ ، متخلفون في النشوء العقلي ومنحطون في
المدارك وإن لم تكن علتهم ظاهرة . فوجود مثل هؤلاء الأطفال
بين الطلاب الطبيعيين قد أخذ يعرقل سير الدروس ، ويُعْضِلُ أمر
التربية والتسليم في المدارس العامة . فأصبح من اللازم فصلهم عن بقية
الطلاب ووضعهم في صفوف خاصة ، ثم جمهم في مدارس خاصة . وقد
ابتدع المربون الذين اشتغلوا في هذه الصفوف والمدارس طرقاً خاصة

ناجعة ، لتعليمهم وتربيتهم تربية تجعلهم أعضاء نافعين في المجتمع . فانضم
 — بهذه الصورة — إلى معاهد التربية والتعليم نوع جديد ، عدا
 أنواعها السابقة ، كما أنه ارتسم أمام المربين هدف جديد غير أهدافهم
 الأولى .

وفي آخر الأمر ، وجد المدققون أن عدداً غير قليل من الأطفال ،
 لا يتمكنون من السير في الدراسة سيراً مطرداً بسرعة أقرانهم ، بل
 يتخلفون عنهم بسبب أحوالهم الصحية وضآلتهم البدنية ؛ فأخذوا يؤسسون
 معاهد خاصة بهم ، معاهد تجمع بين أوصاف المستشفيات وأوصاف
 المدارس ، بقصد تعليمهم وتربيتهم ، مع ملاحظة صحتهم وملاحظة دقيقة
 والسعى وراء شفائهم بصورة متواصلة

— ٢ —

بينما كانت معاهد التربية والتعليم تزايد وتنوع وتتوسع بالصورة
 الآتفة الذكر ، أخذت طرق التدريس والتربية فيها تتنوع وتتطور
 وتتكامل بصورة سريعة ؛ فقد وضعت أسس هذه الطرق في القسم
 الأول من القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تصل إلى درجة النضوج
 إلا في القرن العشرين

وقد تولدت حول كل نوع من أنواع هذه المعاهد — منذ تأسيسها
 نزعات وتيارات مختلفة ؛ وأخذت هذه النزعات والتيارات يصطدم
 بعضها ببعض ، وتنتشر من معهد إلى آخر ، ومن مملكة إلى أخرى ،
 وتتطور بحسب أحوال المعاهد والممالك التي انتقلت إليها ، ثم ، قد انعكس
 وتعود إلى المعاهد والممالك التي نشأت منها ، بعد تغيرات وتطورات كبيرة

وهكذا تفاعلت وتشابكت التيارات والنزعات المختلفة مراراً ، فأصبح من المتعسر الإحاطة بها كلها إحاطة تامة ، وكذلك من المشكل تعيين منابعها الأصلية وتعقب مجاريها الأساسية بصورة قطعية

مع هذا يمكننا أن نقول ، إن هذه التطورات حدثت بتأثير عاملين أساسيين : توسع التدقيقات النفسية من جهة ، وتطور وجهات النظر الاجتماعية من جهة أخرى

أما أهم المراحل التي قطعناها « أصول التربية والتعليم » منذ أوائل القرن التاسع عشر ، تحت تأثير هذين العاملين الأساسيين ، فيمكن أن نلخص في المبادئ التالية :

أ — إن المعرفة الحقيقية لا تتكون إلا بواسطة الحواس ، فيجب أن نستفيد من الحواس ، ونستند عليها في التعليم : فبدأ « التعليم بالتحسيس والتحديث » يجب أن يكون أهم مبادئنا في التدريس

ب — لكن الحاسة الواحدة لا تكفي لتكوين معارف تامة راسخة ، فيجب أن نشرك الحواس المختلفة في تكوين المعلومات ، وأن نستفيد خاصة من الحاسة العضلية في هذا الشأن . فلمس الشيء بعد مشاهدته يقوى علمنا به ؛ كما أن رسمه بعد لمسه ومشاهدته يزيد فينا هذه القوة درجة أخرى ؛ أما صنعه — وعمل نموذجه — فيكون أكبر قوة لدينا في هذا الباب . فلذلك يجب أن نسعى في توليد الانطباعات من جهة ، وفي حمل الطلاب على الإفصاح عن هذه الانطباعات بالرسم والأعمال اليدوية من جهة أخرى . فبدأ « التعليم باليد » أو « التعليم بالتشغيل » يجب أن يكون من أهم وسائلنا

✓ (ج) - إن التعليم ، لا يجدى نفعاً إن لم يكن مقروناً بتفكير ذاتي فالقوائد المطلوبة منه لا تحصل إلا بحمل الطلاب على المشاهدة والمقارنة والمحاكاة والتجربة والاستدلال . فبدأ « التعليم بالتكشيف » يجب أن يعتبر من أنجع الطرق في التدريس

(د) - إن التربية ، ما هي إلا عمل تنظيمي ، يستهدف التأثير في الانكشاف الطبيعي ، البدني منه والذهني والخلقي^٢ - أما التعليم ، فليس إلا واسطة من الوسائط التي تستعمل في هذا السبيل ؛ فلا يجوز أن يعتبر الواسطة الوحيدة ، ولا أهم الوسائط . فعلى كل مدرسة أن تلاحظ هذا المبدأ ملاحظة مستمرة ، مهما كان نوعها وغايتها

✓ (هـ) - إن انتباه الطالب في الدرس وافتكاره في خلاله ، يكون متناسباً مع ولوعه بموضوعه . فيجب أن نستعين بقوة الولوع ، وأن نسمى لتوليده حول مادة الدرس ؛ وأن نربط الدروس المختلفة بعضها ببعض حول أفكار مركزية يكون كل منها بنوبته مداراً للإبلاغ

(و) - ولكن الإبلاغ ، لا يجوز أن يكون مصطنعاً ؛ لأن الولع لا يجدى نفعاً حقيقياً إن كان مستحدثاً . هذا ، ولا حاجة إلى التكلف في هذا الباب ؛ لأن الأطفال والشبان يولعون بأمر مختلف بصورة طبيعية ، ويتطور ولعهم هذا بتطور أعمارهم وتقدم معنوياتهم . فيجب علينا أن ندرس نوااميس تطور الولوع درساً وافياً ، وأن نستفيد من أنواع الولوع التي تتولد بصورة طبيعية ، في خلال هذا التطور المستمر

✓ (ز) - وكذلك التكشيف ، لا يجوز أن يكون مصطنعاً ولا جبرياً ، مقترناً بمساعدة كبيرة من المعلم أو مداخلة دائمية منه ؛ بل يجب أن

يكون حقيقياً وطبيعياً ، ناتجاً من ميل باطنى وسعى ذاتى فعلى . فيجب علينا أن نضع الطلاب فى بيئة تحملهم على اكتشاف الحقائق وإيجاد الأشياء والأشكال ، بطرق تشبه الطرق التى سار عليها الإنسان فى اكتشافاته الأصلية

✓ (ح) - لقد خرج علم النفس من الطور الكلامى والاختيارى ، ودخل فى الطور الاستقرائى التجريبي ، فصار يستند على المشاهدات والتجارب مثل سائر العلوم الطبيعية . فيجب علينا أن نؤسس فن التربية والتعليم على مكتسبات هذا العلم الحديث ، كما أنه يجب علينا ألا نعتمد - فى تنفيذ أو تثبيت طرق التعليم - على المحاكات الذهنية الصرفة ، والاختبارات السطحية العامة ، بل يجب علينا أن نعرض تلك الطرق على الفحص العلمى التجريبي

(ط) - هذا وقد برهنت التجارب والملاحظات على أن قسمة كل فرد من الأطفال والشبان تمتاز عن نفسية أمثاله بأوصاف وقابليات خاصة ، فيجب علينا أن نضع هذه الفروق الفطرية نصب أعيننا فى أعمالنا التربوية ، وأن نبحث عن طرق وخطط موافقة لتعليم كل فرد وفقاً لقابليته الخاصة

✓ (ى) - إن الإرادة والشخصية والسجية هى أهم مميزات الإنسان ، وأنجع وسائل النجاح فى كفاح الحياة ؛ فتقوية هذه الخصال يجب أن تكون من أهم أغراض التربية ، كما يجب أن تتفوق على جميع مقتضيات التعليم

✓ (ك) - إن واجب المدرسة الأصلى ، هو إعداد الطفل والشاب

للحياة الحقيقية ، وبما أن نزعة الحرية والاستقلال أصبحت من أهم النزعات الحاكمة في الحياة الاجتماعية ، يجب أن تكون في الوقت نفسه ، من أهم المرامي في التربية . فعلياً أن نسعى لتربية حرة استقلالية

(ل) — مع هذا ، يجب ألا ننسى أن العصر الذي نعيش فيه ، يتميز عما سلفه بالتنظيمات الاجتماعية والنزعات التضامنية ، فيجب علينا أن نحدث في المدارس بيئات اجتماعية حقيقية ، ليعود الطلاب فيها التعاون في الأعمال ، ويمرنوا على أنواع الفعالية الاجتماعية ، مثل تأليف الجمعيات وإجراء التصويت والانتخابات

(م) — إن حياة المدن قد أخذت تبعد الأطفال عن الطبيعة ، ويحرمهم من تربيتها ؛ فكما تكاثفت النفوس في المدن ، ازداد هذا الحرمان وذلك التباعد بقياس واسع ، فأصبح أطفال المدن محرومين من الهواء النقي من جهة ، وبعيدين عن معظم مشاهد الطبيعة من جهة أخرى ؛ ولا حاجة إلى إثبات أن الحرمان من الهواء النقي يؤدي إلى النحافة والهزال ، كما أن قلة المشاهدات الطبيعية تستوجب الحرمان من أنواع الولوج التي تتولد من مثل هذه المشاهدات . فيجب أن نسعى لتلافي هذه الأضرار المادية والمعنوية بواسطة المدارس : فلنبعد المدارس عن المدن ، ولننقو علاقة الطلاب بالطبيعة ؛ ولنؤسس بعض المدارس في الهواء الطلق تماماً ؛ ولنرسل الأطفال والشبان إلى الأرياف والجبال أحياناً ، ولنضطرمهم — ولو بصورة مؤقتة — إلى عيشة بدوية وطبيعية تماماً

(ن) — إن انتشار الآلات أدى إلى اندراس الحرف البيتية ، وهذا الاندراس سلب العائلة أهم وسائلها التربوية . لأن تلك

الحرف ، كانت تعلم الأطفال كثيراً من الأشياء ، وعمرهم على عدد غير قليل من الأعمال ، وتقيدهم بذلك إفادة كبيرة ، من الوجهتين العلمية والخلقية . فيجب علينا أن نتلافى ما خسرناه من الأعمال اليدوية في المدارس ، ونجعل بعضها مماثلة للحرف المنزلية للمدرسة

(س) — إن الحياة المدرسية الاعتيادية ، والفعالية الاجتماعية الاقتصادية أخذت تبعد الأطفال والشبان عن الحياة الحقيقية ، ولا سيما الحياة العائلية . وبما أن للحياة العائلية تأثيراً مهماً في انكشاف القابليات ، فيجب على المدرسة أن تتلافى الأمر ، وألا تتباعد عن الحياة العائلية ، ولا سيما متى كانت داخلية ولبيلية .

هذه هي أهم المبادئ التي ولدت أهم النزعات في أصول التربية والتعليم ، منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى الآن .

ولا حاجة إلى بيان أن تطبيق وتحقيق كل واحد منها لكل نوع من أنواع معاهد التربية والتعليم قد استوجب أبحاثاً وتجارب كثيرة ، وولد طرقاً وأساليب عديدة ، كما أن تعميمها في المدارس قد استوجب مساعى ومجاهدات كثيرة ، ومع كل ذلك نجد أن بعضها ما زال تحت التجربة والبحث ، كما أن عدداً غير قليل منها بعيد عن التعمم .

ذلك لأن قسماً من هذه المبادئ يعارض بعضها بعضاً ؛ فكل واحد منها يحدد الآخر ويعدله بطبيعة الحال . فبدأ الحرية في التربية مثلاً يتضارب مع مبدأ الاجتماعية ، فلا يمكن أن يتحقق المبدأان إلا ويكون أحدهما حداً مانعاً للآخر .

كما أن كثيراً من هذه المبادئ يتعارض مع الضرورات الاجتماعية والاقتصادية ؛ فضرورة تعلم الفرد حسب قابلياته الخاصة - مثلاً - تتعارض مع ضرورة التعلم المشترك . فالطرق العملية في هذا الباب مضطرة إلى التأليف بين تلك الضرورة النفسية وبين هذه الضرورة الاجتماعية .

هذا وإن كل مبدأ عندما يتم في المدارس ويتأسس فيها يأخذ في مقاومة المبادئ الجديدة التي تنكشف وتتكوّن بعده . ولذلك نرى الطرق والأساليب الحديثة تنبع من المعاهد الحديثة ، وتعم فيها قبل أن تتمكن من النفوذ إلى القديمة منها

وهذا هو السبب في أن المدارس الابتدائية فتحت أبوابها لطرق التربية العلمية قبل المدارس الثانوية ، كما أن حدائق الأطفال صارت منبعاً ومجلاً للمبادئ الحديثة قبل المدارس الابتدائية ، وكذلك المدارس الخاصة به لم لم الأغنياء من الأطفال صارت منبعاً خاصاً لاكتشاف طرق حديثة وناجعة في تربية الأذكى .

أما المدارس التي تمكنت من تطبيق هذه المبادئ بدون تساهل كبير ، فهي التي تسمى « بالمدارس الحديثة » أو « المدارس الفعالة » التي يؤسسها المتجددون من المربين بعيدة عن المدن ، مستندة إلى مالية كبيرة ، فإن هذه المدارس تسير سيراً مطرداً على مبدأ (المدرسة لأجل الحياة) ، وتعتقد اعتقاداً جازماً أن (لا سبيل إلى التربية الحقيقية غير سبيل الحياة) ، وتقول فعلاً - بكل قواها وبكل أعمالها - (التربية من الحياة وللحياة) ، وبذلك أصبحت بمثابة (مختبرات اجتماعية وتربوية)

تسمى لاكتشاف أحسن الأساليب في التربية والتعليم ، وتجربتها
فعلاً تجربة دقيقة وعلمية . فصارت منبعاً فياضاً ، يغذى وينير جميع
معاهد التربية والتعليم .

— ٣ —

حصرنا أبحاثنا الآتية في عرض التيارات الأساسية ، وشرح
المبادئ العامة المتعلقة بالتربية والتعليم ، دون أن نشير إلى أسماء العطاء
الذين وضعوا تلك المبادئ وجاهدوا في سبيل تلك التيارات ، ولا إلى أسماء
الأمم التي تتشرف بهم وتفتخر بأعمالهم
أما وقد انتهينا من هذه الأبحاث ، فقد بقي علينا أن نلقى نظرة
عامة على حصة الفخر التي تصيبها كل أمة من الأمم ، على تقدم « فن التربية
والتعليم » وتطوره

إن الآراء التربوية لم تنحصر في مملكة من الممالك ، بل تنتقل
من مملكة إلى أخرى ؛ حتى إننا نراها في بعض الأحيان تجد في تلك
الممالك ساحة تطبيق أرحب من المملكة التي نشأت فيها ؛ ولا سيما
في هذا العصر الذي أخذت الأمم فيه تتعاون في المسائل الفكرية بصورة
فعلية ومستمرة ، بالمؤتمرات المؤقتة أو الجمعيات الدائمة ، فأسست « الديوان
الأممي للتربية » ، و « الاتحاد الأممي للتربية الحديثة » وبذلك أصبح فن
التربية من الفنون العالمية التي يتعاون في سبيلها جميع المفكرين
من جميع الأمم

مع هذا كله ، يمكننا أن نميز الحصص البارزة التي تعود إلى كل

أمة ، كما يأتي :

لا شك في أن الأمة السويسرية الصغيرة أحق بالتفاخر في هذا الباب من جميع الأمم . لأنها مولد « جان جاك روسو » J. J. Rousseau الذي كان أكبر محرك في عالم التفكير التربوي ، « وبستالوزي » Pestalozzi (١٧٤٦ - ١٨٢٧) الذي يعتبر بالإجماع الواضع الأول للتعليم العام الحديث . كما أنها من أسبق الأمم إلى التهاك على تلقى الطرق الحديثة وتطبيقها . فهذه المملكة الصغيرة هي الآن مركز لمعظم جمعيات التربية الأومية ، ومقر لأهم مدارس التربية الأومية في القارة الأوروبية أما ألمانيا فلها الفخر في تأسيس التربية على أسس علمية منظمة بفضل « هربارت » Herbart (١٧٧٦ - ١٨٤١) الذي ظل قدوة التربية العلمية في أوربة وأمريكا أكثر من نصف قرن ، و « فروبل » Froebel (١٧٨٢ - ١٨٥٢) الذي أحرز شرف تأسيس حدائق الأطفال وتعيين طرقها ، كما أنها كانت أسبق الأمم إلى تأسيس مدارس الهواء الطلق . وهي لا تزال أشد الأمم الأوروبية اهتماماً بالتربية والتعليم ، وأقواها تأثيراً على تيارات التربية العالمية . وتفتخر الآن بمربيها الكبير « كرسنستاينر » Kerschensteiner الذي أوجد طريقة « مدارس العمل » Arbeitschule .

وقد أثرت السويد أيضاً على التربية والتعليم تأثيراً عظيماً عالمياً بفضل « لينغ » Ling (١٧٧٦ - ١٨٣٩) الذي أسس الرياضة البدنية على أسس علمية ، وبفضل أعمالها اليدوية المسماة بالسويد Sloide التي كانت أم الأعمال اليدوية التي عمت في جميع مدارس العالم . فهي

مرجع محترم ومنبع فياض لمعلمي الرياضة البدنية والأعمال اليدوية
في كل القارة الأوروبية

إن بلجيكا أخذت تؤثر تأثيراً عالمياً بفضل « دكرولي » Decroly
الذي ابتكر أنجع الطرق العلمية في تربية البُله ، ثم أخذ يطبقها على
تربية الأذكاء . كما أن إيطاليا أصبحت ذات تأثير عالمي بفضل
« مونتسوري » Montessori التي أوجدت انقلاباً مهماً في طرق تربية
الصغار ؛ وأخذت تطبق تلك الطرق على تربية أطفال المدارس أيضاً .
وكذلك النمسا الألمانية ، أخذت تؤثر على آراء المربين تأثيراً مهماً
بفضل « فرويد » Fröed الذي أوجد طريقة « التحليل النفسي »
أما انكلترا ، فإنها خدمت التربية خدمة عظيمة بنشر « السبور » ،
وبإحداث حركة المدارس الحديثة بفضل « سيسل ردي » Cecile Reddi
وحركة الكشفية بفضل « بادن باول »

وامتازت فرنسا بتجربة التعليم اللاديني للأخلاق في المدارس ،
ولكنها لم تتمكن من التأثير على التيارات العالمية تأثيراً محسوساً
في هذا الباب . ومع هذا ، ابتدعت أبجدية العميان بفضل
« براي » Braille (١٨٠٩ - ١٨٥٢) تلك الأبجدية التي انتشرت
في جميع أنحاء العالم . كما أنها ابتكرت طريقة « قياس الذكاء » بفضل
« آلفردينه » A. Binet تلك الطريقة التي أصبحت من أهم وسائل
الفحص في أيدي المربين ، فأدخلت التربية في طور جديد ، لم نشاهد
بعد إلا فجرها

لكنه ، إذا حق لفرنسا أن تفتخر بابتكار هذه الطريقة ، فيحق

لأمريكا أن تفتخر بتقدير أهميتها قبل سائر الممالك ، حتى قبل فرنسا نفسها ، وبالإقدام على توسيعها وتطبيقها بمقياس واسع في جميع صفحات التربية والتعليم . كما أنه يحق لها أن تفاخر بالوسائط المادية والمالية العظيمة التي تضعها بين أيدي الباحثين في سبيل التربية الحديثة ، وبالنجاح الذي صارت تحوزه بتحقيق كثير من الأمنى التربوية التي كانت تظهر في القارة الأوروبية كطامح خيالية غير قابلة للتحقيق . وأخيراً تفتخر بالمرءى الكبير «جون ديوى» J. Dewey الذي عرف أن يؤلف بين الفلسفة والعمل ، وأصبح من أكبر الثقات في عالم التربية والتعليم وقد أصبحت المملكة المتحدة الأمريكية الآن غاصة بمعاهد التجربة التي لا تنحجم عن التضحيات اللازمة معها كانت كبيرة ، وتقدم على التجربة والتحقيق بجرأة أمريكية



من حقائق الأطفال

إلى دور الصغار

نظرة إجمالية

- ١ -

إن دور الطفولة الأولى الذى يمتد حتى انتهاء السادسة من العمر هو من أشد أدوار الحياة تأثيراً على نفسية الإنسان : فقد دلت التحليلات والتدقيقات النفسية على أن انطباعات هذا الدور تبقى مؤثرة فى الحياة اللاشعورية وتعمل عملاً مهماً فى تكوين المزاج العقلى والسجية المعنوية التى تظهر فى دور السكولة . ولذا كان من الضرورى أن يعتنى بتربية الأطفال فى هذا الدور من الحياة ، اعتناء جدياً

ومع هذا ظلت هذه التربية تابعة للتقاليد والاتفاقات ، بعيدة عن كل ترتيب مبحوث مقصود حتى القرن الأخير : فالصغار من الأطفال كانوا ينشأون فى أحضان أمهاتهم وحراسة داداتهم ، ومعاشرتهم فى البيوت والأزقة والميادين ؛ ونشأتهم هذه كانت نشأة تتقاذفها أحكام التقاليد الاجتماعية من جهة ، وتأثيرات الاتفاقات العرضية من جهة أخرى ، بدون أن يصيبها أى حظ من التنظيم المعقول والترتيب المقصود ...

وقد أخذ بعض المفكرين يتأملون في هذا الأمر ويكتبون بعض الإرشادات إلى الأمهات منذ القرن السابع عشر . ويعود شرف الابتداء في هذا الباب إلى المفكر السلافي كومنيوس Comenius الذي يعتبر من أقدم مبشرى التربية الحاضرة (١٥٩٢ - ١٦٧١) . وقد قسم هذا المفكر الحياة التي يجب أن يقضيها الإنسان إلى أن يتمكن من اتخاذ مهنة حرة ، إلى أربعة أقسام متساوية ، اعتبر كلاً منها مؤلفاً من ست سنين . وقال بوجوب تهيئة مدرسة خاصة وتربية خاصة لكل من هذه الأدوار الأربعة . وسمى المدرسة المختصة بالدور الأول بـ « مدرسة الأم » وكتب كتاباً عن « التعليم في حضن الأمهات » ؛ وقال إن هذه المدرسة يجب أن تجعل هدفها تمرين الحواس ، وتمييز الأشياء المحيطة ، وتنمية الخيال ، وتقوية الحافظة

وقد شعرت الأم المختلفة ، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، بالحاجة الماسة إلى تأسيس معاهد خاصة لإيواء الأطفال الصغار - من الأيتام واللقطاء في بادئ الأمر ، ومن أولاد العمال والعمالات بعد ذلك - ولما زاد عدد هذه المعاهد وأنواعها في أوائل القرن التاسع عشر ، أخذ بعض أصحاب الخير والعمل يفكرون في أمر هؤلاء الأطفال ، ويبحثون عن أنجح الوسائل لتربيتهم وتنشئتهم في تلك المعاهد . وقد قام « أوغن Owen في اسكتلندة (١٨١٦) ، ومدام باستوريه Pastoret في فرنسا (١٨٢٦) ، وآپورتى Aporti في إيطاليا (١٨٢٧) بتجارب مهمة ، وبدلوا مساعي عظيمة في هذا الباب . إلا أنهم لم يوفقوا لإيجاد الأساليب الملائمة لتقابليات الطفولة الأولى وحاجاتها ؛ فلم تخرج هذه المعاهد من حالة « الملاحىء »

إلا اصطفت بصيغة « المدارس » ، ولم تثمر لذلك الثمرات المنتظرة منها .
 كانت تلك المعاهد في حاجة إلى أشكال ملائمة لنفسيات الصغار ،
 وأساليب موافقة لحاجاتهم ؛ وفي حاجة إلى أشكال وأساليب خاصة
 تخرجها من حالة « الملاهي » دون أن تحولها إلى « مدارس »
 وكان شرف إيجاد هذه الأشكال والأساليب ، وشرف تأسيس تربية
 الطفولة الأولى على أسس متينة يعود بلا جدال إلى المربي الألماني
 « فروبل » (١٧٨٢ - ١٨٥٢)

- ٢ -

تقلب فروبل Froebel في أوائل حياته في مهن مختلفة ؛ فصار معارفاً
 ثم موظفاً في دائرة التملك - الطابو - ثم في الأجراس ، فأموراً في متحف
 المعادن . ولكنه تعرف ذات يوم لأحد مریدی بستاويزي ، وولع
 بخططه وآرائه ، وذهب إلى إيفردون مرتين لملاقاته ، وقد قضى في المرة
 الثانية سنتين من حياته بجانبه ... ثم قرر التفرغ للتربية والتعليم ، فأخذ
 يدرس من جهة ، ويكتب في التربية من جهة أخرى :

وقد أبحر ذهن فروبل - بصورة خاصة - نحو تربية الصغار الذين
 تتراوح أعمارهم بين الثالثة والسادسة من العمر ؛ وتصور سنة ١٨٣٦
 طريقة خاصة لهذه التربية . ثم ابتكر سنة ١٨٤٠ اسماً جديداً للمعاهد
 التي ستسير على هذه الطريقة . فهذه المعاهد يجب أن تشبه الحدائق ،
 لينشأ الأطفال فيها ، كما تنشأ النباتات والأزهار في الرياض ، فيحسن
 أن تسمى باسم « كيندرغارتن » Kindergarten أي « حديقة الأطفال »

وقد افتتح فروبل رسمياً أولى الحدائق التي أسسها ، في اليوم التاسع عشر من شهر شباط (فبراير) ١٨٤٠ ، في نفس اليوم الذي كانت تحتفل ألمانيا بأجمعها فيه بمرور ثلاثمائة عام على اختراع الطباعة

إن حدائق الأطفال - في نظر فروبل - يجب ألا تشبه المدارس بوجه من الوجوه : فالكتب والدروس الاعتيادية ، يجب ألا تدخلها ألبتة ؛ لأن الاشتغال بالقراءة لا يجوز أن يبدأ قبل السابعة من العمر . إن أهم الغرائز التي تظهر عند الأطفال الصغار هي : غريزة الحركة واللعب ، وغريزة الاستطلاع بالحواس وخاصة باللماسة . فيجب علينا أن نجعل حديقة الأطفال بيئة صالحة لتنظيم هذه الغرائز ، والاستفادة منها . وأهم وسائط النمو عند الصغار هي الألعاب ، فإن ألعاب الأطفال هي البراعم التي تتولد منها حياة الرجال . فينبغي أن نشغلهم بألعاب مختلفة متنوعة موافقة لميولهم ، صالحة لتنمية حواسهم وتدريب أيادهم ، وإظهار قواهم ، وتعويدهم العمل والابتكار

وقد تعمق فروبل في هذا المبدأ ، ووفق لإيجاد مجموعة بحيرة من التمارين والأشغال والألعاب الجذابة يرمى كل منها إلى تنمية بعض الحواس ، وتقوية بعض القابليات

وقد قسم هذه الأشغال والتمارين إلى أربعة أقسام أصلية : (أ) ألعاب رياضية مقترنة بأناشيد وألحان ، تقليداً وتمثيلاً لأعمال أصحاب الحرف ، أو لحياة بعض الحيوانات ، أو لبعض المشاهد الطبيعية (ب) أشغال وتمارين يدوية بوسائط مختلفة ، من خشبات وعيدان وحلقات ، وورق وشرائط ورمل وصلصال (ج) - محادثات وقصص بسيطة مقترنة

بأشعار وأناشيد (د) - أشغال في الحديقة الحقيقية ، أى زراعة النباتات والأزهار في البستان

ووضع سلسلة كبيرة من الوسائط والتمارين لسكل منها ؛ وزاد فأوجد مجموعة كبيرة من الوسائط المادية للأعمال اليدوية وقد سعى فروبل طيلة حياته لتعميم آرائه وتطبيق خططه بكل ما لديه من قوة ونشاط ؛ وأخذ ينشر لهذا الغرض مجلة تربوية ، جعل شعارها الكلمة الآتية : « تعالوا ، نعش لأجل أولادنا »

واتفق له أن تعرف في أواخر حياته إلى امرأة غنية نشيطة ، وهى مدام لاپارون مارنهولتز Marenholtz فأعجبت بأعماله كل الإعجاب ، وولعت بآرائه كل الولوع ، فقررت أن تنفق كل ما لديها من قوة ووقت ونقد لبث الدعاية لحداثق الأطفال ، وأخذت تنتقل - بعد وفاة فروبل - من بلد إلى بلد تسعى لبث فكرة هذه التربية الجديدة بين كل الطبقات من الملوك والأمراء ، إلى المحررين والفلاحين . وساحت في ألمانيا والنمسا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وسويسرا ، مبشرة في كل منها بإنجيل فروبل حسب تعبير الأديب الفرنسي الشهير « ميشله »

لقد أثمرت هذه الدعاية ثمرات سريعة ، وعمت حدائق الأطفال في كل البلاد المتمدنة بسرعة لا مثيل لها في تاريخ التربية ، وأصبحت هذه المعاهد قبل انتهاء القرن التاسع عشر عنصراً مهماً من عناصر التربية العامة .

إن حدائق الأطفال لم تخرج من رأس فروبل إلى عالم الوجود بحالة

بذرة أو جنين ، حتى ولا بحالة طفل أو صبي ؛ بل خرجت في حالة أقرب إلى السكولة منها إلى الطفولة ، مجهزة بكل القوى والأعضاء والآلات .

وذلك لأن فروبل كان قد فكر في كل شيء ورتب كل شيء ، ووضع دساتير وأساليب ومبادئ لكل شيء .

وكان هذا النظام الشامل والترتيب الكامل من جملة الأسباب التي سهلت انتشار طريقة فروبل بسرعة كبيرة ، لكنه صار فيما بعد من جملة الأسباب التي أدت إلى جمود أساليب التربية في حدائق الأطفال .

كان فروبل يرمى بكل تمرين من التمارين وكل لعب من الألعاب إلى غاية مهمة ، وكان يقول إن الأصل المهم في طريقته ليس هو الوسائط ولا التمارين ، بل هو كيفية استعمال الوسائط ، ونمط إجراء التمارين ، والغاية المقصودة من وراء هذه الوسائط والتمارين . ولثقل فروبل ما يشاء ، فإن الأمور جرت - بطبيعة الحال - على منوال مخالف لما شاء : إن تعميم حدائق الأطفال وتزايدها أدى إلى استخدام عشرات الألوف من المعلمات ؛ وكان أمام كل منهن وسائط مادية عديدة ودساتير جاهزة ؛ وكان من الطبيعي أن يكون عدد اللواتي يقتدين منهن بالماديات أكثر من عدد اللاتي يلاحظن المعنويات . وهذا ما أدى إلى نسيان الغايات الأصلية والمعنوية من التمارين الفروبلية والأخذ بطرقها الآلية ، وهذا ما سبب تأخر حدائق الأطفال عوضاً عن تقدمها : فصارت هذه الحدائق

تحمّل الأطفال على القيام بأعمال مختلفة بدون ملاحظة النتائج النفسية التي تنجم عنها .

ولكن ... نزعة التربية الحرة التلقائية كانت أخذت تزداد وتشتد — في الربع الأخير من القرن الأخير — بصورة فعلية ، حتى في المدارس الابتدائية . فكان من الطبيعي أن تأخذ حدائق الأطفال أيضاً نصيبها من هذه النزعة .

اشتدت حركة تجديد حدائق الأطفال وإصلاحها بصورة خاصة في أوائل هذا القرن ، إذ أخذ المربون والمربيات يرجعون إلى مبادئ فروبل ، ويقولون بوجوب الاعتناء بهذه المبادئ أكثر من التمسك بالأساليب الآلية ، ويقومون بإصلاحات وتعديلات عديدة وفقاً لتلك المبادئ .

ولكن لماذا نضيع أوقاتنا بإصلاحات جزئية كهذه ؟ أليس الأجدر بنا أن نوجه أنظارنا إلى الجوهر والأساس ؟ ألم يكن من الأوفق لنا أن نترك تلك الأساليب بأجمعها ، ونختار أسلوباً جديداً يوافق ما وصل إليه علمنا الحديث عن قوانين نفسيات الأطفال ؟

هذه هي أساس الحركة التي أوجدتها الطيببة « ماريا مونتسوري » Montessori في إيطاليا ، تلك الحركة التي قلبت أساليب تربية الصغار رأساً على عقب .

إن الطريقة التي ابتدعتها مونتسوري هي في الحقيقة محصلة تيارين

مهمين ، كان كل منهما قد أخذ يعمل عمله في عالم التربية والتعليم ، بشدة مستمرة ومتزايدة منذ قرن فأكثر :

إن تطبيق « مبدأ الحرية » على إطلاقها في أمور التربية كان قد ولد مذهباً خاصاً عرف باسم « مذهب التربية السلبية » وفيه أن وظيفة المربي وظيفة سلبية بحتة ، لا تسوغ له المداخلة في أعمال الطفل بصورة من الصور .

كان « روسو » من مؤسسي هذا المذهب في القرن الثامن عشر ، وصار « تولستوي » Tolstoi من أشد مروجيه في القرن التاسع عشر . فقد أسس الحكيم الروسي في « ياسنايا بوليانا » مدرسة حرة على هذا الأساس حاول فيها تطبيق نظرية الحرية المطلقة والتربية السلبية تطبيقاً تاماً .

وقد تمثلت هذه النزعة ببلاغة شديدة في كتابات « ألن كي » Ellen Key في أوائل القرن الحالى : فإن هذه المحررة السويدية حملت حملات عنيفة على المدارس ، وعلى الأخص حدائق الأطفال ، وصارت تقول رداً على ما كان يقوله فروبل — « فلنترك أطفالنا يعيشون ... »

لنرفع القيود ، لنبتعد عن المداخلة ، لنترك الأطفال يديرون أنفسهم بأنفسهم ، ويربون أنفسهم بأنفسهم بدون أن نتدخل في شؤونهم ... ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ كيف يمكننا أن نعلمهم ، وكيف يمكننا أن نربيهم إذا لم نتدخل في شؤونهم بصورة من الصور ؟

إن الجواب العملي على هذا السؤال كان قد تمهاً بنتيجة سلسلة أخرى من الساعى والجهود :

كان قد وجد في أوائل القرن الأخير في إحدى غابات (آفيرون) في فرنسا طفل وحشي ، يظهر أنه كان قد ضاع من أهله منذ سنين طويلة ، ومع هذا تمكن أن يعيش عيشة طبيعية طول هذه المدة . كان لا يتكلم ولا يتفكر ولا يمتاز عن البهائم في شيء ، مع أنه كان قد بلغ الثانية عشرة من العمر ، حسب تقدير الأطباء . إن العثور على طفل كهذا ، كان فرصة ثمينة لدرس بعض المسائل المتعلقة بنشوء العقل والمنطق عند الإنسان ، فقد تفرغ أحد الأطباء وهو « إيتار » Itard (١٧٧٥ — ١٨٣٨) لتربية هذا الولد وبحث أحواله . كان الولد ضعيف العقل وكليل الحواس ، فكان من الضروري إيجاد تمارين خاصة لتقوية كل حاسة من حواسه ، ولإيقاظ كل قابلية من قابلياته . واستمر « إيتار » على هذا العمل العصب ثمانين سنين متوالية بجهد عجيب ، ووضع بذلك أهم الأسس التي تضمن تربية البله .

وقد أعقبه الطبيب « سكين » Séguin في هذا المضمار ، فوسع الأسس المذكورة وأكملها ، وفتح ميداناً واسعاً لاشتغال المربين والأطباء .

إن تربية البله اضطرت المفكرين إلى سلوك خطة خاصة تخالف خطط التعليم المدرسي الاعتيادي مخالفة تامة : فهذه التربية لا يمكن أن تستند إلى الكتاب والكلام ، كما أنها لا يمكن أن تكون مشتركة إلبية ؛ فلا بد لهذه التربية أن تكون انفرادية . ولكن ، هل نستطيع أن نخصص مربياً واحداً لكل بليد ؟ أليس من الضروري أن تترك البعض منهم على حالهم ؟ وما دام الأمر كذلك ، ألا يمكننا

أن نعطيهم بعض وسائط وأشياء تمكنهم من الاشتغال وحدهم ، في حين أننا نشتغل مع غيرهم ؟

وقد أوجد الأطباء والمعلمون المشتغلون بمعالجة البله وترتيبهم في المستشفيات والمدارس الخاصة وسائط عديدة تضمن الوصول إلى هذه الغاية ضماناً باهراً .

ألا يمكننا أن ننقل هذه الوسائط إلى مدارس الأسوياء ؟ ألا يمكننا أن نوجد أمثاله لتربية الأذكيا ؟ هذا ما كان يتساءل عنه المربون منذ مدة غير قليلة ، وهذا ما سعى لحله الطبيب (دكرولى) في بلجيكا من جهة والطبيبة (موتسورى) في إيطاليا من جهة أخرى .

فقد أوجدت موتسورى مجموعة كاملة من الوسائط التشغيلية ، اعتقدت كفايتها لتربية الصغار بدون مداخل المربيين إذن يمكننا أن نتركهم أحراراً ، بعد أن نضع في بيئتهم تلك الوسائط فإنهم سيشتغلون بها حتماً ، وسيرون أنفسهم بأنفسهم خلال اشتغالهم هذا ؛ حتى الألفباء والقراءة ، فإنهم سيتعلمونها من تلقاء أنفسهم ، بدون أن يدرسوها علينا ...

وقد اختارت موتسورى اسماً جديداً للمعاهد التي تسير على هذا المبدأ ، فسمتها دور الصغار Casa dei Bambini (١٩٠٧)

إن هذه الطريقة جاءت موافقة لنزعة الحرية وأوجدت حركة مهمة في عالم التربية ؛ ونشطت حركة الإصلاح والتجديد في حدائق الأطفال تشييطاً كبيراً : فإن الذين كانوا يشعرون بحاجة إلى إصلاحات جدية ضمن مبادئ فروبل الأصلية صاروا يضاعفون جهودهم في هذا الباب .

كما أن مربدي الطريقة الجديدة أيضاً أخذوا يوسعونها ويهذبونها، وحاولوا
أن يضيفوا إليها ما يضمن كل المحسنات الموجودة في أساليب فروبل ،
بدون أن يتركوا مجالاً لتسرب شيء من المحاذير والنقائص التي في
تلك الأساليب

وبذلك حصل انقلاب مهم في تربية الصغار ، أخذ يشمل جميع
صفحات هذه التربية ... حتى بدأ يتسرب إلى التربية المدرسية



التعليم الاقتصاسي

والأساليب الافراية في التدريس

— ١ —

إن أهم الصفات التي تميز المدارس الحالية عن المدارس القديمة ، هو « نظام الصفوف أو الفصول » ؛ نعني بذلك ، النظام الذي يقضى بانقسام المدرسة إلى صفوف متتالية ، وتوزيع التلاميذ بين هذه الصفوف ، وانتقالهم من دنياها إلى عليها وفق ترتيب معين ونظام ثابت . يمكننا أن نقول : إن هذا النظام هو أساس المدارس العصرية بأجمعها ؛ فإذا ذكر أمامنا اليوم اسم « مدرسة » تصورنا حالاً عدة صفوف مختلفة ؛ وإذا قيل لنا « هذا تلميذ » تساءلنا حالاً « من أي صف هو » ؟

من المعلوم أن السكتاتيب والمدارس الدينية الاعتيادية ، لا تزال إلى الآن محرومة من هذا النظام : إذ أن التلاميذ فيها يجتمعون حول الفقهاء « الملالي » والمدرسين ، ويدرسون عليهم بدون ترتيب ، من غير أن يتقيدوا بشيء . يشبه ترتيبات الصفوف . وإذا بحثنا اليوم عن « تنظيم السكتاتيب أو مدارس الجوامع » قصدنا من ذلك ، قبل كل شيء ، إدخال « نظام الصفوف » فيها ...

إن هذا النظام الذي يتراءى لنا الآن من أهم عناصر « مفهوم المدرسة » ، لم يكن معلوماً في أوربة أيضاً ، قبل القرن السادس عشر .

إذ أن أول الذين فكروا فيه وحاولوا العمل بموجبه ، هم : أشتورم Sturm في اشتراز بورغ ، وبادول Baduel في تيم ، وكالوين Calvin في جنيف ، وكلهم من رجال القرن السادس عشر . قال « بادول » عند ما شرع في تطبيق هذه الفكرة : « لم يفكر المعلمون والعلماء إلى الآن في الترتيب الذي يجب أن تعلم به الآداب . إنهم خلطوا الكل ، وجعلوا التعليم مشتبكاً ومعتقداً ... إن هذه العادات السيئة ستقضى عن المدرسة الجديدة ؛ إذ أنها ستقسم إلى صفوف مختلفة ، حسب أعمار التلاميذ ودرجة تقدمهم ونشوتهم ... »

يظهر من ذلك جلياً ، أن تقسيم المدرسة والتلاميذ إلى صفوف مختلفة — على هذا المنوال — كان من البدع الحديثة عند ذاك . وإذا تتبعنا تاريخ المدارس منذ ذلك القرن ، علمنا أن هذه « البدعة » لم تستول على المدارس إلا بصورة تدريجية ، وبمرور زمن طويل ؛ فإن القسم الأعظم من المدارس التابعة للأديرة والكنائس ، في جميع الممالك الأوربية ، ظل خارجاً عن (نظام الصفوف) حتى خلال القرن الثامن عشر . أما تأسيس هذا النظام بصورة قطعية ، فلم يتيسر إلا في القرن التاسع عشر

— ٢ —

لا شك في أن (نظام الصفوف) كان من أهم المراحل في تاريخ تطور المدارس ، ومن أنجح الوسائل في نشر التعليم ؛ إذ أنه زاد في (نجاح) التدريس زيادة عظيمة ، وساعد بذلك على انتشار التعليم مساعدة كبرى

غير أن هذا النظام بالرغم من جميع فوائده لا يخلو من محاذير عديدة ، لا بد من ملاحظتها ، والاهتمام بمعالجتها :

إن الطلاب الذين يجتمعون في صف واحد لا يمكن أن يكونوا (متجانسين) بكل معنى الكلمة ؛ فتدريسهم مشتركاً ، حسب نظام الصفوف ، يصطدم بمشاكل عديدة ، لا سبيل إلى إزالتها بصورة قطعية ؛ فإن المعلم إذا سار في دروسه حسب قابلية الأذكياء من التلاميذ ، تباعد بذلك عن سوية الضعفاء ، وأضاع إمكان إفادتهم إفادة كافية ؛ وإذا سار حسب قابلية الضعفاء ، أدى ذلك إلى إملال الأذكياء من الدرس ، وحرمانهم من الاستفادة حرماناً كبيراً . أما إذا سار وفق قابلية متوسط الصف ، فإنه لا يتمكن من استثمار مواهب الأذكياء الذين هم فوق ذلك المتوسط استثماراً تاماً ؛ كما أنه يجهد قوة الضعفاء الذين هم دون ذلك المتوسط إجهاداً قد يكون مضرراً

لا ريب في أن الطريقة الأخيرة أفضل من الطريقتين السالفتين ؛ وإن محاذيرها أخف وأقل من محاذير تينك الطريقتين . ومع ذلك ، لا مجال للإنكار أن فيها أيضاً ما فيها من المحاذير التي لا يجوز إغضاء النظر عنها . إن سير التلاميذ في نظام الصفوف ، يشبه مشية رهط عسكري ؛ يطلب إلى جميع أفرادها أن يمشوا بسرعة متساوية ؛ ولا شك في أن هذه المشية تعتمد على (القدرة المتوسطة) فتتطلب من الضعفاء جهوداً فوق طاقتهم ، ومن الأقوياء عملاً دون مقدرتهم . ولا ريب في أن محاذير هذه الخطة تزداد ، كلما زاد الأفراد وكثرت الفروق الخاصة بهم وقل بذلك التجانس بينهم

إن التعليم العام والإلزامي ، أدى إلى زيادة هذه المحاذير ؛ لأنه حتم التحصيل الابتدائي على جميع الأطفال على حد سواء ، فأدى إلى ازدياد التنوع والفروق بين الذين يدرسون في مدرسة واحدة وصف واحد ؛ حتى إنه جمع اللاسويين والمؤوفين بالسويين والسليمين

إن محاذير هذا الجمع ظهرت للعيان بصورة سريعة وبارزة ، وحملت الحكومات على تفريق اللاسويين من أتراسهم ، وتعليمهم على حدة ، في مدارس أو صفوف خاصة

إلا أن هذه التدابير والترتيبات لا تسكني لإزالة المحاذير الناجمة عن نظام الصفوف ؛ لأن هذه المدارس والصفوف لا توجد إلا في المدن الكبيرة والمراكز المهمة ، فلا تفصل جميع اللاسويين من جميع المدارس . وزد على ذلك ، أن عملية (فصل اللاسويين) وحدها لا تسكني لداء المحاذير المسرودة آنفاً ، لأن الأطفال الأسوياء أيضاً لا يشبه بعضهم بعضاً ، من حيث الميول والقابليات العقلية

إن الأبحاث النفسية قضت قضاء مبرماً على النظرية القائلة بأن (نفس الطفل لوحة ملساء ، يستطيع المرء أن ينقش عليها ما يشاء كما يشاء) ، ولم تبق مجالاً للشك في أن (الفروق الشخصية والفردية) الموجودة بين الأطفال - من الوجهة النفسية - كبيرة وخطيرة ، وإنها لا تقل عن الفروق التي بينهم من الوجهة المادية . إن لكل طفل (سحنة نفسية) يمتاز بها عن غيره ، كما أن له (سحنة مادية) يختلف بها عن الآخرين

فبعضهم ينظر إلى الأشياء بنظرات تنزع إلى الجردات ، وبعضهم

يلاحظ الأمور بذهنية تنقيد بالحسوسات ؛ ويمتاز بعضهم بسرعة الحكم والانتقال ، وبعضهم بالتأني في الحكم والبطء في التفكير ؛ ويكون بعضهم معتدل المزاج ، وبعضهم سريع الانفعال ؛ وبعضهم يتأثر بالإحساسات البصرية بوجه خاص - فيكون (بصرى) الذاكرة والفكر - وبعضهم بالإحساسات السمعية بوجه خاص - فيكون (سمعى) التذكر والتفكير - وهكذا كل طفل يمتاز عن غيره ببعض الأوصاف والقابليات الخاصة

إن اكتشاف هذه (الفروق الفردية) بين الأطفال ، وضع أمام رجال التربية مسائل خطيرة

أليس من الضروري إذن أن نلاحظ هذه الفروق في التربية والتعليم ؟ هل يجوز أن نحاول تعليم جميع الأطفال على نفس الطريقة ، وأن نطلب إليهم أن يسيروا في التحصيل بنفس السرعة ؟ هل يسوغ لنا أن نقدم على (تصنيف الطلاب) حسب أعمارهم ودراساتهم ، بغض النظر عن سائر خصائصهم ؟ ألا يوجد شيء من المناقاة بين مقتضيات الفردية ، ونظام الصفوف الحالية ؟ ...

شعر كثير من العلماء بخطورة هذه المسائل الجوهرية ، منذ أمد غير قريب ؛ وقد انتقد الدكتور (كلاپارد) نظام الصفوف انتقاداً مراراً منذ أوائل القرن الحاضر ؛ واستحدث تعبيراً شيقاً للدلالة على الفكرة الجديدة ، وهذا التعبير هو (التعليم الاقتياسى) école sur mesure وأوضح كلاپارد المعنى الذى يرمى إليه هذا التعبير ، بتمثيل جذاب ؛ فقال : (إن الخياط يفصل الملابس على أبدان عملائه بعد اقتياس أقسامها

المختلفة . إنه لا يكسو أحداً منهم - مثلاً - لباساً ضيقاً على بدنه ، بحجة أن عرض هذا اللباس هو العرض الملائم لعمره أو قامته ، نظراً إلى متوسط أبعاد الأبدان . وكذلك الإسكاف ، عند ما يريد أن يصنع حذاء ، يرسم رجل الشخص على ورقة ، ويسعى لصنع الحذاء المطلوب وفق ذلك الرسم . إنه لا يهمل خصوصيات ذلك الرجل ، بل بعكس ذلك يلاحظ تلك الخصوصيات بانتباه ، حتى أنه يؤثر ويسجل جميع التشوهات التي قد يراها فيه . كما أن صانع القبعة أيضاً لا يكتفى بملاحظة أعمار عملائه ، بل يلاحظ شكل رؤوسهم وأبعادها ، بجميع خصوصياتها . أما المربي ، فيعكس ذلك ، يحاول أن يكسو جميع العقول على نمط واحد . إن مثله كمثل باعة الألبسة الجاهزة ؛ ليس لديه إلا ما هو مهياً لعموم الناس ؛ قد يكون على رفوف مخزنه بضعة أبعاد وأرقام مجهزة لأطوال مختلفة . إلا أنها لا يختلف بعضها عن بعض من حيث التفصيل ... لماذا لا نحيط الأذهان أيضاً بالعناية التي نحيط بها الأبدان والرؤوس والأرجل ؟ ...)

— ٣ —

انتشرت فكرة « التعليم الاقتياسي » منذ ذلك الحين بسرعة كبيرة ؛ إلا أن تطبيقها ظل يصطدم بمشاكل وموانع خطيرة . لأن هناك عدة حقائق متعارضة ، يجب على المربي أن يؤلف بينها للتقرب من الغاية المثلى ، وذلك :

(أ) - أن بين الأطفال فروقاً كثيرة ؛ فيجب مراعاة هذه الفروق في التربية ، والسعى وراء تعليم كل طفل وفق قابلياته الخاصة

(ب) - غير أنه لا مجال إلى تخصيص معلم لكل طفل ؛ فمن الضروري أن يعهد بأمر تعليم جماعة من الأطفال إلى معلم واحد . وهناك ضرورات اقتصادية تحول دون تخفيض عدد أفراد هذه الجماعات تخفيضاً كبيراً

(ج) - هذا ، وللحياة الاجتماعية أيضاً مطالب وضرورات يجب ملاحظتها والسعى وراء تأمينها ؛ فالفروق الفردية يجب ألا تنسى الروابط الاجتماعية . والتربية الفردانية يجب ألا تؤدي إلى إهمال الأعمال المعشورية . فما العمل إذن للتأليف بين هذه الحقائق المتعارضة ؟

لقد استحدث علماء التربية ورجال التعليم أساليب كثيرة متنوعة لدرء المحاذير الناجمة عن نظام الصفوف . ولعل أقدم هذه الأساليب هي الطريقة التي اتبعتها - منذ ربع قرن ونيف - مدينة « مانهايم » Manheim في ألمانيا ، وأحدثها هي الطريقة التي عملت بها مدينة « وينتكا » Winetka في أمريكا ، وجميع هذه الأساليب تنقسم إلى نوعين أساسيين :

(أ) - التي ترمي إلى درء المحاذير مع المحافظة على نظام الصفوف . من حيث الأساس

(ب) - التي ترمي إلى التخلص من تلك المحاذير بترك نظام الصفوف تركاً باتاً

فالأساليب التي من النوع الأول كثيرة ومتنوعة ، نخص منها بالذكر الأنظمة التالية : الصفوف المتوازية ، الصفوف المتحركة ، الدروس الاختيارية ، الدروس الإضافية

الصفوف المتوازية : — يفرز كل صف من الصفوف ثلاثة أقسام متوازية ، ويجمع في أحدها الضعفاء من الطلاب ، وفي ثانيها المتوسطون ، وفي ثالثها الأقوياء ؛ ثم يتخذ تدابير ملائمة لحاجات وقابليات كل قسم من هذه الأقسام ، من حيث منهج التدريس من جهة ، وطرق التعليم من جهة أخرى ؛ ويعنى بوجه خاص بصف الضعفاء إما بتطبيق منهج أخف من المنهج العام يلائم قابليتهم أكثر منه ؛ وإما بتقليل عددهم بالنسبة إلى عدد طلاب الصفين الآخرين ، لكي يتمكن المعلمون من الاهتمام بكل طالب على حدة بدرجة كافية ؛ وإما بالإكثار من استعمال وسائل الإيضاح ، وجعل التدريس أقل تجريداً وأكثر مشاهدة مما هو معتاد في صف الأقوياء والمتوسطين ، وقد تمزج هذه التدابير المختلفة ببعضها قصد الوصول إلى الغاية المتوخاة ، بأسرع الطرق وأنجعها

الصفوف المنحركة والمتميزة : — تعتبر الصفوف متحركة ومتحركة ،

فيسمح لكل طالب أن يتلقى دروسه في كل فرع من فروع الدراسة في الصف الذي يوافقه ، نظراً إلى مستواه وقابليته في ذلك الفرع بقطع النظر عن درجته في سائر الفروع ، فيستطيع الطالب أن يتقدم في درس إلى الصف الثالث مثلاً ، في حين أنه يكون في الصف الثاني من معظم

الدروس ، حتى وفي الصف الأول في بعض الدروس
 إن بعض المدارس تطبق هذا النظام بصورة جزئية ، أى في
 بعض الدروس دون غيرها .

نظام الاختيار : — تقسم مواد الدراسة إلى قسمين ، ويعتبر القسم
 الأول منها إلزامياً ، والقسم الثانى اختيارياً . يحصر القسم الإلزامى فيما هو
 « ضرورى » ؛ ويفسح بذلك أمام الطلاب مجال واسع لاختيار الدروس
 الموافقة لقابلياتهم

الدروس الإضافية : — يخصص ساعات أشغال إضافية لأجل
 الضعفاء تحت مراقبة معلمين إضافيين بقصد تمكينهم من الوصول إلى
 مستوى أترابهم بجهود أزيد من جهودهم . وكذلك يرتب دروس
 إضافية لأجل الأقوياء ، بقصد تغذية قابلياتهم ، وعدم إضاعة
 مواهبهم ، وتمكينهم بذلك من التعلم بمقياس أوسع من مقياس
 رفاقهم .

تكميل امتحانات الترفيع : — يقسم منهج دراسة كل صف من
 الصفوف إلى قسمين متساويين ، ويمتحن الطلاب عقب إكمال كل قسم
 على حدة ويرفعون حسب نتائج هذا الامتحان ؛ فتصبح امتحانات
 الترفيع أو النقل — بهذه الصورة — نصف سنوية ، وتقل من جراء ذلك
 محاذير الرسوب ؛ لأن الرسوب في الصف — في هذا النظام —
 لا يستلزم البقاء فيه أكثر من نصف سنة أخرى . وواضح أن ذلك
 مما يقلل محاذير الدراسة المشتركة

يظهر من التفصيلات السابقة أن روح هذه الأساليب تتلخص فيما يأتي : ترتيبات خاصة ، تسعى وراء زيادة تجانس الطلاب الذين يدرسون في صف واحد ؛ وتدابير متنوعة ، ترمى إلى الاهتمام بالمتأخرين اهتماماً خاصاً يساعدهم على الوصول إلى مستوى متوسط الصف ، وترتيبات خاصة تساعد على تقدم الأقوياء بسرعة أكبر ، أو على تعليمهم بمقياس أوسع وبصورة أعمق

ولاشك في أن هذه الترتيبات والتدابير المختلفة ، تخفف المحاذير الناجمة عن نظام الصفوف ؛ إلا أنها لا تزيلها بصورة قطعية . لأنها جميعها تحافظ على مبدأ « تقسيم التلاميذ إلى صفوف ، وترفيعهم في أوقات معينة ، ضمن ترتيب معين

ألا يمكن إحداث انقلاب جوهري وقطعي في نظام التدريس ، باستحداث أسلوب جديد يلغى نظام الصفوف إلغاء تاماً ؟

لقد أخذ علماء التربية يسعون وراء هذه الأمنية منذ عشرين عاماً ، وتمكنوا من استحداث أساليب متنوعة تضمن تطبيق مبدأ « التعليم الفردي » بأوسع معانيه Individualisation

ويمكننا أن نقول إن هذه الأساليب الجديدة هي بمثابة « إصلاح نظام التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية » بتطبيق (روح التربية الحرة التي انبعثت من حدايق الأطفال) من جهة ، وتعميم (نظام السعي

الشخصي الذي تأسس في المدارس العالية) من جهة أخرى :

من المعلوم أن (نظام الصفوف) لم يرسخ في حدائق الأطفال رسوخاً كبيراً ، بل طرد منها بفضل (الطريقة المونتسورية) طرداً حاسماً . إن هذه الطريقة تركت الأطفال أحراراً في أعمالهم ، وأوجدت لأجلهم وسائل ووسائل مختلفة تساعد على اشتغالهم وتعليمهم من تلقاء أنفسهم . ألا يمكن الاستفادة من أساليب مماثلة في الدراسة الابتدائية ؟ أليس من الميسور استحداث (وسائل تعليمية) مناسبة تكفل (تعلم الطفل بنفسه) ما يجب أن يتعلمه من العلوم المختلفة ؟

إن الدكتور مونتسوري من جهة ، والدكتور دكرولي من جهة أخرى ، أخذاً يسعيان في هذا السبيل منذ عشرين عاماً ؛ حتى تمكنا من إيجاد وسائل وأساليب موافقة لهذا الغرض . وقد تبعهما عدد غير قليل من المربين فابتكروا وسائل ووسائل متنوعة لتعليم الأطفال بصورة منفردة وبدون مداخلة . وقد تكاثرت وتنوعت هذه الوسائل التي صارت تسمى باسم جديد : الوسائل المعلمة بالذات *matériel autodidactique* ، وفسحت مجالاً واسعاً لجعل التعليم (إفرادياً) في الصفوف الصغيرة من المدارس الابتدائية .

هذا ومن المعلوم أن (نظام الصفوف) لم يتبلور تبلوراً تاماً في الدراسة العالية ، بل أخذ منها شكلاً مرناً ومطاطاً ، وترك مجالاً واسعاً لمساعي الطلاب الشخصية ؛ فظلت الدراسة العالية في كل البلاد تتطلب من الطلاب مساعي شخصية .

ألا يمكن العمل بمثل هذه الأساليب في الدراسة الثانوية حتى في

القسم المتقدم من الدراسة الابتدائية ؟

لم يتردد بعض العلماء من الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب ، حتى أنهم تمكنوا من إخراج هذه المسألة من ساحة النظريات والتصورات ، وإدخالها في ساحة العمليات والتطبيقات .

إن أهم الأساليب التي استحدثت لهذا الغرض هي الطرق المعروفة باسم خطة دالتون وخطة وينتكا .

— ٦ —

إن واضحة خطة دالتون هي امرأة شابة تسمى مس باركهurst ، ولكن اشتهر الأسلوب بهذا الاسم ، بالنسبة إلى اسم المدينة التي جرب وطبق فيها لأول مرة .

أما جوهر الأسلوب فيمكن أن يتلخص فيما يلي :

إن الدراسة في المدارس الاعتيادية تقسم إلى وحدات زمانية ، مثل : الدرس ، والفصل ، والسنة . أما في المدارس التي يتم تنظيمها وفق الخطة الدالتونية ، فتقسم الدراسة فيها إلى أجزاء معينة من المنهج ؛ فيطلب إلى كل تلميذ أن يتقن الجزء الذي يدرسه قبل أن ينتقل إلى دراسة الجزء الذي يتلوّه ، بدون أن يخصص مدة ما لذلك .

ومعلوم أن تطبيق هذا المبدأ يستلزم تغيير نظم المدارس وترتيباتها تقييماً كلياً : فغرف الدراسة لا تخصص بصف من الصفوف — كما هو معتاد في المدارس بوجه عام — بل تخصص

يدرس من الدروس ، وتجهز وفق حاجات ذلك الدرس ، ويعهد بإدارتها إلى معلم واحد اختصاصي في ذلك الدرس ؛ فتصبح كلها « مختبرات » أو « قاعات اشتغال » وبتعبير آخر تكون « غرف درس » ، لا « قاعات تدريس »

أما وظيفة معلم « المختبر » أو « المسعى » فتتخصر في إرشاد الطلاب الذين يدخلون قاعته ويشغلون فيها إلى حسن استعمال أوقاتهم وتنظيم مساعيهم ، عند مطالعة الكتب وجميع الوثائق وإجراء التجارب ، وفي مراقبة تلك المساعي مراقبة عامة . إنه يجب على الأسئلة التي قد تلقى عليه ، من طالب واحد أو من مجموعة طلاب ، ويشرح لهم بعض الأمور ، ولكنه لا يعمل ذلك إلا عند وقوع المراجعة وحدوث الحاجة

فيرى الطالب على باب كل قاعة من قاعات المساعي منهجاً شريفاً ، مرتباً على درجات مختلفة ، مع شروح تتعلق بالماخذ والمراجع اللازمة ؛ ويرتب ساعات اشتغاله اليومية بحرية تامة ، فلا يقصر على الدخول في قاعة معينة في وقت معين ، ولا يقيد بقيد ما في المدة التي يجب أن يقضيها في القاعة التي يدخلها . إنه ينتقل من قاعة إلى أخرى ، يختارها حسب العلاقات التي تعرض عليه خلال دروسه ومعالجته ؛ ويشغل في كل منها المدة التي يرغبها

أما اشتغال الطلاب في المساعي ، فقد يكون فردياً وقد يكون إلبياً : يجتمع عدة طلاب للقيام بتجربة معينة ، أو لجمع وثائق متعلقة بموضوع معين ، أو لمناقشة مسألة معينة ؛ غير أنه لا يجبر أحدهم على الدخول في مجموعة دون أخرى

وهكذا ، يشتغل ويدرس كل الطلاب درساً حراً طليقاً ، في بيئة مجهزة بجميع وسائل الشغل والدرس . ولا شك في أن الاشتغال والدرس في مثل هذه البيئة وعلى هذا النمط يقوى في نفوسهم روح الاستقلال والإقدام ، ويعودهم ويمرنهم على السعى الشخصي والتفكير الذاتي بمقياس واسع

يظهر من هذه التفصيلات أن « خطة دالتون » تقلب نظام الدرس رأساً على عقب بدون أن تغير شيئاً من منهج الدراسة العام من حيث الأساس . وقد انتشر هذا الأسلوب انتشاراً كبيراً في المدارس الثانوية والمتوسطة ، في كثير من البلاد ، من أوربية وأمريكية وأسيوية : إنه شمل أكثر من ألف مدرسة في انكلترا ، وخمسمائة مدرسة في اليابان ، ونحو مائتين وخمسين مدرسة في الصين ، وأخذ يعم جميع مدارس روسيا وهولندا ، مع أنه لم يمض على استحداثه أكثر من عقد واحد .

لا شك في أن هذا الانتشار السريع يدل على مزايا حقيقية ، ولا ريب في أنه ناتج قبل كل شيء من أن المس باركهرست جمعت بين سمو الغاية وسهولة التطبيق : إذ أن خطة دالتون تغير طريقة التعليم بدون أن تحور المنهج ، وبدون أن تتطلب كتباً خاصة .

أما خطة « وينتكا » . فإنها تخرج على المناهج المعتادة أيضاً وتتطلب تحوير كتب الدراسة تحويراً جوهرياً

إن مؤسس خطة «وينتكا» هو (واشبرن) Washburn ، وقد كان مديراً لمصلحة الاختبارات في سان فرانسيسكو ، حيث تمكن الربى الكبير (برك) Burk من تطبيق مبدأ التعليم الإفرادى فى مدرسة التطبيقات الملحقة بدار المعلمين . إنه جعل التعليم إفرادياً من حديقة الأطفال حتى الصف الثامن مع هذا لم يهمل أمر التربية الاجتماعية ، فأوجد بجانب الأشغال الفردية مجموعة أشغال مشتركة للآلاف الفردانية

فقد أراد (واشبرن) أن يطبق هذا المبدأ فى المدارس العامة ، وقام بتجربة واسعة النطاق فى مدارس مدينة وينتكا ، وهى مدينة صغيرة بالقرب من شيكاغو لا يزيد سكانها على اثنى عشر ألفا . وقد قلب واشبرن أنظمة جميع مدارسها - بلا استثناء - وفقاً لخطة جديدة اشتهرت فيما بعد باسم خطة وينتكا ، نسبة إلى تلك المدينة . ويمكننا أن نلخص الخطة التى رسمها واشبرن فيما يلى :

خصص قسماً من أوقات اشتغال الطلاب فى المدرسة بتعلم المعلومات الإلزامية ، وترك بقية الأوقات للفعالية الحرة ، فردية كانت أو معشوية .

رتب منهجاً أصغر ثم ثبتت المعلومات الإلزامية ، وذلك بعد بحث دقيق وبفكرة بعيدة عن التقاليد . ثم درس كلا من مواد هذا المنهج درساً مفصلاً ، وبعد ذلك صنفها تصنيفاً تربوياً ؛ واعتبر

كل جزء منها هدفاً ، يجب على الطالب أن يصل إليه قبل أن يأخذ في السعى وراء الهدف الذي يليه .

وقد وضع — بمساعدة جماعة من الاختصاصيين — كتباً مدرسية من نوع خاص كلها مرتبة ترتيباً يغني الطفل عن معاونة المعلم في فهمها . إن مباحث كل كتاب من هذه الكتب مقسمة إلى أهداف ، كما أن مباحث كل هدف من الأهداف مقسمة إلى وحدات ؛ وهناك تمارين تدريبية لكل واحدة من تلك الوحدات ، واختبارات خاصة لكل هدف من تلك الأهداف ، وكلها مرتبة بصورة تساعد الطفل على معرفة أخطائه وتصحيح أغلاطه مباشرة وبالذات . فيدرس الطفل هذه الكتب بمفرده ، ويعمل التمارين وحده . وعندما يعتقد أنه قد أتقن جميع المواد والتمارين الداخلة في الهدف المعين له ، يراجع المعلم ، ويختبر « بمقاييس التعلم » الموضوع لهذه الغرض . فإذا نجح في هذا الاختبار ، شرع يسعى وراء هدف جديد ، وإلا شرع في الاشتغال بسلسلة « تمارين إصلاحية » ، تقويه في مواطن الضعف التي ظهرت خلال ذلك الاختبار .

وهكذا يسير التلميذ في طريق التعلم بمفرده ، وحسب رغبته وقابليته ، من غير أن يعرف سير أحد من رفاقه ، أو أن يتأخر في سيره انتظاراً لتقدم غيره .

وغنى عن البيان أن تطبيق هذه الخطه يؤدي إلى اقتصاد كبير في الوقت ، وقد تبين فعلاً أن مبلغ هذا الاقتصاد يكون نحو النصف وقد يناهز الثلثين . وهذا الوقت المقتصد من « التعلم الإجباري » يترك

مجالاً واسعاً للنشاط الحر بصورة انفرادية أو مشتركة .

ويظهر من هذه التفصيلات أن تطبيق هذه الخطة يحتاج إلى سلسلة كتب خاصة ، وسلسلة تمارين واختبارات ملائمة ، على أن تكون بأجمعها موضوعاً بعد بحث دقيق ودرس طويل .

إن فضل واشهرن ومساعديه هو تغلغله وإياهم في هذا البحث والدرس ، وفي تمكنه من وضع خطط عملية مفصلة ، كلها مستندة إلى أبحاث وتجارب نفسية وعلمية .



أهم مسائل التربية

[« كارلتون واشبرن » من كبار رجال التربية في أميركا وقد اشتهر بوجه خاص بالطريقة التي استعملها « للتعليم الافرادى » في مدارس « وينسكا » . وقد قام برحلة عالمية سنة ١٩٣١ ، درس خلالها اتجاهات التربية في أنحاء العالم المختلفة . ونصر قبيل رحلته هذه في أمهات المجلات التربوية سلسلة أسئلة موجهة إلى رجال التربية — على شكل كتاب مفتوح — ، طلب فيها منهم أجوبة تحريرية . كما أنه عند ما اجتمع رجال التربية في البلاد المختلفة ، وجه إليهم بعض الأسئلة الشفوية ؛ وهذه الأسئلة تظهر أهم المسائل التربوية التي تشغل بال المفكرين ، ولذلك رأينا أن ننشر ترجمة هذه الأسئلة بنصها]

— ١ —

ما هي الغايات التي تحاولون الوصول إليها بواسطة التربية فيما يخص المجتمع ؟

(أ) هل تبغون أن توجدوا - بفضل التربية - مجتمعا من نوع خاص ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو هذا النوع ؟
(ب) أو تحاولون تكييف الطفل لنوع من المجتمع موجود في الحال الحاضر ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو هذا النوع ؟

(ج) أو تهتمون بتنشئة كل فرد على أحسن ما يمكن من الصور ، دون أن تقررؤا لأنفسكم غاية اجتماعية معينة سلفا ؛ لانكم تأملون أن الأفراد الذين سينشأون بهذه الصورة يستطيعون أن يحلوا المشا كل

الاجتماعية على وجه أحسن مما يستطيع حلها الجيل الحاضر ؟
 (د) إذا كانت إحدى هذه الفرضيات الثلاث لا تتحدد هدفكم
 الاجتماعي بوضوح ، فهل تفضلون بتثبيت وتوضيح هذا الهدف ؟

- ٢ -

ما هي الغايات التي تحاولون الوصول إليها بواسطة التربية فيما يخص
 الفرد ؟

(أ) معرفة الحقائق . هل تعتقدون أنه توجد حقائق وأمر ،
يترتب على كل فرد سوى أن يعرفها ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي
 في رأيكم ؟ وما هو المعيار الذي يساعد على تعيين تلك الحقائق ؟

(ب) اكتساب الكفاءات : العقلية ، واليدوية ، والبدنية .
 هل تعتقدون وجود كفايات عملية يجب على كل فرد سوى أن يكتسبها ؟
 وإذا كان الأمر كذلك فما هو المعيار الذي يساعد على تعيينها ؟

(ج) اكتساب الكفايات الخاصة ، مثل قابلية البحث في مسألة ما
 بصورة علمية ، وقابلية جمع الوقائع وتنظيمها ، وقدرة التعميم ... وهلم جرا ،
 ما هي القابليات التي تستطيع التربية أن تتخذها هدفا لها من بين هذه
 القابليات ؟ إلى أي حد تكون هذه القابليات غايات تستهدفها التربية ،
 أكثر مما تكون « نتائج » إضافية ، يتوصل إليها بصورة عرضية ؟

(د) تكوين الآراء الاجتماعية والسلوك الاجتماعي . هل يترتب
 على المدرسة أن تحاول تنمية بعض الآراء واليول الاجتماعية مباشرة ؟
 في الفن ، في الدين ، في الفلسفة ، في السياسة ، في الاجتماع والأخلاق ...

مثلاً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يحسن تعيين هذه الآراء والميول ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فلن يجب أن يترك هذا التكوين ؟
 هـ (تكوين الشخصية التامة — هل يدخل في نطاق مهمة المدرسة مساعدة الطفل على تكوين شخصيته ؟ هل يجب أن يعلم الطفل كيف يراقب نفسه ويوازن بين ميوله ، وكيف يضحي الرغبة الحالية في سبيل غاية هي أبعد وأهم منها ؟

و (تربية النفس بالنفس — أم أن مهمة المدرسة هي استحضار البيئة الملائمة والفرص الغزيرة التي تساعد الطفل على إنتخاب ما يلائم حاجاته الذاتية بحرية تامة ؟

ز (حق الطفل في أن يعيش عيشة الطفولة بتمامها — هل سعادة الطفل ونيل رغائبه مما يجب أن يكون الهدف الحاكم للمدرسة ، إلى درجة تضحية المستقبل (يعني سعادة الراشد وقيمه) ، وللحال (يعني سعادة الطفل الحالية) ؟

ح (إذا كانت الفرضيات المذكورة آنفا لا تنطبق على آرائكم في تربية الشخص ، فهل تفضلون بتوضيح وجهة نظركم ؟

— ٣ —

بأية وسائل تأملون الوصول إلى كل هدف من الأهداف التي انتخبتموها ، جواباً عن الأسئلة السابقة ؟ هل تفكرون في الوصول إليها :
 أ (بالتعليم النظامي — المجموعي ، الذي يوجه إلى صف كامل ، أو الفردى (الذي يتكيف بأحوال كل واحد من الأطفال) ؟

- (ب) بممارسة التمارين الملائمة المجموعية (التي تشغل صنفاً كاملاً)
 أو الفردية (التي تتكيف بأحوال كل واحد من الأطفال) ؟
 (ج) بوضع الطفل في أوضاع يشعر فيها بحاجة إلى اكتساب
 بعض المعلومات والكفايات والقابليات التي تسعون إلى إكسابه إياها ،
 وإتمام هذه الأوضاع : بتعليم نظامي أو بتمارين ملائمة ؟
 (د) بمزج وتركيب بعض الأوضاع التي تجعل الطفل يكتسب
 المعلومات والقابليات المطلوبة مباشرة ؟
 (هـ) بالبحث عن حاجات الطفل في كل مرحلة من مراحل
 انكشافه وبإنائه تلك الحاجات ؟
 (و) باتباع تشويق الطفل وأسئلته ؟
 (ز) بوسيلة خاصة غير الوسائل المذكورة ؟

— ٤ —

- في أية مدرسة من مدارس بلادكم تطبيق هذه المفهومة التربوية على
 أحسن الصور ؟
 (أ) أى هدف من أهدافكم التربوية توصلت إليه المدرسة
 أو المدارس المذكورة ؟
 (ب) أى هدف من تلك الأهداف لم تتوصل المدرسة إليه ؟
 « ج » بين الوسائل المستعملة فيها ، أية وسائل تنال تحبيذكم التام ؟
 « د » ما هي الوسائل التي كنتم تودون تعديلها ، وما هو اتجاه
 هذا التعديل ؟

أما الأسئلة الشفهية التي ألقاها واشهرن على رجال التربية خلال اجتماعه بهم في بلادهم ، فكانت أضيق نطاقاً من ذلك ؛ فكانت تنحصر في النقاط الأساسية التالية :

* هل يجب أن نربي الطفل لأجل المحافظة على النظام الاجتماعي الحالي ؟ أو لأجل إيجاد نظام اجتماعي جديد وفقاً للآراء التي تقررها من الآن ؟ أم يجب أن نربيه لأجل نفسه ، ونترك أمر « المحافظة على المجتمع الحالي أو تجديده » على عاتقه ؟

* هل يجب أن نربي الأطفال بصورة تحملهم على وضع منافع بلادهم ومجدها فوق كل شيء ؟ أو بصورة تسوقهم إلى تضحية هذه المنافع الظاهرية في سبيل سعادة العالم ؟

* هل يجب أن نكسب الأطفال « وطنية » شديدة ، حتى إذا حدث يوماً من الأيام « تنازع » بين قناعاتهم الوجدانية ومطالب الدولة ، تتغلب في أنفسهم مقتضيات « طاعة الدولة » على « القناعات الوجدانية » ؟

* كيف يجب أن ندرس التاريخ ؟ كعلم « موضوعي وذاتي » على قدر الإمكان ؟ أم كواسطة دعاية قومية تخدم تنمية بعض العواطف والميول ؟

* هل يجب أن نسمح للأطفال في المدارس أن يتناقشوا في كل مسألة مهما كانت دقيقة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فهل يترتب على المعلم أن يحملهم على قبول وجهة نظر خاصة ؟ وما هي هذه الوجهة : وجهة نظره هو ، أم وجهة نظر الحكومة ؟

آراء وملاحظات

حول هذه المسائل

[نسرد فيما يلي أهم الآراء والملاحظات
التي كتبناها رداً على الأسئلة المذكورة]

— ١ —

المجتمع الحالي والمجتمع القادم

إن الأمم التي تكون قد وصلت إلى درجة كافية من الرقي والتقدم والقوة والمجد ، تستطيع أن تجعل « استقرار النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الراهن » هدفاً من أهدافها الأصلية في التربية والتعليم ؛ فتوجه جهود مدارسها نحو مهمة « جعل الجيل الجديد عاملاً على حفظ النظام الراهن — من حيث الأساس — مع السعي وراء إنمائه وتقويته على قدر الإمكان »

غير أن الأمة العربية لم تكن في هذه الحالة ؛ ولهذا لا يسوغ لمربيها أن يجعلوا (المحافظة على الوضع الراهن) هدفاً من أهداف التربية الأسمى .

نحن نشعر بالتأخر العظيم والنقائص الكبيرة التي بُلى به مجتمعنا الحالي ؛ ولذلك نسعى وراء إيجاد مجتمع جديد ، يختلف عن مجتمعنا الحالي

اختلافاً كلياً ، من جميع الوجوه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ...

ونحن لا نجعل نوع هذا المجتمع بوجه عام : بل نعلم أن الأمة العربية ظلت متأخرة في مضمار الرقي والحضارة تأخراً كبيراً ؛ ومحرومة من ثمار العلوم والفنون العصرية الحديثة حرماناً أليماً . ونجد أن بعض أبنائها في بعض الجهات لا يزالون يعيشون كما كان يعيش أجدادهم في القرون الوسطى ، إن لم نقل في القرون الأولى . ولذلك نريد أن نتلافى هذا التأخر ، ونصلح هذا النقص ، لكي تصبح أمتنا متمتعة بنعم الحضارة العصرية من جميع نواحيها ، ومتبوئة المكان الذي يليق بها ، نظراً لعظمة ماضيها

إننا نعلم أن الأمة العربية غلبت على أمرها ، وحرمت من نعم (الوحدة والاستقلال) منذ عهد بعيد . وقد تقاسمتها الدول المستعمرة أخيراً ، وأخذت تسعى بكل ما لديها من قوة وسلطان ، لترسيخ نفوذها للمادى والعنوى في البلاد التي استولت عليها . والفرقة الإدارية التي حدثت بهذه الصورة عقدت المشاكل الأساسية ، كما زادت الحيرة والارتباك في « الفكرة القومية » . إن هذه الفكرة لم تتم النمو اللازم من جراء تأثير النزعات الدينية والمذهبية من جهة ، والتسويات الاستعمارية من جهة أخرى ؛ كما أخذت تتصادم بمقتضيات المشاكل الإقليمية أيضاً ، بصورة شتى

كل هذه الأحوال ، ترينا بوضوح تام ، الواجبات التي تترتب علينا في هذه الظروف : فعلياً أن نسعى لتوحيد البلاد العربية ، لتكون أمة قوية عصرية ، تستعيد مجدها الغابر ، وتدخل في مصاف الأمم الراقية

ولذلك لا نستهدف في تربيتنا (الحفاظة على المجتمع الحالي)
بل نسعى لجعل الجيل الجديد عاملاً لتكوين (المجتمع الرافق) الذي
نشده على الدوام *seek*

أما طريقة (الاهتمام بتنشئة الفرد بأحسن ما يمكن من الصور، على
أمل أنه يحل مشاكل المستقبل بنفسه، دون أن تفكر في شكل المجتمع
القادم منذ الآن) فهي طريقة لا نستطيع الالتفات إليها أبداً؛ لأنها
قد تلائم أحوال الأمم التي تسير في مقدمة الحضارة، والتي تستطيع
أن تقول في نفسها: (إب الزمان يخدمني دائماً). قد تلائم أحوال
الأمم التي تكون راضية مطمئنة على سجايا أبنائها، والتي تستطيع
أن تقول دائماً (لا بد من أنهم يعملون ما يقتضيه الصالح العام) ... غير
أننا بعيدون عن هذه الأحوال بعداً كبيراً؛ بل بعكس ذلك، نجد
أن كل فرد منا، معروض لتيارات متعاكسة متناقضة ... كما نجد
أن معظم التيارات الحاكمة، مخالفة لمصالحنا القومية. فإذا تركنا الأمور
على حالها دون أن نسعى للسيطرة على هذه التيارات — بقوة التربية —
ودون أن نجتهد لتوجيهها نحو تكوين المجتمع الذي نشده — عن
طريق التربية — نكون قد تركنا الأجيال الجديدة عرضة لتأثير العوامل
الخارجية الأجنبية التي تخالف مصالحنا القومية مخالفة تامة

ولهذا السبب نحن مضطرون إلى حشد جهودنا في تربية الجيل
الجديد، نحو الغاية القصوى التي نشدها، وهي توحيد الأمة العربية
وترقيتها.

الفرد والمجتمع

characteristics

كثيراً ما يتناقش المربون في مسألة تقديم وتفضيل المطالب والخصال الفردية على الاجتماعية ، أو الاجتماعية على الفردية ، في الجهود والمقاصد التربوية .

giving preference

إنني لا أتردد في ترجيح المطالب والخصال الاجتماعية ، نظراً لأحوالنا العامة : لأن العرب — بوجه عام — أقوياء من حيث الخصال الفردية ، ضعفاء من حيث الخصال الاجتماعية . فيجب علينا أن نجعل أمر (إزالة هذا الضعف) من أهم المرامي في جهودنا التربوية

إننا نرى فعلاً عدداً كبيراً من أفراد العرب ينجحون نجاحاً باهرًا ، في جميع أقطار العالم وفي جميع نواحي الأعمال ... نشاهد ذلك على الأخص في المهاجر ، بين العرب الذين يعيشون خارجاً عن مواطنهم الأصلية ، في الصين والهند الشرقية ، وفي أميركا الشمالية والجنوبية ... كل ذلك يدل دلالة جلية على قوة الخصال والقابليات الفردية

في الأمة العربية . فيمكننا أن نقول : إن ما يحتاج إليه العربي قبل كل شيء وأكثر من كل شيء ، هو (التربية الاجتماعية) التي تقوى وتنمي في نفسه روح التضامن والطاعة والتضحية ، فتضمن له النجاح لا كفرد قائم بنفسه فقط ، بل كشخص خادم لأمتة أيضاً ...

ولذلك أقول بلا تردد : يجب علينا أن نهتم بتقوية الخصال الاجتماعية أكثر من اهتمامنا بتنمية القوى الفردية .

- ٣ -

تعليم التاريخ

إن تعليم التاريخ بصورة علمية بحتة ، وبمنظرة موضوعية وذاتية مطلقة ، مجرداً من جميع أنواع التأثيرات الذاتية والقومية ... إذا كان ممكناً في المدارس العالية ، فهو متعسر جداً في المدارس الثانوية ، ومتعذر مطلقاً في المدارس الابتدائية

فالمعلم لا يستطيع أن يدرس إلا جزءاً صغيراً من التاريخ ؛ ولا يستطيع أن يتوسع إلا في قسم قليل من الوقائع ؛ فيضطر لذلك إلى (انتخاب) قسم من الوقائع والأبحاث . وبديهي أن الانتخاب يتضمن بطبيعته « التأثير الذاتي ، والترتيب القصدى » . فما دام الانتخاب ضرورياً ، فمن الطبيعي أن يأخذ الاتجاه الذي تقتضيه التربية الوطنية والقومية ، ولا سيما أنه لا يوجد بين أيدي المعلمين واسطة تربوية آمنة وأنجح من دروس التاريخ لإنماء العواطف الوطنية والقومية وتقويتها ولذلك نرى من واجبنا أن نتخذ دروس التاريخ محوراً للتربية القومية ...

إن هذه الملاحظة العامة ، تكتسب خطورة خاصة ، بالنسبة إلى تاريخ الأمة العربية : لأن أمهات الكتب الموضوعة فيه مكتوبة — بوجه عام — بنزعة ذاتية ، تبتعد عن « الحقيقة المحضة » بعداً كبيراً . فما كتب منها باللغة العربية ، متأثر بالنزعة الدينية أكثر من تأثره بالنزعة

القومية ، أو مستوحى من الكتابات الغربية ؛ وأما ما كتب منها باللغات الأوروبية فبعيد أيضاً عن الحياد التام ، بسبب نظر الأوربيين الخاص إلى الشرقيين بوجه عام ، والعرب بوجه خاص ؛ فإن النضال العنيف الذى استمر قروناً طويلة بين الشرق والغرب ، والتباعد المعنوى الذى حصل بين الفريقين بسبب هذا النضال ، جعل الغربيين يتباعدون عن الحياد فى الأمور المتعلقة بالشرق والعرب بوجه عام ، ويتعصبون على العرب تعصباً صريحاً فى كثير من الأحيان

فيترتب علينا أن نعيد النظر فى تاريخنا بزعة تربوية قومية ، ونبحث فى زواياه عما يفيدنا فى جهودنا التجديدية من جهة ، وفى مرامينا القومية من جهة أخرى

وبهذا الاعتبار لا أتردد فى القول بأن دروس التاريخ عندنا ، يجب أن ترمي إلى (التربية القومية) قبل كل شيء ؛ فتسعى لإزالة آثار الدعايات السابقة أولاً ، ولتجديد وتقوية زعة الوحدة وأمل النجاح ثانياً

إن بعض الأمم لم تتردد فى الإقدام على (خلق الخرافات وابتداع الأكاذيب) فى دروسها التاريخية ، فى سبيل الوصول إلى غاياتها القومية . ونحن نعتقد أن الأمة العربية لا تحتاج إلى خلق الخرافات لمثل هذه الغايات : فتاريخها حافل بدروس المجد والعبر ؛ فلا يحتاج إلى شيء غير الانتخاب المعقول ، والعرض الملائم دون تضليل واختلاق ...

السياسة في المدارس

إن كلمة « السياسة » من الكلمات التي تشمل معاني متنوعة جداً . ولها وجهتان مهمتان : وجهة السياسة العليا الأساسية ، و وجهة السياسة الفرعية اليومية . إن الوجهة الأولى تتضمن « التربية الوطنية » فتدخل لذلك في نطاق وظائف المدارس بصورة طبيعية . وأما الوجهة الثانية ، فتتأثر بالنزعات الحزبية ، وتتغير بتغيير الموظفين والوزارات ؛ فيجب أن تبقى خارجة عن نطاق اشتغال المدارس والتلاميذ ؛ لأن هذه المسائل السياسية من الأمور المعضلة التي ترتبك العقول في حلها ارتباكاً كبيراً ، لأسباب كثيرة ، أهمها : قربها منها قريباً يمنع علينا إمكان الإحاطة بجميع وجوهها ؛ وعلاقتها بالأشخاص علاقة تسبب تصادم العواطف والمنافع حولها ؛ وعدم إمكان الاطلاع على حقيقة الأمر فيها إلا عن طريق « السماع والنقل » في أكثر الأحيان ، وكثرة « عوامل الضلال والتضليل » التي تعمل عملها في انتشار الشائعات وتطورها في غالب الأحيان .

هذه الأسباب كلها تجعل من الصعب جداً « الوقوف على الحقيقة » في هذه الأمور ، فمن الأوفق أن نحافظ على بكاره أفسكار الجيل القادم ، لكي لا يتأثر منا أو من غيرنا ، قبل أن يصل إلى درجة من النضوج يستطيع بواسطتها أن يحصل على فكرة خاصة ، عن علم وبحث

١٤١
هذا ، ويجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن اشتغال المدارس بهذا النوع من السياسة ، يولد بعض الحزازات حولها ، ويستوجب التهجيم عليها ؛ فمن واجبنا أن نترك المدارس تجاه ذلك في « موقف حيادي تام » ، لكي تتفق جميع الأحزاب والأشخاص على احترامها احتراماً حقيقياً

— ٥ —

السلم العام

كثيراً ما يبحث الغربيون عن السلم العام ، ويقومون بدعايات واسعة النطاق لبث فكرته بين أمم العالم . فقد أخذ رجال التربية في أوروبا وأمريكا يهتمون بمسألة « التربية لتقوية نزعة السلم اهتماماً كبيراً » . أما نحن فنلاحظ أولاً ، أنه لم يوجد إلى الآن على وجه البسيطة أمة ضحت بمنافعها ومصالحها في سبيل خدمة سائر الأمم . فكل ما يقال ويدعى في هذا الباب لا يخرج — في الحالة الحاضرة — عن نطاق « الدعاية » التي لا تخلو في بعض الأحيان من قصد « التضليل والخداع » . إن الأمم الكبيرة أيضاً أنهكت قواها في سبيل التسابق والتنازع فيما بينها ؛ فأخذت تبحث عن الوسائل التي تؤدي إلى « حفظ الأحوال الحاضرة » دون تضحية النفوس والأموال . فإذا أردنا أن نعمل لتقوية هذه الفكرة يجب أن نعمل على بثها أولاً بين الأمم القوية المسيطرة ، دون أن نتغافل عن وجوب اقترانها بنزعة قوية نحو « عدم التعدي على حقوق الغير » و « مراعاة حقوق الأمم المستضعفة » بلا تمويه ولا مخادعة

وأما الأمم المستضعفة ، فلا فائدة من بث فكرة السلم بينها ، بل قد يكون في ذلك ضرر على تحقيق فكرة السلم نفسها .

زارتني قبل مدة غير يسيرة امرأة أمريكية من داعيات السلم العام . فقلت لها في سياق الحديث : إنني أحب السلم وأود أن أراه سائداً على العالم . فسألتني : ما هي الوسائل التي توصلت بها في المدارس العراقية لبث هذه الفكرة بين الطلاب ؟ واقترحت عليّ ترتيب سلسلة محاضرات في بعض المدارس ؛ غير أنني أجبتها قائلاً :

إن فكرة السلم يجب أن تنتشر بين الأمم القوية المسيطرة ، لا بين الأمم الضعيفة المستعبدة . فإن رسوخها في نفوس الأمم المستضعفة لا يؤدي إلى شيء غير « الاستسلام » . وإنني أعتقد أن نمو فكرة الاستسلام عند الأمم الصغيرة لا يساعد على توطيد السلم العام ، بل بعكس ذلك يعرقل انتشاره بين الأمم ؛ لأن تفشي روح الاستسلام في الأمم الضعيفة يزيد في أطماع الأمم القوية ؛ وزيادة الأطماع يؤدي إلى حدوث التنازع ، وذلك ينتهي بإخلال السلم العام . فالسلم العام لا يتوطد إلا بانتشار فكرة « مراعاة حقوق الغير » بين الأمم القوية من جهة ، ونشوء فكرة « مقاومة التعدي والدفاع عن النفس » عند الأمم المستضعفة من جهة أخرى . ولهذا السبب إنني أعتقد اعتقاداً جازماً أن بث « فكرة المقاومة والدفاع » عند هذه الأمم يخدم السلم العام أكثر مما يخدمه انتشار فكرة السلم بينها . فإذا أردتم السلم حقيقة فابدلوا جهودكم لبث فكرته بين الأمم القوية الطامعة ، لا بين الأمم الضعيفة المغلوبة

إن رأيي في هذا الموضوع لم يتغير منذ ذلك الحين .

ملاحظات حول نظام الصفوف

يحمل واشبرن على نظام الصفوف حملات عنيفة ، ويقولون إن « تعليم التلاميذ بصفوف من الأخطاء المهمة التي وقعنا فيها في الغرب » . وينصحنا بالتباعد عن مثل هذه الأخطاء ، ويبرر رأيه هذا بأهمية « الفروق الفردية » ، وبضرورة ملاحظة هذه الفروق في التعليم والتربية ويقول : « إن مثل دعاة المبدأ القديم كمثل ذلك الذي يحاول أن يختار مقياساً وسطاً من الملابس لمجموع من الناس » ويسأل : « هل ألبستنا البدنية هي أهم من ألبستنا العقلية ؟ » ويضيف إلى ذلك قائلاً : « إن الفروق العقلية هي أكبر وأكثر من البدنية » ويشرح الطريقة التي استحدثها في « وينتكا » لتعليم الأطفال « دون تقسيمهم إلى صفوف » .

إنا لا ننكر قيمة التجارب التي يقوم بها واشبرن في وينتكا ؛ ونعتقد أن هذه التجارب ستكسبنا بعض المعلومات القيمة ، ولا سيما في تصنيف مشاكل التعليم تصنيفاً علمياً ، وفي تقسيم مباحث الدروس المختلفة تقسيماً تربوياً ؛ غير أننا لا نوافق في رأيه القائل بوجود حل إشكال الفروق الفردية على طريقة « ترك نظام الصفوف » . وإننا نستند ، في عدم موافقتنا هذه ، على ملاحظتين جوهريتين الأولى خاصة والثانية عامة :

أولاً : إن نظام الصفوف ليس عميق الجذور في بلادنا ، فالكثائب ومدارس الجوامع لا تزال تجهل نظام الصفوف جهلاً تاماً ، ولا أحد منا يجهل الأوقات التي تضيع في تلك المعاهد التعليمية والقوضى المتفشية فيها . فيحق لنا أن نفكر ملياً في أمر ترك نظام الصفوف ، خشية أن يعيدنا ذلك إلى تلك القوضى نظراً لأحوالنا العامة .

ثانياً : إن « مشكلة الفروق الفردية » ليست من المشاكل التي لا يمكن معالجتها إلا بترك نظام الصفوف . فالمقالة التي كتبناها تحت عنوان التعليم الاقْتِياسِي والأساليب الإفرادية في التدريس ، تلخص الأساليب المتنوعة التي استحدثت في البلاد المختلفة لمعالجة المشكلة المبحوث فيها . إن كل من ينعم النظر في أنواع تلك الأساليب المختلفة يرى أن موقف طريقة وينتكا بين هذه الأنواع هو موقف « التطرف التام » ولا نظن أن أحداً منا يجحد — بعد الاطلاع على سائر الأنواع — هذا التطرف في معالجة « مشكلة الفروق الفردية »

وهنا نود أن نقول كلمة أخرى ، في تشبيه (الملابس) المذكور آنفاً : إن هذا التشبيه اشتهر جداً ، منذ فاه به « كلايارد » ، وصار سبباً في استحداث تعبير « التعليم الاقْتِياسِي » المعلوم . إن الحكم على المسائل عن طريق التشبيه لا يكون منطقياً ؛ ومع هذا لا نرى بأساً من تتبع نتائج هذا التشبيه ، مادامنا نرى واشبرن يردده على أسماعنا ، بقصد إقناعنا بوجهة نظره في هذا الباب :

لا شك في أن كل شخص يلبس ملابس ملائمة لبدنه . غير أننا إذا نظرنا إلى الحقائق الراهنة قبل أن نستطيع أن ندعى بأن جميع

الناس يلبسون ملابسهم بناء على تفصيل خاص ، وخياطة خاصة ؟ ألم يكن عدد الملابس التي تباع جاهزة أزيد بكثير من التي « تفصل » بناء على توصية خاصة ؟ هل توجد دولة من دول العالم تجهز جنودها بملابس تستحضر بعد اقتياسهم فرداً فرداً ؟ وهل يوجد أحد في العالم لا يلبس شيئاً جاهزاً ، حتى من الجوارب والفانلات والقبعات ؟ إن معامل الثياب تصنف قياسات البدن ، وتستحضر الملابس وفقاً لمقتضيات هذه الصنوف ؛ وباعة الثياب يجيزون كل « مشتر » من الصنف الذي يلائمه ... وإذا اقتضى الأمر ، يقومون بتعديلات طفيفة ، لزيادة هذه الملائمة . إن العامل تعمل عملها هذا ، مستندة على قياسات عامة ؛ وهذه الملابس الجاهزة — بأصنافها المختلفة — تلائم حاجات الأكرية الساحقة من الناس ... ولا يبقى خارجاً عن ذلك إلا بعض الشواذ المعلولين بعاهات بدنية ، فلا يمكن تجهيزهم بملابس ملائمة إلا على طريق القياس الخاص ، والتحضير الفردي . ألم يكن في هذه الملاحظات ما يعدل مطالب واشهرن في الملابس العقلية تعديلاً مهماً ؟

ملاحظة

رأينا أن ثبت فيما يلي بعض الفقرات المقتبسة من محاضرة للدكتور دكرولى ، لتذكير القراء بتشبيه آخر حول هذا الموضوع وذلك قوله : « فما العمل في مثل هذه الظروف ؟ العمل هو ما يتخذ صاحبه المظم الذي لا يستطيع أن يحجز أذواق زبائنه تماماً وهو مضطر إلى إرضائهم

جميعاً إن أراء النجاح في أعماله . لديه الأطعمة الأصلية ، وإلى جانبه
 الأطعمة الإضافية والتوابل المختلفة ، فيجد بذلك كل طاعم ما يشتهي
 من خضر ولحوم مشوية أو مقلية ، وأصناف الجبن والفاكهة الشهية
 لا جرم أنى لا أحلم أن أمثل المدارس بالمطاعم ، ولكنى حينما أرى
 الزخارف التى تتحلى بها المطاعم ، والنفقات التى تنفق بسخاء عليها ، أسائل
 نفسى عما إذا كانت المدارس لا تستفيد من التشبه بالمطاعم قليلاً
 إن الأطفال يذهبون إلى المدارس ليبحثوا عن غذائهم العقلى والأدبى .
 فعلى المعلم أن يهيب لهم هذا الغذاء ، وأن ينبه شهوتهم إلى الطعام بالمشهيات
 المختلفة وينتبه إلى جعلها سهلة الانهضام . ولماذا لا يتجرى كذلك
 الوسائل التى يرضى بها ربائنه بتنويع الصحن مع تنظيم قائمة طعام
 ممتازة بأنواعها ...
 أليكون معلم المدرسة أقل استعداداً من الطاهى فى إرضاء ربائنه ؟



الوظائف الحكومية

المهن والأعمال الحرة

في العراق وسائر البلاد العربية ظاهرة اجتماعية خطيرة تتجلى آثارها كل يوم في كل مناحي الحياة العامة : وهي تهاوت المثقفين على وظائف الحكومة ، وإعراضهم عن المهن والأعمال الحرة

هذه الحالة أخذت تثير منذ مدة اهتمام المفكرين والمحررين بشدة ؛ فصرنا نسمع كل يوم شكوى عامة منها ، ودعوة مستمرة لمعالجتها

غير أننا إذا استعرضنا الآراء والاقتراحات التي تبدي عادة لمعالجة هذه الظاهرة الاجتماعية ، نجد أن معظمها يحوم حول « الدراسة والمدارس » نفسها ؛ فإن معظم الذين يبحثون عنها يظنونها وليدة المناهج المدرسية ، فيعتقدون لذلك أن معالجتها يجب أن تتم عن طريق تغيير المناهج وإصلاحها

فهل هذا الظن موافق للحقيقة تماماً ؟ وهل هذه الحالة الاجتماعية مما يمكن معالجتها عن طريق المدارس والمناهج حقيقة ؟

إن كل من يلاحظ تعقد الحادثات الاجتماعية بصورة عامة ، ويفكر في درجة شمول هذه الحادثة بصورة خاصة ، يضطر إلى التشكك في ذلك كثيراً : إن حادثة اجتماعية خطيرة وشاملة كهذه ، لا يعقل أن تكون وليدة عامل بسيط واحد ؛ فلا بد أن يكون لها عوامل عديدة

ومتنوعة . فإذا أردنا أن نعالج هذه القضية معالجة ناجعة ، وجب علينا أن ندرسها دراسة تامة ، وفقاً للأساليب العلمية التي تتبع في مثل هذه الأبحاث الاجتماعية :

ما هي العوامل التي تحمل الشبان على اختيار مهنة دون أخرى بوجه عام ؟ وما هي العوامل التي تجعل شباننا يتهافون على الوظائف الحكومية ، بوجه خاص ؟ ألا يوجد عوامل نفسية ، واقتصادية وتاريخية تتضافر على إحداث هذه الحالة الاجتماعية ؟ ألا تعمل الأسانيد والتقاليد العائلية والسياسية والاجتماعية عملاً بيناً في هذا الباب ؟

— ١ —

قام علماء النفس منذ أوائل القرن الحاضر ، ولا سيما بعد انتهاء الحرب العالمية ، بأبحاث مهمة في مسائل المهنة ، ودرسوا هذه المسائل دراسة عميقة ، من وجوه عديدة

وهذه المباحث تنقسم إلى قسمين أصليين :

أولاً : ما يعود إلى « الرغبة في المهنة »

ثانياً : ما يتعلق بـ « القابلية لها »

ما هي العوامل التي تؤثر على نفوس الشبان ، عند ما يحاولون اختيار مهنة من المهن ؟ ما هي الأسباب التي تولد فيهم رغبة نحو بعض المهن دون غيرها ؟ كيف تتكون هذه الرغبات ؟ كيف تتطور ، كيف تتقوى وكيف تندثر ؟ وهل يجب على الآباء أن يمشوها تماماً ، أم يجب أن يخالفوها ويسعوا وراء تغيير اتجاهها أحياناً ؟

إن رغبة الأطفال والشبان في مهنة معينة تنشأ في بعض الأحيان من عوامل ذاتية ، تعود إلى نفسية كل واحد منهم ، وقابليته الحقيقية . فالشخص إنما يرغب في مهنة ما ، لأنه يشعر في نفسه باستعداد خاص لها ، أو يمتاز بقابلية بارزة تجعله يأمل لنفسه نجاحاً باهراً فيها

غير أن الرغبة لا تتناسب مع القابلية في كل الأحوال : فالشخص كثيراً ما يميل إلى مهنة دون غيرها ، لأسباب تتعلق بمزاجه النفسي واستعداداته ، بل لاعتبارات تتعلق بأحواله وأحوال أهله الاقتصادية ، وبمطامعه ومطامع أهله الاجتماعية . لأن كل مهنة تضمن لأصحابها بعض المنافع والثمرات الاقتصادية والاجتماعية ؛ فكثيراً ما يخترع الشخص المهنة طمعاً في المنافع والثمرات التي يتوقعها منها في الحال والاستقبال .

كما أن كل مهنة تتطلب درجة معينة من التحضير ، وذلك يتوقف على مقدار من النفقات . وزد على ذلك أن معظم المهن تحتاج إلى مقدار من رأس المال ، حتى بعد إكمال الدراسة والتحضير . وطبيعي أن كل الأشخاص لا يستطيعون أن يجدوا الوسائل الاقتصادية الضرورية للمهن التي يشعرون في نفوسهم برغبة شديدة وقابلية خاصة نحوها . ولهذا السبب تتحدد دائرة انتخابهم بأحوالهم الاقتصادية ، فإنهم يضطرون إلى انتخاب مهنتهم من بين تلك التي تسمح بها أحوالهم الاقتصادية دون غيرها

غير أن هذه الملاحظات الاقتصادية أيضاً لا تحدد المهنة التي سيتجه إليها الشاب بصورة نهائية : لأن رغبات الآباء ومساعدات الأصدقاء

ونزعات البيئة واعتبارات الناس وصدف الحياة أيضاً تؤثر في هذا الباب تأثيراً كبيراً .

وهذه العوامل المختلفة قد تدفع بالشباب نحو مهنة لم يكن ذا استعداد خاص لها ، وقد تبعده عن المهنة التي لو اهتمها لنجح نجاحاً باهراً فيها . في حين أن مصلحة الأفراد والمجتمع تستلزم عكس ذلك تماماً : إذ أنها تقتضى أن ينتسب كل فرد للمهنة التي يكون أكثر قابلية لها لتعود أعماله على نفسه وعلى بنى وطنه بأعظم ما يمكن من المنافع والثمرات . إن هذه المصلحة تحتم علينا أن نسعى لمعرفة قابلية كل واحد من الشبان للمهن المختلفة ، وأن نبذل كل ما في استطاعتنا لعله على اختيار المهنة التي يكون ذا قابلية خاصة لها .

وأما معرفة ذلك فيتوقف على القيام بنوعين من الأبحاث :
أولاً : مطالب كل مهنة من المهن . ثانياً : قابليات كل شخص من الأشخاص . فإن كل مهنة من المهن تتطلب من القائمين بها نوعاً خاصاً من الأوصاف الجسمية والخصائص النفسية والمعلومات الأساسية ؛ فيجب علينا أن ندرس كل مهنة على حدة لنعين جميع الأوصاف البدنية والفكرية والخلقية التي يتوقف عليها النجاح في تلك المهنة بصورة تفصيلية . كما أن كل فرد من الأفراد يمتاز عن غيره ببعض الأوصاف الجسدية والنفسية ؛ فيجب علينا أن ندرس كل فرد على حدة لنعين جميع الأوصاف والقابليات التي يمتاز بها بصورة عامة .

وطبيعى أننا إذا حصلنا على هذه المعلومات وتلك استطاعتنا أن نعين

المهنة أو المهن التي تناسب وتلائم ذلك الفرد ، وتمكننا من إرشاده وإرشاد أولياء أمره إلى تلك المهنة أو المهن مستندين إلى أبحاث واختبارات علمية تامة .

هذه هي المهمة التي تقوم بها في البلاد الغربية المؤسسات التي تعرف بـ « معاهد التوجيه المهني » Orientation Professionnelle Vocational Guidance ، وهذه هي غاية الأبحاث التي صارت موضوعاً لفن جديد يعرف باسم نفسيات المهن والصناعات Technopsychologie إن هذه المعاهد وهذه المسائل أصبحت موضع اهتمام الأمم الراقية بأكملها خلال السنين العشر الأخيرة ، حتى صارت موضوع أبحاث هامة في مؤتمرات دولية انعقدت لهذا الغرض مرات عديدة .

— ٢ —

فلندرس المسألة التي ذكرناها في صدر هذه المقالة وفقاً للأسس الموضوعية في هذا الفرع من علم النفس :

إذا استعرضنا جميع المهن التي صارت موضوعاً لمثل هذه الأبحاث ، لا نجد بينها ذكراً صريحاً للوظائف الحكومية . وكل ما نشاهده بين قوائم المهن ، مما له علاقة بالوظائف الحكومية ، هو عبارة عن الأعمال الكتابية والأعمال الإدارية بوجه عام ، سواء أكانت في المصالح الحكومية أم المعاهد والمتاجر الخصوصية

وإذا فكرنا قليلاً في ماهية الوظائف الحكومية ، نفهم أن ذلك من الأمور الطبيعية : فإن هذه الوظائف ليست مهنة خاصة ، أو صنفاً

خاصاً من المهن ، بل هي عبارة عن صبغة قد تصطبغ بها مهن كثيرة ومتنوعة ...

فالتطباة مثلاً مهنة : غير أن الطبيب ، قد يقوم بأعمال هذه المهنة كموظف أهلى أو حكومى ، يعاين ويداوى كطبيب رسمى فى مدرسة أميرية أو مستوصف أهلى ، أو مستشفى عام ، كما أنه قد يقوم بنفس الأعمال كطبيب حر ومستقل ، فى عيادة خاصة أو مستوصف خاص وكذلك الهندسة الزراعية ، هى أيضاً مهنة ؛ والمهندس الزراعى قد يقوم بأعباء هذه المهنة كموظف يعمل فى مزرعة من مزارع الحكومة ، وقد يقوم بها كشخص غير موظف يعمل فى مزرعة خاصة ...

ومن العلوم أن المحاماة من المهن الحرة ، فى حين أن النيابة العامة من الوظائف الحكومية . وواضح أنه لا يوجد فرق جوهرى بين أعمال النائب العام ، وأعمال المحامى : فالأول يأخذ على عاتقه حماية الحق العام والدفاع عنه أمام المحاكم ، فيطلب إدانة الأشخاص أو تبرئتهم باسم الحق العام . فى حين أن الثانى يأخذ على عاتقه حماية الحق الخاص والدفاع عنه أمام المحاكم ؛ فيطلب إدانة الأشخاص أو تبرئتهم ، على نفس النمط باسم الحق الخاص . فيمكننا أن نقول بهذا الاعتبار : إن مهنة كل واحد منهما تماثل مهنة الآخر ، ولا تختلف عنها إلا من حيث الشكل والصبغة فحسب

وكل ما قلناه آنفاً عن الطبيب والمحامى والنائب العام ، يصدق تماماً على المعار والمعلم والسكران والحاسب والحارس أيضاً . فاعمال جميع هؤلاء قد تكون وظيفة حكومية ، وقد تكون مهنة مستقلة عن المصالح

الحكومية . فالفرق الذي يمتاز به الوظائف الحكومية عن سائر المهن ليس في نوع العمل ، بل هو في كيفية العمل ؛ وبتعبير آخر في صبغة العمل

إن هذه الحقيقة التي وصلنا إليها من هذه المقارنات مهمة جداً في حل المسألة التي نحن بصدد حلها : فإذا أردنا أن نعرف الأسباب التي تدفع الشبان المتعلمين إلى الوظائف الرسمية دون سائر المهن — وتوهمهم إلى تلك الوظائف دون هذه — من العبث أن نبحث عنها بين الأوصاف والقابليات البدنية أو الفكرية أو العلمية ، لأن الأعمال متماثلة في حد ذاتها في كلتا الحالتين . والأوصاف البدنية أو الفكرية أو العلمية التي تتوقف عليها هذه الأعمال أيضاً تكون متماثلة بطبيعة الحال : ولهذا السبب يجب ألا نشك أبداً في أن هذه العوامل هي عاطفية وخلقية واجتماعية من حيث الأساس

فلنبحث إذن : ما هي الأوصاف العاطفية والخلقية والاجتماعية التي تميز الوظائف الحكومية عن سائر المهن ؟

أولاً ، إن الثمرات الاقتصادية التي يجنيها الفرد من الوظائف الحكومية مستقرة مقننة ، بعكس ثمرات سائر المهن ؛ فالوظيفة الرسمية تضمن للموظف مورداً ثابتاً ، في حين أن سائر المهن لا تضمن له شيئاً من ذلك عادة

فالمهندس الزراعي الموظف — مثلاً — يتقاضى من خزانة الدولة راتباً معيناً ، لا يتحول بتحول مقدار المحصول ونوعه أبداً : فسواء هطلت الأمطار في الأوقات اللازمة للزراعة أم لم تهطل ، أو انقصت نفقات المضخات من

جاء ذلك أم لم تنقص ، أو كان المحصول كثيراً أم قليلاً ، أو كان سعره جيداً أم رديئاً . . . فهو موظف يتقاضى راتباً معيناً لا يزيد ولا ينقص من جراء هذه الأحوال . فالأعمال التي يقوم بها مضمونة الثمرة ، لا خطر فيها ولا مجازفة ، من حيث النتائج الاقتصادية التي تعود إلى شخصه بصورة مباشرة .

وأما إذا اشتغل ذلك الشخص بأعمال زراعية حرة في مزرعته الخاصة ، فيبقى محروماً من مورد ثابت مقنن ؛ فيتأثر في اقتصادياته من المطر والجراد والحرب والبرد ، ومن كل العوامل التي تؤثر في مقدار المحصول ونوعه ، وكل العوامل التي تؤثر في سعر المحصول ورواجه . إنه قد يرجح في سنة من السنين ربحاً كبيراً ، وقد يخسر في سنة أخرى خسارة عظيمة ؛ فعمله يكون على كل حال غير مضمون النتائج محفوفاً بالمخاطر . فترجيح العمل على هذا النمط ، على العمل في نطاق الوظائف الرسمية يتوقف علاوة على المسائل المالية ، على نفسية جريئة صبورة لا تتأخر عن المجازفة ولا تجفل من الخسارة ، وترجح أن تكسب مبلغاً كبيراً بعد جهود سنوات عديدة وتكبد نفقات كثيرة ، على أن تكسب قليلاً منذ البداية في كل سنة بصورة مطردة .

وكذلك الأمر في رجال الحقوق : فالحقوقي الذي يتوظف في الدوائر العدلية يتقاضى راتباً مقنناً لا يتحول بتحول عدد القضايا ، ولا يتأثر من أهواء أصحاب الدعاوى أو مقررات المحاكم ، في حين أن الحقوقي الذي يشتغل بالحمامة يقبض أجوراً لا يتحدد مقدارها باطراد ، بل يتحول بتحول القضايا التي يتعهد بها ؛ ويتأثر من مقررات المحاكم فيها .

وقد يكسب المحامي في شهر من الشهور أجرة كبيرة ، وقد يمضى عليه ، بعد ذلك شهور عديدة لا ينال أجرة تقاربها . . . وقد يحصل المحامي بمرور الزمان على شهرة كبيرة وثقة عظيمة تجعله يربح في كل سنة أضعاف ما يكسبه الحقوقي الموظف ، غير أنه قبل أن يصل إلى هذه الدرجة من الشهرة لا بد أن يكون قد جازف وعانى كثيراً ، واكتفى مدة من الزمن بمورد قليل بالنسبة إلى ما كان يتقاضاه زملاؤه الموظفون ، ولذلك يمكننا أن نقول : إن الشاب الحقوقي إذا خير بين العمل الرسمي والعمل الحر سيختار أحدهما ، لا حسب قابلياته الفكرية ، بل نظراً إلى ميوله الخلقية .

إن هذه الحالة لا تنحصر في الأعمال الزراعية والحقوقية وحدها ، بل تشمل كل الوظائف الحكومية على اختلاف أنواعها : فيمكننا أن نقول إن في هذه الوظائف كلها جاذبية اقتصادية شديدة ، تجذب عدداً كبيراً من الشبان بالراتب المقتن الذي تضمنه لهم بصورة مطردة .

هذا ، ومما يجب الانتباه إليه بوجه خاص أن ميزات الوظائف الرسمية من الوجهة الاقتصادية لا تنحصر في ثبات الرواتب التي يتقاضاها الموظف خلال قيامه بأعباء الوظيفة ، بل تتعدى هذه الرواتب المقتنة إلى رواتب التقاعد «المعاش» التي يتقاضاها الموظف بعد اعتزاله العمل ، ورواتب الأيتام التي يتقاضاها أهل وأولاده بعد وفاته . فالعامل الحر إذا مرض واقتطع عن العمل فقد مورد الرزق الذي كان يعول عليه فقد تماماً ، وإذا مات لا يخلف لأولاده شيئاً من موارد الرزق غير المبالغ التي قد وفرها ، والأملاك أو الأراضي التي قد تملكها ؛ وأما الموظف الرسمي

فيمتاز عنه بامتيازات كثيرة من هذه الوجهة أيضاً : فإنه يتقاضى راتباً ولو مرض مرضاً يمنعه عن مواصلة العمل مدة من الزمن ، كما يتقاضى راتباً تقاعدياً دائماً عندما يتقدم في السن أو يعتل بعلّة لا تترك له مجالاً للعمل . وأخيراً يموت وهو مطمئن البال على مستقبل أولاده ، لأنه يعرف أنه سيتقاضون راتباً مقنناً بعد مماته .

نرى من كل ذلك : أن الميزات الاقتصادية التي تتمتع بها الوظائف الحكومية عن سائر المهن كبيرة ومتنوعة جداً ، فلا غرابة والحالة هذه إذا جذبت « الوظائف » بميزاتها هذه معظم الشبان إذ من الطبيعي ألا يعرض أحد عن هذه المزايا الكبيرة ، ما لم يكن في نفسه طموحاً شديداً نحو الأعمال الحرة ، وميلاً قوياً للمجازفة بالحال في سبيل الاستقبال

— ٢ —

وهنا لا بد من أن يخطر على البال اعتراض يستوجب الشك في إصابة الحكم الذي وصلنا إليه آنفاً :
إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم تعمل الوظائف الحكومية هذا العمل في البلاد الغربية أيضاً ؟ ولماذا لا يتهافت الناس على وظائف الحكومة هناك كما يتهافتون عليها عندنا ؟
إن هذا الاعتراض يظهر وجهياً جداً في أول وهلة ؛ غير أننا إذا فكرنا ملياً في حياة المهن في البلاد الغربية ، نجد أن الميزات الاقتصادية التي بحثنا عنها آنفاً لم تكن من خصائص الوظائف الحكومية

وحدها في تلك البلاد ؛ فهناك يوجد مئات بل ألوف من الشركات والمصانع والمتاجر التي تستخدم عدداً كبيراً من الموظفين الذين يتقاضون أجوراً شهرية أو أسبوعية مقننة ، كـمستخدمي الدوائر والمصالح الحكومية التي عندنا . فكل من يلتقي نظرة عامة على الشركات والمؤسسات المالية والتجارية والصناعية والزراعية والخيرية الموجودة في البلاد الغربية يجد بينها آلافاً من المؤسسات التي يزيد عدد موظفي كل واحدة منها على مجموع موظفي أكبر قضاء من أقصيتنا ، كما يجد مئات من المؤسسات التي لا يقل عدد موظفي كل منها عن مجموع موظفي أكبر لواء من ألويتنا ، مع جميع موظفي الأفضية التابعة لذلك اللواء . حتى أنه يجد بينها عدداً كبيراً من المؤسسات والشركات التي تضاهي وزاراتنا ، بسعة تشكيلاتها وكثرة مستخدميها وموظفيها . فيمكننا أن نقول بلا تردد : إن هناك عدداً غير قليل من الشركات الكبيرة يربو عدد موظفيها على عدد الموظفين المستخدمين في جميع دوائر الحكومة العراقية على اختلاف أنواعها

يظهر من هذا كله أن عدد الذين يشتغلون بأشغال حرة - مستقايين عن غيرهم - بكل معنى الكلمة ، يؤلفون زمرة صغيرة حتى في أرقى البلاد الغربية . وإذا لم نشاهد في تلك البلاد تهاافتاً كبيراً على وظائف الحكومة ، فما ذلك إلا لأن باب التوظيف هناك ليس منحصراً في دوائر الحكومة ، بل يشمل ألوفاً وألوفاً من المعاهد الخصوصية

وبما يجب أن نلاحظه في هذا الباب ، أن خدمات هذه المؤسسات لا تشبه وظائف الحكومة من وجهة « اطراد الرواتب » التي

تضمنها فحسب ، بل إنها تشبهها في سائر الميزات الاقتصادية أيضاً :
فالقوانين الاجتماعية الموضوعة في تلك البلاد — مثلاً — تحتم على
الشركات والمؤسسات ، أن تضمن معيشة مستخدميها وموظفيها ، عند
ابتلائهم بمرض يؤخرهم عن الشغل ، أو علة تقعدهم عن العمل

كما أنه يوجد هناك عدد كبير من شركات التأمين وصناديق التوفير
التي تضمن لأرباب المهن المختلفة — لأنفسهم عند شيخوختهم ، ولعائلاتهم
بعد مماتهم — موارد رزق مقننة . وقد سنت الحكومات الراقية قوانين
اجتماعية كثيرة ، تحتم على جميع الشركات والمؤسسات أن تشرك
مستخدميها وموظفيها بأعمال التوفير والتأمين ، وتضمن لهم بذلك رواتب
تشبه رواتب التقاعد من وجوه عديدة

على ذلك نقول : إن الوظائف الحكومية في البلاد الغربية
لا تمتاز عن سائر المهن بأى امتياز اقتصادى كان
فلا غرابة والحالة هذه ، إذا لم تجذب تلك الوظائف الشبان في تلك
البلاد ، كما تجذبهم عندنا

ولهذا السبب نعود ونقول بلا تردد : إن تهافت الشبان المتعلمين على
الوظائف ينشأ — في الدرجة الأولى — من الميزات الاقتصادية العظيمة
التي يتمتع بها الموظفون في بلادنا ، ومن عدم وجود شركات ومؤسسات
وتشكيلات تضمن لغير الموظفين طمأنينة اقتصادية تشبه طمأنينة الموظفين .
ونعتقد : أن هذه العلة لا يمكن أن تداوى ما لم توجد في هذه البلاد ،
مثل تلك المعاهد والشركات ، ومثل تلك الصناديق والجمعيات ، وما لم
تسن مثل تلك الأنظمة والقوانين

قد حصرنا الأبحاث التي سردناها إلى الآن ، في تعيين العوامل الاقتصادية التي تؤثر في اختيار المهن ، وأظهرنا كيف أن هذه العوامل — في بلادنا — تقوى روح التوظيف عند الشبان

غير أننا لسنا من المعتقدين بأن كل الحوادث الاجتماعية تعلل وتفسر بالعوامل الاقتصادية وحدها ، بل نعتقد بأن هناك عوامل معنوية كثيرة ، قد تكون أعمق أثراً من العوامل الاقتصادية في تكوين الحوادث الاجتماعية

وإذا بحثنا عن العوامل المعنوية التي تؤثر في نفوس شباننا ، عند ما يقدمون على اختيار المهنة ، نجد أنها كلها تنضم إلى العوامل الاقتصادية وتؤديها فتزيد في تأثيرها ، وتقوى لذلك روح التوظيف عند المتعلمين : إن العرف العام لا يخلو من التأثير في نفوس الشبان في أمر اختيار المهن ، في جميع بلاد العالم : ففي جميع البلاد نرى أن الرأي العام يربط بعض المهن ببعض الاعتبارات الخاصة ، ويعتبر بعضها من المهن الخسيسة فيحتقرها ، كما يعتبر بعضها من المهن النبيلة فيحترمها . وطبيعي أن النشء الجدد يتأثرون عادة بهذه التقديرات ، ويحتقرون بعض المهن ، فيتباعدون عنها ؛ ويبجلون بعض المهن ، فيتشوقون إلى الانتساب إليها ...

ونرى في هذا الباب تفاوتاً كبيراً بين أمة وأمة ، وبين مملكة ومملكة ، حتى بين مدينة ومدينة . ولهذا السبب ، كثيراً ما نشاهد أهل بعض المدن يميلون إلى بعض المهن بصورة خاصة ، ويعرضون عن بعض المهن

بصورة واضحة

وإذا ألقينا نظرة عامة على اتجاه العرف العام في بلادنا، نرى أنه يحيط الوظائف الحكومية بهالة جذابة من التبجلة والاحترام . ففي بلادنا كما في كل بلاد الشرق الأدنى يتمتع موظفو الحكومة بسلطة مادية ومعنوية كبيرة ، ويؤلفون طبقة خاصة تسيطر على سائر طبقات الشعب بسيطرة شديدة ، فلا تترك فرصة تمر دون أن تنتهزها لإظهار سيطرتها هذه بصورة واضحة . والشعب يهاب الموظفين ، وينظر إليهم بشيء كثير من الغبطة والحسد ؛ ولا سيما أن آثار الأبهة والعظمة التي تحيط بالموظفين الكبار تلفت أنظار الأطفال والشبان ، وتولد في نفوسهم شوقاً شديداً إلى الوظائف الحكومية ، يفوق جميع أشواقهم الاجتماعية

فعلى ذلك نقول : إن الوظائف الحكومية في بلادنا تتصف بنوع من المغناطيسية المعنوية ؛ وأن النفوس والقلوب تنجذب نحو هذه الوظائف — بسبب هذه المغناطيسية المعنوية — انجذاباً شديداً وهذه ظاهرة اجتماعية قديمة العهد ، استمرت في الشرق الأدنى منذ قرون عديدة ، فتركت آثاراً عميقة في نفوس بعض طبقات الشعب ، ولا سيما بين المسلمين: إذ أن الوظائف الحكومية اعتبرت مظهراً من مظاهر الحكم ، وصار المسلمون يتمسكون بها تمسكاً شديداً ، وأصبح الميل إليها عظيماً في نفوس شبانهم بحكم التقاليد أيضاً

وعندما أحدثت المدارس المنظمة — المؤسسة على نمط المدارس الغربية — فهم الرأي العام ضرورة الدراسة في هذه المدارس للوصول إلى وظائف الحكومة ، غير أنه ظل غير مدرك وغير معتقد بفائدة هذه

الدراسة للمهن العمادية . ولهذا السبب صار الناس لا يرسلون أولادهم إلى المدارس إلا إذا صمموا على إدخالهم في سلك موظفي الحكومة . لذلك كان معظم الشبان يدخلون المدرسة ، وهم مصممون سلفاً على الانتساب لإحدى مصالح الحكومة

ومن الغريب أن بعض الكتاب والمفكرين يعكسون هذه القضية ، ويعتبرون النتيجة علة : فإنهم يظنون الشبان يتهافون على الوظائف من جراء دراستهم في المدارس ، في حين أن الحقيقة البارزة هي : أنهم لا يدرسون في المدارس من جراء نزوعهم إلى الوظائف

إن بعض الذين يظنون هذا الظن ، يتقدمون أحياناً في طريق التعليل والاستدلال الذي سلكوه بضع خطوات أخرى ؛ ويقولون : إن تهافت الشبان على الوظائف الرسمية ، من نتائج مناهج الدروس وأساليبها ، فحجاجة هذا التهافت لا تتم إلا بتغيير هذه المناهج والأساليب لا نود في هذا المقام أن نخوض غمار هذا البحث ، لذلك لا نريد مناقشة هذا الرأي طويلاً ، غير أننا نظن أن الأمور التي ذكرناها آنفاً كافية لإظهار تعقد هذه المسألة ومبلغ تنوع العوامل التي تؤثر فيها

ولقد رأينا أن أهم هذه العوامل هي اجتماعية واقتصادية ؛ ونعتقد أن هذه العوامل قوية وعميقة جداً ، فلا يمكن العوامل المدرسية أن تؤثر بجانبها تأثيراً مهماً . ولذا نستطيع أن نقول : إن التدابير التي يجب أن تتخذ لمعالجة التهافت المبحوث عنه ، أن تكون اجتماعية واقتصادية قبل كل شيء

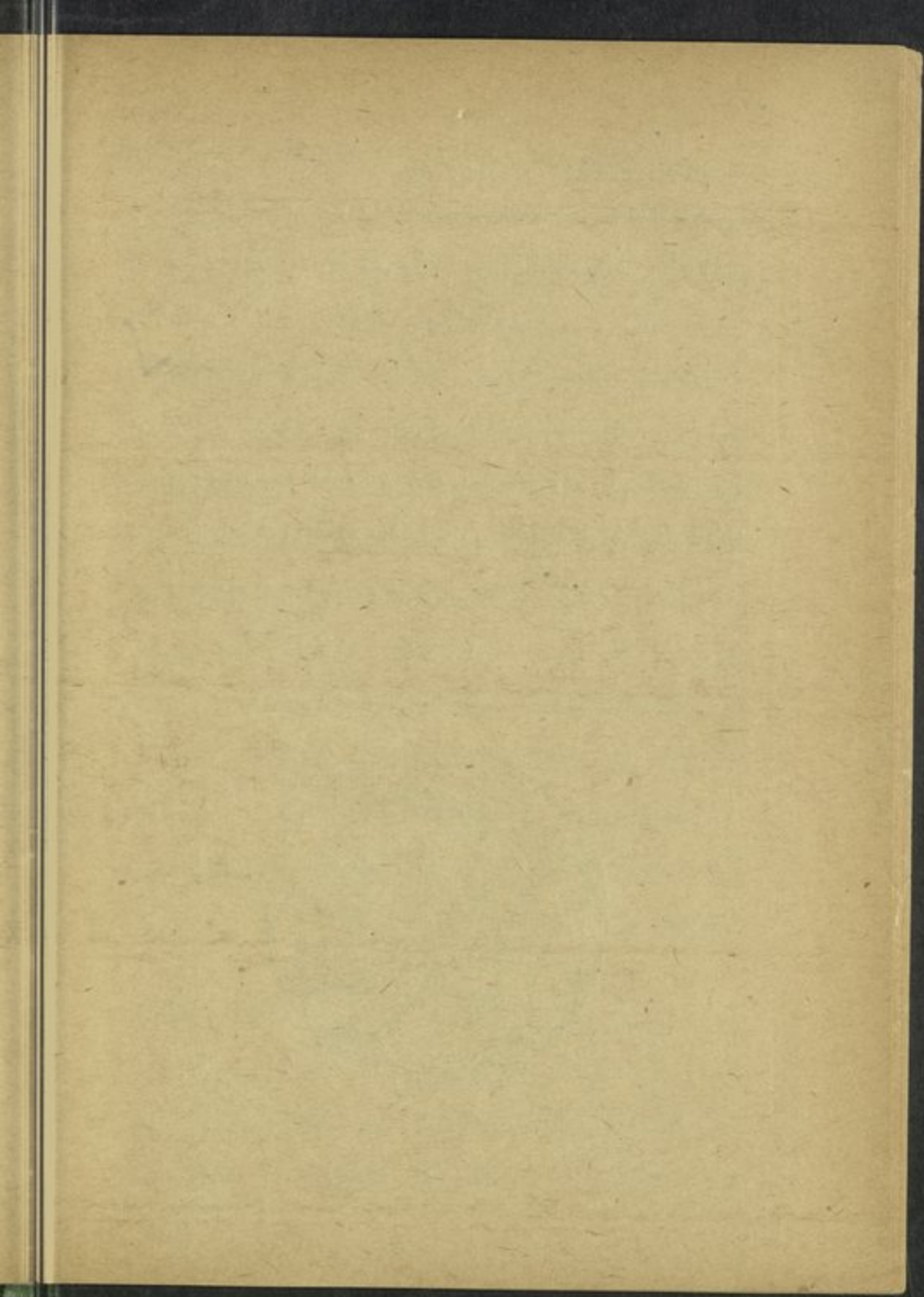
إن قلة رغبة الشبان في الالتحاق بمدارس الزراعة والصناعة ، وعدم تمايز الذين يعودون من المدارس الأوربية والأميركية عن الذين يدرسون في مدارس البلاد ، من وجهة الالتجاء إلى أبواب الحكومة بقصد التوظيف فيها ، لدليل كاف على أن العلة الأصلية في هذا الباب ليست مدرسية ، وإنما هي اقتصادية واجتماعية

فلا أمل إذن في تغير هذه الحالة تغيراً محسوساً ، ما دامت الأعمال التي تضمن رواتب ثابتة منحصرة في خدمة الحكومة وما دامت البلاد محرومة من مؤسسات اقتصادية تسهل للشبيبة المتعلمة العمل خارجاً عن وظائف الحكومة . . . وما دامت محرومة من مؤسسات اجتماعية تزيل الامتيازات الاقتصادية العظيمة التي تميز موظفي الحكومة على أرباب سائر المهن . . . لا أمل في تغير هذه الحالة تغيراً محسوساً . . . حتى ولو فرضنا أن أطفالنا وشباننا أخذوا يدرسون على أيدي أرقى أساتذة الأميركيين ، وعلى أرقى أنماط الدراسة المعتادة لديهم وقصارى القول أن هذه مسألة اجتماعية واقتصادية في الدرجة الأولى ، فلا يمكن معالجتها دون القيام بمؤسسات وإصلاحات اقتصادية واجتماعية . . .

توسعنا في هذا المقال في شرح العوامل الاجتماعية وإظهارها ، ولم ندخل في بحث العوامل العائلية . وما لا جدال فيه أن تربيتنا العائلية أيضاً تعمل في هذا الباب عملاً مؤثراً : فالأولاد ينشأون بعيدين عن روح المجازفة والميل إلى الاستقلال ، ويبقون متكئين

على أهلهم في جميع شؤونهم ، حتى في أمر زواجهم وإدارة بيوتهم
 وكَم من الشبان من لا يستقلون عن أهلهم حتى بعد الزواج وبعد
 الأبوة . ويبقون معهم في دار واحدة ، ولا يتخلصون من تأثير أمهاتهم
 وجداتهم وخالاتهم ... حتى في تربية أولادهم
 وطبيعي أن من ينشأ بعيداً عن روح الاستقلال بهذه الدرجة ،
 ومن يشكل على أهله وذويه حتى في انتخاب رفيقة حياته وإدارة بيته
 وتربية أولاده بهذه الصورة ... طبيعي أن لا يقدم على اختيار طريق
 المهن والأعمال الحرة القلقة .. وأن يحاول الالتجاء إلى طمأنينة الوظائف
 الحكومية ...





القسم الثالث

مقالات

حول نظام التعليم في مصر

(*) نقد نظام التعليم في مصر

— ١ —

إن أبرز المآخذ التي تلفت أنظار الباحث المحاميد — عند ما يلي نظرة انتقادية عامة على نظام التعليم في مصر — هو « حرمان المدارس الابتدائية من أساس متجانس متين » فإن الدراسة في هذه المدارس لا تبتدىء ببداية « الأعمار المدرسية » ، كما هو شأن المدارس الابتدائية في سائر أنحاء العالم ، بل تبتدىء سنة أو سنتين بعد ذلك . لأن المدرسة الابتدائية لا تقبل إلا من يعرف القراءة والكتابة ؛ وهذه المعرفة لا تيسر بطبيعة الحال إلا بالتخرج من رياض الأطفال ، أو بالدراسة في الصفوف الأولى من المدارس الأولية سنتين أو أكثر ، أو بالدراسة في المنزل مدة غير محدودة . وإذا تركنا الدراسة المنزلية جانبا ، ولا حظنا الفروق العظيمة الموجودة بين أساليب التعليم والتربية المتبعة في رياض الأطفال من جهة ، وفي المدارس الأولية من جهة أخرى ، اضطررنا إلى القول بأن « أسس المدارس الابتدائية » في مصر بعيدة عن « التجانس » بعداً كبيراً . وإذا شبهنا تلك المدارس بالمباني ، نستطيع أن نقول إنها ليست مشيدة على الأرض المتينة ، بل قائمة على دعائم غير متجانسة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً من حيث الطول والعرض والعمق والمتانة

لهذا السبب يشاهد بين طلاب الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية فروق عظيمة من حيث العمر والمعلومات والقابلية العقلية من المعلوم أن « عدم التجانس بين الطلاب » من أخطر الآفات التي تعترى « نظام التعليم الجمعي » ومن أكبر المشاكل التي تعقد مهمة المعلمين الذين يقومون بتدريس عدد غير قليل من الطلاب في صف واحد ووقت واحد . ولذلك نجد أن رجال التربية في البلاد الغربية يبحثون عن ألف طريقة وطريقة لزيادة التجانس في الصفوف ، ويسعون دائماً للتأليف بين ضرورات التعليم الجمعي وبين مطالب الفروق الفردية وأما نظام التعليم الابتدائي المرعى في مصر — فبعكس ذلك — يزيد هذه المشكلة زيادة هائلة ؛ لأنه يضيف إلى الفروق الطبيعية فروقاً اصطناعية ناشئة عن اختلاف نتائج الدراسة السابقة

إن التخلص من مضار هذه المشكلة ليس من الصعوبة بمكان : إذ يكفي لذلك تغيير النظام الحالي على أساس « إتمام بناية المدرسة الابتدائية بإيصال أسسها إلى الأرض القوية » ، وجعلها مؤسسة تعليمية قائمة بنفسها ، تتعهد بتعليم وتربية الأطفال منذ بدء أعمارهم المدرسية دون أن تشكل على مؤسسات أخرى في تعليم القراءة والكتابة

— ٢ —

ومن المآخذ البارزة التي تلفت الأنظار في نظام التعليم في مصر هي « اصطباغ رياض الأطفال بصيغة مدرسية واضحة » ومن المعلوم أن رياض الأطفال تعتبر — عادة — بمثابة معاهد

« تربية قبل مدرسية ^(١) » *précolaire* تتعهد بتربية الأطفال « حتى بلوغهم الأعمار المدرسية » بالأساليب الملائمة للأعمار التي تتقدم تلك الأسفان بوجه عام

وأما نظام التعليم المتبع في مصر فينظر إلى « رياض الأطفال » بنظر « المدارس » تماماً . فإن التعليمات الرسمية المتعلقة بها تحمل عنوان « منهج الدراسة » و « مدارس رياض الأطفال » وتوصل عدد « الدروس » في الأسبوع إلى الأربعة والثلاثين ، وتكرر كلمات « الدرس » و « الدراسة » و « أوقات الدروس » و « خارج أوقات الدروس » على الدوام ، حتى أنها تنظر إلى « التهذيب » أيضاً كدرس من الدروس ، وتعين « الغرض من تدريس التهذيب للأطفال » ، وتبين كيف يجب أن « تلقى عليهم دروس التهذيب » ، وكيف يجب أن يجري « تدريس التأمل في مشاهد الطبيعة »

إن حركة التطور والتقدم السريعة التي حصلت في ساحة رياض الأطفال منذ بدء القرن الحالى - ولا سيما بسبب آراء وأعمال دكرولى ومونتسورى - اتجهت على الدوام نحو « تخليص رياض الأطفال من الصبغة المدرسية »

واعتقد أن أسباب بقاء رياض الأطفال في مصر بعيدة عن هذا الاتجاه بهذه الصورة تعود في الدرجة الأولى - إلى كيفية « تكوين المدرسة الابتدائية » إذ من الطبيعى أنه عند ما يطلب من رياض الأطفال أن تهيب الطلاب إلى المدارس الابتدائية المكونة على الطراز

(١) منحوتة من (قبل) و (مدرسية)

الذى ذكرناه آنفاً - ويحتم عليها تعليم القراءة والكتابة والحساب بالقدر الذى تتطلبه المدارس الابتدائية الحالية - يتعسر جعلها « دور تربية » أكثر من « بيوت تدريس » ، بل يصبح من الضرورى جعلها « مدارس من نوع خاص »

إن التعديل الذى يدخل على أسس المدارس الابتدائية - وفقاً للاقتراح الذى أدرجناه فى الفقرة السابقة - يفسح فى الوقت نفسه مجالاً واسعاً لإصلاح رياض الأطفال وفقاً للزغات التربوية الحديثة وجعلها بمثابة « معاهد تربية قبدسية » - كما تقتضيهما الزغات المذكورة - أكثر من « مدرسة إعدادية للمدارس الابتدائية » كما هى الآن

— ٣ —

غير أن أهم المآخذ التى تؤخذ على نظام التعليم فى مصر هى « الاختلاف العظيم بين الدراسة الابتدائية » وبين « الدراسة الأولية » ؛ إذ أن مناهج هذين النوعين من المدارس المصرية يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كلياً ، ولا توجد بينهما رابطة منظمة تسهل انتقال الأطفال من الواحدة للأخرى ، حتى ولا يوجد تماثل نسبي يساعد على تقريب تأثيراتهما فى نفوس الأطفال .

لنفرض أننا أخذنا جدولين يبين كل منهما خطة الدراسة المتبعة فى كل واحد من هذين النوعين من المدارس ، واستبدلنا فيهما تعبير « اللغة العربية » بتعبير « اللغة البيتية » أو « لغة الأم » ، وعرضنا الجدولين على أحد المربين من غير أن نخبره بماهيتهما ، فلا نشك فى

أنه عندما يقارن هذين الجدولين بعضهما ببعض ، سيظن أن كل واحد منهما يعود إلى مملكة ، وسيجزم بأن هاتين المملكتين تختلفان اختلافاً كلياً من حيث الحاجات والتقاليد والنزعات . وإذا أخبرناه بأن هذين الجدولين يعودان إلى مملكة واحدة سيقول بدون تردد : « إذاً يجب أن يكونا عائدين إلى دورين مختلفين من الأدوار التي مرت عليها حياة تلك المملكة » ، وسيظن أن هذين الدورين ينفصل بعضهما عن بعض بتطورات خطيرة وانقلابات عظيمة . وعلى كل حال سوف لا يتصور قط أن هذين الجدولين يمثلان مناهج الدراسة المتبعة في نوعين من المدارس التي تربي أبناء جيل واحد في مملكة واحدة ، بل في مدينة واحدة .

تصوروا جارين يسكنان محلة واحدة ، وافترضوا أن لكل منهما طفلاً في التاسعة من العمر ، غير أن الأول قد أرسل ابنه إلى مدرسة ابتدائية ، في حين أن الثاني أرسل ابنه إلى مدرسة أولية أو إلى مكتب عام ، ثم قارنوا الدروس التي سيتلقاها كل واحد منهما : تجدوا أن الأول سيخصص ستة في المائة من أوقات دراسته لتعليم الدين والقرآن ، في حين أن الثاني سيخصص ٢٨ في المائة من مجموع أوقات دراسته لنفس الموضوع ، كما أن هذه الأوقات ستصل إلى أربعين في المائة إذا ذهب الطفل إلى أحد المسكاتب العامة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأول سيخصص خمس مجموع أوقات دراسته لتعليم اللغة الإنجليزية ، وسيبدأ بدراسة تلك اللغة قبل أن يبدأ بتعلم قواعد اللغة العربية نفسها ، في حين أن الثاني سوف لا يتعلم شيئاً منها طول مدة دراسته المقبلة . وعلاوة على كل ذلك فإن الأول سيخصص أكثر من ربع أوقات دراسته

لرسم والأشغال اليدوية والتربية البدنية ، في حين أن حظ الثاني من هذه التمارين والأعمال سيكون شليماً بالعدم .

وإذا لاحظنا مدى تأثير هذه الفروق العظيمة في عقلية الأطفال ونفسياتهم ، وجب علينا أن نقول : إن نظام التعليم المتبع في مصر لا يساعد على تكوين « جيل موحد الشعور » .

كان يوجد في البلاد الغربية أيضاً بعض الفروق بين مناهج الصفوف الابتدائية التابعة للمدارس الثانوية وبين مناهج المدارس الابتدائية المستقلة عنها ؛ غير أن تلك الفروق كانت « طفيفة جداً » بالنسبة إلى الفروق الهائلة التي تشاهد بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية في مصر . ومع هذا قام علماء التربية ورجال السياسة في تلك البلاد بحملات عنيفة ضد تلك الحالة ، وأناروا حولها أبحاثاً دقيقة ومناقشات شديدة ، انتهت في معظم البلاد بتوحيد أسس الدراسة الابتدائية ، وفقاً لمبدأ « المدرسة الموحدة » ، ذلك المبدأ الذي يتلخص في عبارة :

« شعب واحد مدرسة واحدة »

أفليس من الغريب جداً ألا تبدأ في مصر إلى الآن أية حركة ضد هذا النظام ؟

إنني لا أجهل بأنه تولدت في مصر منذ مدة حركة مباركة تطالب بتوحيد التربية والتعليم وتعمل في سبيل ذلك بنشاط وقوة ؛ غير أنني ألاحظ أن أهداف وخطط تلك الحركة المباركة لم تتعد حدود « التوحيد بين المدارس الأميرية والمدارس الحرة » ، في حين أنني أعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه الحركة لا يمكن أن تثمر الثمرة الكافية إذا لم تسع لتوسيع

حدود عملها ، فستهدف في الوقت نفسه « توحيد أسس الدراسة في المدارس الأميرية نفسها » .

إن الفرق العظيم بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية كان من أول النقائص التي استوقفت أنظارى في نظام التعليم في مصر عندما زرت مدارسها للمرة الأولى سنة ١٩٢١ قبل مجيئى إلى العراق ؛ واستمرار هذه الفروق بدون معارضة وانتقاد صار من أهم ما لفت أنظارى عند زيارتى الثانية لها سنة ١٩٣٦

عرضت ملاحظتى هذه عند زيارتى الأولى على وزير المعارف يكتباب خاص . وعندما قدمت العراق علمت أن السلطة الإنجليزية نقلت النظام المبحوث عنه إلى العراق ، فأحدثت مدارس أولية تختلف بمناهجها عن المدارس الابتدائية . وأول الأعمال التي أقدمت عليها — عندما توليت إدارة المعارف العامة هنا — كان القضاء على ذلك النظام : فقد وُحِّدَت برامج الدراسة في السنين الأربعة الأولى توحيداً تاماً ، وجعلت الدراسة الأولية منطبقة على دراسة السنين الأربعة الأولى من المدارس الابتدائية كل الانطباق .

أقدمت على ذلك حينئذ تحت تأثير عقيدة تربوية اجتماعية ، قبل أن أرى مفعولها في كثير من البلاد بصورة فعلية ؛ فإن مبدأ « المدرسة الموحدة » كان قد دخل حديثاً في صلب دستور وإيمار في ألمانيا . غير أن معظم البلاد الأوروبية قد ظلت بعيدة عن الأخذ به ، كما أن جميع البلاد الشرقية — بما فيها تركيا — كانت معرضة عنه . إلا أن التطورات التي حدثت في نظم التعليم العام في تلك البلاد وسائر البلاد منذ ذلك

التاريخ ، أثبتت تماما أنني كنت مصيباً في ذلك العمل كل الإصابة .
أما يجب على مصر أيضاً أن تقوم بعملية مماثلة لذلك ، وتعيد النظر
في أسس نظامها التعليمي على مبدأ « توحيد أسس الدراسة » ؟

— ٤ —

ومن الأمور التي يجب أن تلاحظ بوجه خاص أن الفروق العظيمة
التي أشرنا إلى وجودها بين مناهج المدارس الابتدائية ومناهج المدارس
الأولية تقتزن بفروق مماثلة بين مدارس المعلمين الذين يتولون شؤون
التربية والتعليم في كل واحد من نوعي هذه المدارس

فإن معلمي المدارس الأولية يتخرجون من دور المعلمين الأولية ،
في حين أن معلمي المدارس الابتدائية يتخرجون من معهد التربية . غير
أن الفروق الموجودة بين دور المعلمين ومعهد التربية في مصر لم تكن من
نوع الفروق الاعتيادية التي تنتج من اختلاف « درجة التحصيل العام »
أو « أسلوب الاستعداد المهيئ » فحسب ، بل هي من نوع الفروق
العظيمة التي تنتج من اختلاف « نوع الدراسة ونزعتها » و (نوع
الثقافة التي تتولد منها) ، وذلك لأن دور المعلمين الأولية تستند على
المدارس الأولية فالمدارس الأولية الراقية وتستمر على خططها ونزعاتها ،
في حين أن معهد التربية مستند على المدارس الابتدائية والثانوية ويستمر
على خططها ونزعاتها

لا أود في هذا المقام أن أتطرق إلى خطط ومناهج كل من معهد
التربية ودور المعلمين الأولية ، وأبدي رأيي في هذه الخطط والمناهج

نفسها ؛ بل أود أن ألفت الأنظار إلى الفرق العظيم بين نوع الثقافة
وأتجاه العقلية التي تستند عليها وتتوصل إليها كل واحد منهما . وأقول :
إن الفروق العظيمة التي شرحنا وجودها بين مناهج الدراسة الابتدائية
والأولية تشتد وتنقوى بصورة هائلة ، خلال تطبيق تلك المناهج من
جاء الهوة العميقة بين معاهد معلمى المدارس الابتدائية والأولية .
ولهذا السبب تصل « ثنائية التربية والتعليم في مصر » إلى أقصى الدرجات
التي يمكن أن يتصور الإنسان وجودها في مملكة واحدة

كثيراً ما تصفحت التقارير التي قدمها الخبراء الفنيون الذين
استقدمتهم الحكومة المصرية للاسترشاد بأرائهم في إصلاح معارفها ،
وأردت أن أطلع على رأيهم في هذه الثنائية ، ولو من خلال التقارير
التي قدموها ، وعلمت أنهم لاحظوا هذه الثنائية ، غير أنهم لم يبدوا أى
اعتراض عليها . ويقلب على ظني أن السبب في ذلك كان اعتقادهم بأن
هذه الأمور تتعلق بتقاليد مصر وزعاتها التي لا تجوز المناقشة حولها .
لأنهم قسموا النظام التعليمي في مصر إلى قسمين ، عنوانوا أحدهما بعنوان
« المدارس التي على النمط الأوربي » واكتفوا بإبداء بعض الملاحظات
لإصلاح كل واحد من هذين النظامين على حدة . غير أنني أرى من
الضروري أن نتساءل قبل كل شيء هل يجوز أن يكون في مملكة
واحدة نظامان من المدارس ، أحدهما على « نمط أوربي » والآخر على
« نمط محلي أو غير أوربي »

أعتقد أن ذلك مما لا يجوز بوجه من الوجوه . فعلى مصر أن
تأخذ من الأنماط الأوربية ما يلائم حالاتها وحاجاتها ، وتوجد نمطاً قومياً

خاصاً بها . فلا يجوز لها قط أن تؤسس صنفاً من المدارس « على النمط الأوربي » بجانب صنف آخر يبقى على نمط غير أوربي . وإذا كان لوجود هذين النمطين بعض المستوجبات والمبررات في بدء تأسيس المعارف فلا يمكن أن يكون لبقائهما أى موجب بعد أن وصلت مصر إلى هذه المرحلة من مراحل نهوضها ، وبعد أن صارت تحكم نفسها بنفسها

يظهر أن مصر ألفت هذا النظام المزدوج منذ مدة طويلة . وربما كانت هذه الألفة الطويلة من أهم الأسباب التي حالت دون انتباه مفكرى مصر إلى أضرار هذا النظام ، ودون إقدامهم على تغييره غير أننى أعتقد بأن إعادة النظر في أسس النظام التعليمى فى مصر على مبدأ « توحيد أسس الدراسة » أصبحت من أهم الإصلاحات الضرورية لمصر فى بدء نهضتها السياسية والاجتماعية الحديثة . فإن بقاء نظام التعليم على ما هو عليه من (الثنائية) dualité يكون خطراً على وحدة الشعور التي يجب أن تسود فى البلاد

قد يقول قائل : لا خوف على وحدة الشعور فى مصر أبداً ؛ لأن هذه الوحدة قد تجلت بأجلى مظاهرها خلال كفاح المصريين الطويل ضد الحماية والاستعمار ؛ غير أننى أقول بأن (وحدة الشعور) التي عملت عملها خلال ذلك الكفاح كانت (وحدة) من نوع خاص تكونت تجاه عدو مادي وخارجي استمر فى إرهاق نفوس الجميع مدة تئيف على نصف قرن . أما الآن فستدخل مصر فى حياة كفاح جديدة تتطلب النضال فى سبيل إصلاح النقائص الداخلية وضمان التقدم فى

جميع مناحي الحياة

إن وحدة الشعور التي تكونت وتجلت خلال الكفاح السيامي لا تلبث أن تندثر في هذا النضال الإصلاحى ، إذا لم تغدّ بتربية موحدة مستندة على نظام تعليمى موحد

ولذلك أقول : إن إعادة النظر فى أسس نظام التعليم أصبح من الواجبات التي تترتب على مصر فى مستقبل حياة النهوض التي دخلتها الآن ...

- ٥ -

هذه ملاحظات تتعلق بأسس نظام التعليم فى مصر أبسطها أمام الرأي العام المستنير بكل احترام وصراحة وإخلاص . وأرجو أن لا يعتبرنى أحد متطفلاً على مصر بهذه الملاحظات ، فإنى عربى صميم أدين بدين العروبة بكل جوانحي ، وأهتم بمصر بقدر ما أهتم بسورية والعراق . ولا أكون مغالياً إذا قلت : إننى أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق ، لأننى أعرف أن مصر — بحسب أوضاعها العامة — أصبحت (القدوة المؤثرة) على العالم العربى بأجمعه . فأعتقد لذلك أن كل تقدم يحصل فى مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية ، كما أن كل نقص يعيش ويستمر فى مصر لا يخلو من ضرر العدوى إلى سائر البلاد العربية

فكل خدمة تسدى إلى مصر تكون كأنما أسديت إلى سائر البلاد العربية بأجمعها

(*) معارف مصر في حواية المعارف الأئمية

حمل إلى البريد ، قبل يومين ، الحولية الأئمية التي نشرها مكتب التربية الأئمي ، عن التربية والتعليم في جميع أنحاء العالم خلال سنة ١٩٣٩ عند ما أخذت أقلب صفحاتها للتعرف بها تعرفاً إجمالياً — استعداداً لدرسها درساً تفصيلياً فيما بعد — توقفت في بعض فصولها أكثر من غيرها وقبل غيرها ؛ وإن الفصل الخاص بمصر (ص ١٨٠ إلى ٢٠١) كان من جملة تلك الفصول بطبيعة الحال

وما كدت ألقى نظرة سريعة على الصفحتين الأوليتين من هذا الفصل ، وأستعرض الأرقام الإحصائية المدرجة فيهما ... حتى لاحظت فيهما ما يثير الضحك والألم في وقت واحد

يفهم من هذه الإحصائية أن مدارس الأطفال في مصر تربي ٢٤٤٨ طفلاً ، والمدارس الابتدائية الأميرية تعلم ٢٩٧٧٥ تلميذاً ، والمدارس الابتدائية الخصوصية تجلس على كراسيها ٥٣٤٨٩ من التلاميذ ، وهذا هو كل ما في مصر من المدارس الخاصة بتعليم الأطفال — قبل بلوغهم سن الدراسة الثانوية — حسب ما يظهر من هذه الإحصائية ...

لولم أكن أعرف حالة المدارس المصرية معرفة سابقة ، لكنت مضطراً إلى تكوين فكرة عامة عن المدارس المصرية مستنداً إلى أرقام هذه

الإحصائية وحدها ولقلت حالاً : ما أتعس مصر ، وما أشقى أطفالها ...
لأن هذه الأرقام تدل على تأخر فظيع ، لا بالنسبة إلى الأمم والدول
الأوربية والأميركية فحسب ، بل بالنسبة إلى الأمم والدول الشرقية
نفسها ؛ ولا بالكمية النسبية فحسب ، بل بالكمية المطلقة أيضاً ...
فإن العراق يسبق مصر — في هذا المضمار — بمراحل عديدة ، وأما إيران
فتسببها بعشرات المراحل نظراً إلى هذه الأرقام ...

فإن عدد طلاب المدارس الابتدائية الأميرية في العراق يناهز ثلاثة
أمثال طلاب تلك المدارس في مصر — مع أن عدد نفوس العراق لا يبلغ
ثلث نفوس مصر . وأما عدد طلاب المدارس الابتدائية في إيران ، فلا يقل
عن ثمانية أمثال طلاب مصر ، مع أن عدد نفوسها أقل من نفوس مصر
على كل حال ...

ولا مجال للشك في أن كل من يراجع الحولية الأسمية المذكورة
من الأوروبيين والأمريكيين ، سيلاحظ هذه الملاحظة ... وسيقول :
ما أفدح هذا التأخر الأليم في بلاد غنية مثل مصر ، وفي شعب عريق
في الحضارة مثل المصريين !

قد يقول البعض ممن يقرأون هذه الأسطر ، لا بد في أن يكون
هناك خطأ في الأرقام . ولا يستبعد أن يكون هذا الغلط متأتياً من نقص
المعلومات التي جمعها مكتب التربية الأسمى عن المدارس المصرية ؛
غير أن هناك ما ينفي هذا الاحتمال نفيًا باتاً : لأن الفصل الذي
يرافق إحصائية المعارف في مصر لسنة ١٩٣٩ ، ما هو إلا تقرير رسمي

رفعه مندوب الحكومة المصرية الدكتور محمود فهمي - كما هو مصرح به
في أسفل الصفحة ١٨٢ من الحولية

فلا يحق لأحد أن يشك والحالة هذه في صحة الأرقام المدرجة هناك .
ومع كل هذا ، فانا أعرف أن النتيجة التي يصل إليها الباحث
- في هذه الأرقام - لا توافق الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه ... أنا
أعرف أن هذا المظهر الغريب الذي تظهر به معارف مصر - في مثل
هذه الإحصائيات - يعود إلى سبب مهم ، كنت لفتُ إليه الأنظار
على صفحات (الرسالة) قبل نحو ثلاث سنوات

إن نظم التعليم المرعية في مصر لا تفهم من تعبير « المدرسة
الابتدائية » ما يفهمه - رجال التربية والتعليم وجميع الناس على حد
سواء - في جميع أنحاء العالم ... فإن المدرسة الابتدائية في مصر مدرسة
من نوع خاص وهي مؤسسة غريبة شاذة من وجوه عديدة ...

كنت انتقدت أوضاع هذه المدارس بشدة في المقالة التي نشرتها في
العدد ١٨٧ من مجلة الرسالة - بتاريخ ١ فبراير سنة ١٩٣٧ - وبعنوان
« نقد نظام التعليم في مصر » وكنت شرحت المحاذير الجوهرية التي تنأت
من الاستمرار على تلك النظم ...

وما كنت أتصور عندئذ ، أن كل شيء سيبقى على حاله ،
وسيؤول إلى ظهور مصر بهذا المظهر الغريب ... في الحولية الأُمّية ...
بعد ثلاث سنوات ...

(*) التعليم الإلزامى في مصر

ملاحظات هامة حول مكافحة الأمية

قرأت في مجلة مصرية مقالاً لأحد الأساتذة يقول فيه : « إن تقارير مفتشى التعليم ومراقبيه أظهرت في السنين الأخيرة شيئاً جديداً لم يكن ملحوظاً من قبل ، وهو أن الأولاد الذين يمارسون الزراعة في الحقل ، أو الصناعة في العمل ، أو التجارة في السوق ، من متخرجي المدارس الإلزامية ، لا تكاد تمضى عليهم أربعة سنوات أو خمس حتى ينسوا القراءة والكتابة ، وتمحى من ذاكرتهم البقية الباقية من الحروف الأبجدية ، فيعودون بذلك إلى الأمية مرة أخرى ... »

لم أطلع على نصوص التقارير التي يشير إليها صاحب المقال ، فلا أعرف تفاصيل ما لاحظته المفتشون في هذا الباب . ومع ذلك لم أجد في هذه النتيجة شيئاً يستوجب الاستغراب ، نظراً إلى ما أعرفه عن الظروف المحيطة بالتعليم الإلزامي في مصر من جهة ، وعن التجارب التي مرت على الأمم الغربية في هذه القضية من جهة أخرى .

لا أشارك الكاتب في الأسباب التي يعزو إليها هذه النتيجة ؛ كما لا أوافقه على الوسائل التي يقترحها لمعالجة القضية . على أنني لا أرى لزوماً لمناقشة الآراء الواردة في المقال المبحوث عنه ؛ بل أرجح أن أبحث عن

القضية من « أساسها » ، بقطع النظر عن آراء الكتاب فيها .

— ١ —

يظن الكثيرون أن « تعليم القراءة من الأمور البسيطة » التي يستطيع أن يقوم بها كل من « يعرف القراءة والكتابة » ، وبالأحرى كل من يعلم شيئاً عن « مبادئ أصول التدريس » ، في حين أن هذا التعليم من الأعمال الدقيقة المحفوفة بالمزالق الكثيرة التي لا يمكن تجنبها إلا بيقظة متواصلة وتمارين خاص ؛ لأن « تعليم القراءة » لا يعنى « تعويد الطالب على قراءة بعض الكتب المعينة » ، بل يعنى « إكساب الطالب مقدرة على قراءة أى كتاب كان » .

ومع ذلك ، فكثيراً ما نجد أن المعلمين لا يقدرّون خطورة هذا المبدأ حق التقدير ؛ فيوجهون جهودهم إلى تعليم القراءة من الكتب المدرسية المخصصة لهذا الغرض ، دون أن يحرصوا الطلاب على القراءة السريعة بوجه عام . في حين أن الطلاب كثيراً ما يتعلمون قراءة تلك الكتب على طريقة الاستظهار ، دون أن يتعبوا أنظارهم وأذهانهم بتتبع الكلمات المطبوعة في سطورها . وكثيراً ما ينخدع المعلمون بسرعة هذه القراءة ، فلا ينتبهون إلى أن الطالب قد قرأ معظم ما قرأ عن ظهر الغيب دون ملاحظة الكتاب . وهذه الحالة تقشو بوجه خاص عندما يكون الصف مزدحماً بالطلاب ، وعندما يتمشى المعلم في تدريسه على طريقة ميكانيكية لا نصيب فيها إلى اليقظة والاهتمام . يقرأ المعلم العبارة بنفسه بصوت جهورى ، ثم يطلب قراءتها من أحد الطلاب ، ثم من ثان ، فثالث ،

فرايع ... ويكرر هذه العملية عشرات المرات . وكثيراً ما ينصرف أنظار القسم الأعظم من سائر الطلاب — خلال هذه القراءة وهذا التكرار — عن أسطر الكتاب إلى أشياء أخرى . غير أن آذانهم تبقى معرضة إلى تأثير الألفاظ التي يلفظها المعلم ويكررها سائر الطلاب بطبيعة الحال . وإذا ما تكررت قراءة العبارات مراراً ، يكون هؤلاء الطلاب قد حفظوا الشيء الكثير منها عن طريق السمع . وإذا ما جاء دورهم في القراءة أخذوا يقرأونها « قراءة ظاهرية » ، تكون حصة النظر فيها محدودة جداً ؛ ويكون العامل الأصلي في سرعتها هو الحافظة السمعية وحدها .

ولذلك كثيراً ما نرى بعض الطلاب « يقرأون دون أن ينظروا » ؛ وإذا ما طلب إليهم أن يبدأوا القراءة من محل غير المحل المعتاد يضطرون إلى التهجى ، فيقرأون بتلعثم وتردد وبطء . غير أنهم إذا ما تمكنوا من قراءة الكلمة الأولى بعد هذا الجهد فتذكروا الكلمة التي تليها ، أخذوا يستعينون بذاكرتهم السمعية ، فصاروا يقرأون ما بعدها بسرعة واسترسال . وكثيراً ما لا ينتبه المعلمون إلى « حقيقة الأمر » في هذه القراءة الظاهرية وينخدعون بهذه السرعة ، ويظنون أنهم نجحوا في تعليم القراءة .

شاهدت هذه الحالة في عدد غير قليل من المدارس ، في دروس مئات من المعلمين . وما أعرفه عن مدارس التعليم الإلزامي في مصر يخولني حق الجزم بأن هذه الحالة ليست من الأمور النادرة هناك أيضاً .

وعند ما تكون طريقة تدريس القراءة مشوبة بهذه الصورة بنواقص وشوائب كثيرة ، فلا حاجة للبيان بأن عدداً غير قليل من الطلاب

عند ما ينتهون من الدراسة الإلزامية لا يكونون قد تعلموا القراءة بكل معنى الكلمة؛ بل يكونون قد تعلموا قراءة بعض الكتب قراءة لم تخرج من دور التهجي والتردد إلا بإعانة الذاكرة السمعية. فهل من مجال للاستغراب، إذا ما فقد هؤلاء خلال بضع سنوات ما كانوا قد اكتسبوه من المقدرة السطحية في القراءة الميكانيكية، فعادوا إلى الأمية بصورة تدريجية؟ فإذا أردنا أن ننجو من هذه المزلقة الأليمة، يجب علينا أن نهتم بإصلاح طرق تعليم القراءة، ونسعى إلى حمل الطلاب على قراءة كتب متنوعة، فنتجنب كل ما من شأنه أن يجعل القراءة ميكانيكية وظاهرة...

- ٢ -

على أنى أصرح بأن كل ذلك أيضاً لا يضمن معالجة المشكلة التي نبحث فيها، معالجة قطعية؛ لأن (مقدرة القراءة) في حد ذاتها، ليست من الأمور التي ترسخ في النفس بمجرد اكتسابها. بل هي من القابليات التي لا تعيش وتمو إلا بالعمل والتكرار والمران. إنها من القابليات التي تضعف وتلاشى شيئاً فشيئاً، عند ما تبقى (عاطلة)، ولا تجد مجالاً للعمل بصورة متواصلة...

افرضوا طالباً مجتهداً ونديهاً، قد تعلم القراءة بصورة جيدة، فأصبح قادراً على قراءة الكتب بدرجة مرضية. ثم تصوروا أن هذا الطالب يرك القراءة فعلاً بعد خروجه من المدرسة، فقد مضى عليه عدة سنوات

دون أن يقرأ شيئاً ، ودون أن يجد في بيئته دافعاً يدفعه إلى استعمال قابلية القراءة التي كان قد اكتسبها قبلاً . لا شك في أن هذه القابلية سوف لا تحافظ على قوتها مدة طويلة من الزمن ، بل ستكون عرضة للضعف بصورة تدريجية . وسيزداد هذا الضعف على ممر السنين ، فيعود صاحبها إلى دور القراءة بالتهجى كالمبتدئين . وإذا استمر الحال على هذا المنوال مدة أخرى ، فسيفقد قابلية القراءة التي كان اكتسبها في المدرسة ، وسيعود إلى الأمية مرة أخرى

وهذا هو ما يحدث في الحياة الاعتيادية في كثير من الأحيان . ينتهى الطفل من التعليم الإلزامى فيترك المدرسة ويذهب إلى الحقل أو العمل للاشتغال مع والديه . ولا يجد هناك فرصة لتغذية القابلية التي كان اكتسبها ، ولا يشعر بدافع يدفعه إلى قراءة شئ . يحرك ويمجد تلك القابلية ، فينسى في حياته الجديدة ، بصورة تدريجية كل ما كان اكتسبه في حياته المدرسية

إن القول بأن « التعليم في الصغر كالنقش في الحجر » بصورة مطلقة ، لا يتفق مع الحقائق الراهنة : فإن الدماغ ليس من نوع الأحجار الجامدة التي تحافظ على كل ما ينقش عليها . فالقابليات التي يكتسبها الدماغ ، لا تشبه النقوش التي تحفر على الحجر بوجه من الوجوه . ولا سيما دماغ الطفل ، فإنه يمتاز بمرونة كبيرة ، يكتسب بسرعة ، غير أنه قد يفقد أيضاً بسرعة

هذه حقيقة هامة ، يجب أن نضعها نصب أعيننا عند ما نفكر في أمر التعليم الإلزامى ومكافحة الأمية . يجب علينا أن نهتم بتغذية قابلية

القراءة وتقويتها — بعد المدرسة — بقدر ما نهتم بتوليدها وتثمتها في المدرسة . يجب علينا أن نتوصل بشتى الوسائل التى تدفع إلى القراءة — بعد الانتهاء من الدراسة الإلزامية — خلال مزاوله أعمال الحياة الاعتيادية ...

وبإلا وجب علينا ألا نستغرب ، إذا ما وجدنا (قابلية القراءة) التى بذلنا كل تلك الجهود فى سبيلها ، أخذت تندثر وتلاشى شيئاً فشيئاً . و (الأمية) التى قضينا كل تلك الأوقات فى سبيل مكافحتها ، داخل المدرسة وفى سن الطفولة ، عادت إلى الحكم بعد مدة ، فاستولت على النفوس تدريجاً فى ساحة الحياة وفى سن الرشد والشباب

إن تجارب الأمم الغربية — المسطورة فى تواريخ معارفها — تؤيد الملاحظات النظرية التى سردناها آنفاً : فإن رجال معارف تلك الأمم أيضاً كانوا اصطدموا بالمشكلة التى بحثنا عنها فى بدء انكبابهم على تعميم التعليم ومكافحة الأمية ؛ وهم أيضاً كانوا لاحظوا — عندئذ — أن معظم الطلاب الذين يتخرجون من المدارس الابتدائية ويدخلون معترك الحياة ، ينسون بصورة تدريجية الكثير مما كانوا تعلموه فى المدرسة خلال سنى التعليم الإلزامى ، وكثيراً ما يصل بهم الأمر إلى درجة نسيان الأبجدية إن هذه النتيجة ظهرت للعيان ، على وجه أخص عند ما أخذوا يفحصون معلومات الراشدين الذين يبايعون السن العسكرية ويدخلون الثكنات . فقد وجدوا بين هؤلاء الجنود عدداً غير قليل من الذين لا يستطيعون أن يقرأوا شيئاً على الرغم من أنهم كانوا قد تعلموا القراءة

والسكتابة — في طفولتهم — في المدارس الابتدائية التي داوموا فيها
ولذلك أخذوا يبذلون الجهود الكبيرة لمعالجة هذه المشكلة ،
ويتوسلون بوسائل شتى لتتوفى هذه النتيجة .

وكان من جملة الوسائل التي توسلوا بها إنشاء دروس ومدارس
تجمع الراشدين أيام الأحد ، أو أحد ليالي الأسبوع ، طول السنة ، أو
خلال بعض الأشهر منها ، بقصد « تكرار » و « ترسيخ » المعلومات التي
كانوا اكتسبوها خلال دراستهم الابتدائية .

إن الألمان الذين كانوا أسبق أمم الغرب إلى تطبيق نظام التعليم
الإلزامي أحدثوا مثل هذه الدروس منذ القرن الثامن عشر ، وجعلوا
المواظبة عليها من الأمور المحتمة على كل فرد منذ انتهائه من الدراسة
الابتدائية حتى دخوله الخدمة العسكرية .

إن كثيراً من الأمم الغربية حذت حذو الألمان في هذا الباب ، في
القرن التاسع عشر ، وأنشأت مثل هذه الدروس والمدارس تحت أشكال
وأسماء مختلفة .

في الواقع أن الحاجة إلى التوصل بمثل هذه الوسائل قد زالت من
من الغرب ، نظراً إلى انتشار القراءة والسكتابة بين جميع الطبقات ،
وازدیاد حاجة الناس إليها في كل البيئات ، وفي جميع نواحي الحياة ،
وانتشار الكتب التي تاذ الناس وتفيدهم مع ازدياد المكتبات التي أصبحت
في متناول أيديهم . فإن كل ذلك لم يترك لزوماً — في البلاد الغربية —
لإدامة الدروس والمدارس التي كانت تستهدف « التكرار » و « الترسيخ » .
ولذلك حدث تطور عظيم في أهداف الدروس والمدارس الخاصة بالراشدين .

غير أن الأهداف الحالية والتطورات الأخيرة يجب ألا تنسينا الغرض الأصلي الذي كان استوجب إنشاء مثل هذه الدروس والمدارس .
ويجب أن نلاحظ على الدوام أن تلك الدروس والمدارس لعبت دوراً هاماً في ضمان نجاح التعليم الإلزامي ، ومكافحة الأمية في عهدها الأولى ...

أعتقد أن الملاحظات الآتية الذكر تكفي لإظهار أنواع الواجبات التي تترتب على وزارات المعارف التي تهتم بأمر التعليم الإلزامي ومكافحة الأمية :

يجب عليها أن تسعى لتحسين طرق تدريس القراءة ، وتدريب المعلمين للقيام بأعباء هذا التدريس خير قيام . كما يجب عليها أن تتخذ التدابير اللازمة لإيجاد سلسلة كتب ونشرات ملائمة لحاجات الناس وميولهم ، على اختلاف مناهجهم وبيئاتهم . ويجب عليها أن تتوسل بوسائل متنوعة لنشر تلك الكتب بين الناس ، لتسهيل تغذية رغبة المطالعة في نفوسهم . وأخيراً يجب عليها أن تتوسل ببعض الوسائل التي تضمن اجتماع الشبان في المدرسة من حين إلى حين ، بعد انتهاءهم من سنى التلميم الإلزامي لإدامة علاقتهم بالدرس والمطالعة بصورة منتظمة . وإذا لم تفعل ذلك يجب أن تعلم جيداً بأن الجهود التي تبذلها والنفقات التي تنفقها في سبيل نشر التعليم في الأرياف وبين جميع طبقات الناس ، لا تثمر ثمرة كافية ، ولا يستبعد أن يذهب معظمها هباءً منثوراً .

أتهز هذه الفرصة لأثقت أنظار وزارات المعارف في البلاد
 - ولا سيما في البلاد العربية وخصوصاً في مصر - إلى هذه الواجبات التي
 تقترب عليها لإتمام مهمتها في نشر التعليم ومكافحة الأمية بصورة فعلية .
 قلت : وخصوصاً في مصر ... لأنها هي المملكة العربية الوحيدة
 التي استطاعت أن تسن قانوناً للتعليم الإلزامي ، وأن تضع خطة عملية
 لتنفيذ أحكام ذلك القانون ، وتحقيق نشر التعليم بين جميع طبقات الناس
 وفي جميع أنحاء البلاد .



تعليم اللاتينية واليونانية

يدعو منذ مدة كبير من كبار قادة الفكر في مصر ، إلى إدخال اللاتينية واليونانية في مناهج المدارس الثانوية ؛ ويرى أن ذلك من ضرورات الثقافة العامة الراقية التي يجب أن تصبو نفوسنا إليها . ولقد انتقدت هذا الرأي بسلسلة مقالات نشرت في مجلة « الرسالة » سنة ١٩٣٨ . ورأيت أن أثبت فيما يلي القسم المتعلق بـ « جوهر المسألة » من المقالات المذكورة بقطع النظر عن أقسامها الأخرى

— ١ —

يثير الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) مسألة « اللاتينية واليونانية » بشكل يستلفت الأنظار ويستدعي الاهتمام : يستهل كلامه الطويل عن هذه المسألة (ص ٢٨٥ — ٣٠٢) بقوله « إن وزارة المعارف لا تريد أن تقف عندها ولا أن تفكر فيها ، لأنها غريبة بالقياس إليها ، بل هي غريبة شاذة بالقياس إلى الكثرة العظمى من المثقفين المصريين مع أنها في نفسها ، من أوضح المسائل وأجلاها ... » ثم يستعرض الأدوار التي مرت على هذه المسألة في مصر ، ويشرح بإيجاز كيف « أن صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا كان قد شعر بخطور هذه المسألة وهم بجعلها » عند ما كان وزيراً للمعارف . فقد بدأ بإدخال اللاتينية واليونانية في بعض المدارس الثانوية ، وأقر تعليم هاتين اللغتين

في الجامعة — بالقياس إلى كلية الآداب والحقوق — غير أنه لم يمتص
 زمن طويل على ذلك ، حتى ألغيت اللاتينية واليونانية من المدارس
 الثانوية وقام « صراع عنيف حول إقرار اللاتينية بالقياس إلى كلية
 الحقوق ، وانتهى هذا الصراع بانتصار خصوم اللاتينية ... »

يصف الدكتور طه حسين « الحالة الحاضرة » التي نجمت عن ذلك
 بأشد أوصاف اللوم وأعنفها ؛ فيبذل في حديثه كلمات « المضحك ،
 الخجل ، الخزي ... » ويوصل الأمر إلى درجة استعمال الذع التعبيرات
 وآلمها من « الرضاء بالهوان » إلى « الاستخذاء أمام الأوربيين »
 و « الاطمئنان إلى الخزي المبين » ...

وذلك لأنه يعتقد بضرورة اللاتينية واليونانية للثقافة العالية ، ويعبر
 عن اعتقاده هذا بكلمات قاطعة فيقول :

« أنا مؤمن أشد الإيمان وأعظمه وأقواه ، بأن مصر لن تظفر بالتعليم
 الجامعي الصحيح ، ولن تفلح في تدير مراقفها الثقافية الهامة ، إلا إذا
 عنيت بهاتين اللغتين ، لا في الجامعة وحدها ، بل في التعليم العام قبل
 كل شيء . (ص ٢٨١) لأن اللاتينية واليونانية أساس من أسس العلم
 والتخصص (ص ٢٨٥) فيجب أن تفرضنا على كل من يريد العلم الخالص
 والتخصص فيه (ص ٢٧٦) و « لأن التعليم العالي الصحيح لا يستقيم
 في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما
 من الوسائل التي لا يمكن إهمالها والاستغناء عنها » (ص ٢٩٢) .
 ولهذا السبب ، يوجه الدكتور إلى معارضيه السؤال التالي ، ويحجب
 عليه بالملاحظات التي تليه :

« والسؤال الذى يجب أن نلقيه وأن نحجب عنه فى صراحة وإخلاص وفى وضوح وجلاء هو هذا السؤال : أنريد أن ننشئ فى مصر بيئة للعلم الخالص تشبه أمثالها فى البيئات العلمية فى أى بلد من البلاد الأوروبية الراقية أو المتوسطة أم لا نريد ؟ فإن كانت الثانية فقد خسرت القضية ، وليست مصر فى حاجة إلى يونانية ولا إلى لاتينية ، وليست مصر فى حاجة إلى الجامعة وإلى كلياتها ، بل حسبها أن تعود إلى عهدها أيام الاحتلال ، وأن تسير سيرة المستعمرات وتسكتفى ببعض المدارس العالية لتخريج من تحتاج إليهم من الموظفين . وإن كانت الأولى فقد ربحت القضية ، ولا بد من العناية بهاتين اللغتين لا فى الجامعة وحدها ، بل فى المدارس العامة أيضاً ^(١) (٢٨٨)

يظهر من هذه العبارات أن الدكتور يعتبر هاتين اللغتين من لوازم الجامعة الأساسية ، ويدعى أن عدم العناية بهما لا يختلف كثيراً عن طلب

(١) يستعمل الدكتور طه حسين فى الفقرات التى نقلناها آنفاً ، وفى سائر الأقسام فى كتابه تعبيرات (التعليم العام والمدرسة العامة) ، بمعنى (التعليم الثانوى والمدرسة الثانوية) فيخرج على المقول والمألوف (فى وقت واحد ، باستعمال هذه التعبيرات - على هذا المنوال - استعمالاً مخالفاً لمعانيها القوية من جهة ، ولما فيها الاصطلاحية من جهة أخرى . نظن أن الدكتور أراد أن يقضى بالانكليز الذين يسمون نوحاً من مدارسهم الثانوية بمثل هذا الاسم Public School غير أننا نود أن نلفت الأنظار إلى أن هذا الاسم عندهم فى الموارث التاريخية التى لم تعد تنطبق على معانيها بوجه من الوجوه . لأنهم كانوا سموا التعليم فى تلك المدارس باسم (التعليم العام) تمييزاً له (من التعليم الخاص) الذى كان يجرى فى بيوت الخواص على أبهى معلمين خاصين ، وذلك قبل أن تتولد فكرة التعليم العام بالمعنى الذى نفهمه الآن

فاذا كانت التقاليد الانكليزية المؤسسة فى هذا الباب ، تحمل القوم على الاستمرار فى استعمال هذا الاسم الموروث من سالف القرون ، بالرغم من عدم مطابقته لمعناه الحاضر ، فهل يجوز لنا نحن أن نقضى بهم فى مثل هذه التسميات الشاذة ؟

إلغاء الجامعة نفسها ، ويرى بأن ذلك لا يجوز إلا إذا طُلب من مصر
أن نعود إلى عهدها أيام الاحتلال وأن تسير سيرة المستعمرات ...
وقد يخطر على بال القارى أن يسأل مستغرباً : إذا كانت المسألة
بهذه الدرجة من الوضوح والجلاء فكيف وجدت هذه المقاومة وهذا
الازورار في دوائر المعارف ومحافل المثقفين ؟ إن الدكتور يبدى هذا
الاستغراب فيقول : ومن أغرب الأشياء في نفسى وأبعدها عن فهمى
ألا يفتن لها ولا يهتدى إليها الذين ينهضون بشئون مصر ويقومون على
تدبير الأمور فيها ، والذين يشرفون على التعليم فيها بنوع خاص ...
(ص ٢٨١)

يبعث الدكتور - مع هذا - عن أسباب هذه المقاومة عدة
مرات ، فيعزوها مرة إلى عوامل عرضية مثل استياء الإنكليز من انتخاب
معلمى هاتين اللغتين من الفرنسيين والبلجيكين (ص ٢٧٥) ، أو كيد
أستاذ من أساتذة كلية الحقوق للعميد الأول لكلية الآداب الحكومية
(٢٧٩) ، غير أنه يعزوها في المرة الثانية إلى عوامل أساسية تتلخص
- من حيث الأساس - في نقص ثقافة القائمين بشئون التعليم في مصر
(ص ٢٨١)

يقول المؤلف في هذا الصدد : وأكبر الظن أن مصدر هذا إنما هو
أن الجيل الحاكم والمرتقى إلى الحكم لا يتقن العلم بالشئون الثقافية في أوروبا
ولا يكاد يعرف منها إلا ظواهرها ، وظواهرها القريبة السيرة التي
لا يحتاج فهمها ولا العلم بها إلى جهد ولا عناء (ص ٢٨١)
إذ أن منهم من تعلم في المدارس المصرية واتهمى إلى غاية التعليم

العالي المصرى أيام الاحتلال ، ثم وقف عند ذلك ولم يتجاوزه فلم يعرف من حقيقة التعليم شيئاً أو لم يكد يعرف منه شيئاً .. (ص ٢٨١) . ومنهم من اتصل بالجامعات الأوربية قبل أن يتم التعليم العالي فى مصر أو بعد أن أتمه فدرس فيها وظفر ببعض إجازاتها ، ولكنه درس فيها عجلاً وظفر بأيسر إجازاتها وأهونها وانتفع فى هذا كله بنظام المبادلات التى تقره الجامعات الأوربية لتيسر على الأجانب الاختلاف إليها ، وترغبهم فى الاتصال بها . . (ص ٢٨٢) ، ولذلك عاد من أوربا دون أن يعرف من الحياة العقلية الأوربية إلا ظواهرها وأشكالها ... (ص ٢٨٣)

وإن « بين الذين ذهبوا إلى أوربا وعادوا منها وبين الذين أقاموا فى مصر واتصلوا بأوربا بعض الاتصال ، من ألم المأماً يسيراً بل المأماً ناقصاً مشوهاً بهذه الخصومة التى قامت فى أوربا منذ أواخر القرن الماضى بين الديمقراطيين والمتطرفين من جهة ، وبين المعتدلين والمحافظين من جهة أخرى حول تعليم اللاتينية واليونانية » (ص ٢٨٤)

« إنهم فهموا هذه الخصومة على غير وجهها الصحيح ، وظنوا أن التجديد يقتضى بعض هذه الأشياء القديمة » ولم يخطر لهم أن يتعمقوا هذه الخصومة ولا أن يتبينوا موضوعها وغايتها » (ص ٢٨٥)

« إن المقاومة التى تلقاها اللاتينية واليونانية فى مصر نشأت من هذا النقص الأساسى . فلو خطر لهؤلاء أن يتعمقوا هذه الخصومة لعرفوا أن موضوعها « لم يكن ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة وإنما كان ضرورة فرضهما على جميع التلاميذ الذين يختلفون إلى المدارس الثانوية ويتصلون بالتعليم العالي على اختلاف فروعه وألوانه

لا سيما بعد أن انتشر التعليم وطمعت فيه الطبقات كلها طبقات الأغنياء
والفقراء وأوساط الناس» (ص ٢٨٥)

يحاول الدكتور أن يصحح مزاعم هؤلاء فيؤكد أن « موضوع
الخصومة كان في حقيقة الأمر هذه المسألة : أيجب أن يتهياً الناس جميعاً
للعلم والتخصص ليصبحوا جميعاً قادة للرأى ومديرين للأمور العامة ،
أم يجب أن يتهياً بعضهم لحياة العلم والتخصص وأن يتهياً أكثرهم
للحياة العاملة التي تيسر لهم الاضطراب في طلب الرزق وكسب القوت ؟
فإن تسكن الأولى فلا بد من اللاتينية واليونانية ، لأنهما أساس من
أسس العلم والتخصص ؛ وإن تسكن الثانية فكثرة الناس محتاجة إلى
التعليم الفنى من جهة ، وإلى التعليم العام الحديث الذى يعرض عن
اللاتينية واليونانية إلى اللغات الحية والعلوم التجريبية ، بشرط أن
تظل اللاتينية واليونانية مفروضتين على كل من يريد العلم الخالص
والتخصص فيه » (ص ٢٨٥ - ٢٨٦)

مع هذا يلاحظ الدكتور طه حسين - فى محل آخر من كلامه - أن
المقاومة التى تلقاها اللاتينية واليونانية فى مصر لا تنحصر فى دوائر
المعارف بل تشمل معاشر المثقفين بأجمعهم ... أفلا يلاحظ ذلك أيضاً ،
ويعلمه « بالعادة لا أكثر ولا أقل » إذ يقول : (إنهم لم يتعلموا
اللاتينية ولا اليونانية ولم يسمعوا بهما أثناء اختلافهم إلى المدارس العامة ،
وقد رأوا مصر تعيش عيشتها الحديثة من غير هاتين اللغتين ، فلم يترددوا
فيما انتهوا إليه من الاقتناع بأن تعليم هاتين اللغتين تزيد لا حاجة إليه
ولغو لا خير فيه) (ص ٢٩١)

وبعد ذلك ، يكرر المؤلف دعوته إلى العناية بهاتين اللغتين
اعتباراً من الدراسة الثانوية ؛ فيقترح تنويع التعليم الثانوى إلى ثلاثة
أنواع « على أن يستند النوع الواحد منها إلى تعليم اللغات القديمة يفرض
فيه (على الطالب درس اللاتينية ولغة أجنبية حية ، ويترك له الخيار بين
اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى) ويحتم الانسحاب إلى هذا الفرع على
(كل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الأدبية
المختلفة) بما فيها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا . ص ٣٠١ . ولا يجهل المؤلف
المقاومة التى ستلقاها فكرته هذه من مختلف المحافل والبيئات فيقول :
(أنا أسمع فى أثناء إملأى هذه الكلمات صياح الصائحين ، وأحس هياج
الهائجين ، وأشعر بما سيثور من سخط ، ولكنى مع ذلك مقتنع بما أقول ،
مدعن بصواب ما أدعو إليه ، ملح فى هذه الدعوة غير حافل بالرضا
ولا بالسخط ، ولا معنى إلا بما أعتقد أنه يحقق المنفعة الثقافية للمصريين
(ص ٣٠٠)

إن من هذه الاقتباسات التفصيلية التى نلخصت فيها آراء الدكتور
طه حسين دون أن أبدى شيئاً من موافقتى لها واعتراضى عليها يتبين بكل
وضوح وجلاء أن مسألة اللاتينية واليونانية فى مصر تطورت تطوراً
غريباً ووصلت إلى طور حاد يحتاج إلى قرار حاسم
هذه المسألة لم توضع على بساط البحث فى محافل المعارف والترقية
فى سائر الأقطار العربية ؛ غير أن إثارتها ومناقشتها فى مصر بهذه الصورة
مما يحمل المحافل المذكورة أيضاً على التفكير فى أمرها ، لتكوين
رأى صريح فيها ، واتخاذ قرار معقول فى شأنها

لاولهذا السبب ، رأيت من واجبي أن أتدخل في هذا البحث الذي
يثيره الدكتور في كتابه ، وأبدى ما لدى من الملاحظات حول هذه
المسألة التي أعتقد أن الطريقة المثلى لحل أمثالها هي :

درسها أولاً من وجوها الأوربية البحتة درساً صحيحاً مجرداً عن
فكرة قبلية مع ملاحظة العوامل التاريخية التي أثرت عليها في الماضي
والمذاهب الفكرية التي تحوم حولها في الحاضر . ثم يتلو ذلك الإقدام
على التفكير في المسألة من وجهة أحوال بلادنا وحاجات أمتنا ، مع
الاستئارة بالاختبارات التي تكونت والآراء التي تبلورت حولها في أوربا
وإني عملاً بما تقتضيه هذه الطريقة أبدأ بحثي بإلقاء نظرة إجمالية على

تاريخ تعليم اللاتينية واليونانية في البلاد الغربية فأقول :

من المعلوم أن اللغة اللاتينية كانت لغة روما في القرون الأولى ، غير
أنها صارت بعد ذلك لغة الطبقة المدبرة والمستنيرة في جميع أنحاء أوربا
الغربية عندما دخلت في حكم روما ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في
تلك البلاد عندما اعتنقت الديانة المسيحية ، وأخيراً صارت من دعائم
الكنيسة الكاثوليكية عندما تكونت الكنيسة المذكورة ، وأخذت
تسيطر سلطتها على جميع الدول والولايات التي تدن بها .

فقد تبنت الكنيسة اللغة اللاتينية واتخذتها واسطة لضمان وحدتها ،
ولذلك عملت على نشرها في جميع البلاد التي دخلت تحت حوزتها ،
حتى بعد تنازل سلطة الإمبراطورية الرومانية وزوالها بصورة نهائية .

وأما اليونانية فقد حافظت على كيانها في معظم البلاد التي انتشرت
فيها بالرغم من استيلاء الرومان عليها ، كما أنها أصبحت لغة للدولة بعد

انفصال الشرق عن الغرب ، وتكوّن الإمبراطورية الشرقية مستقلة عن إمبراطورية روما الغربية ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في العالم الأرثوذكسى عندما اعتنقت الإمبراطورية المذكورة الديانة المسيحية . بهذه الصورة تقاسمت اللغتان اللاتينية واليونانية السيطرة على الحياة الدينية في أوروبا المسيحية ، فأصبحت الطقوس والصلاة المسيحية احتكاراً لللاتينية في أوروبا الغربية في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي ، واحتكاراً لليونانية في أوروبا الشرقية — في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الأرثوذكسى — واستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون الوسطى حتى عصر النهضة وظهور البروتستانتية .

وأما الحياة الأدبية العلمية في القرون الوسطى ، فمن المعلوم أنها لم تجد من يزاوئها ويهتم بها إلا من رجال الدين ؛ فعاشت وترعرعت في ظلال الكنائس والأديرة ، وارتبطت لذلك — هي أيضاً — باللغة اللاتينية . فأصبحت هذه اللغة لغة العلم والأدب في جميع بلاد الغرب علاوة على كونها لغة الدين والصلاة .

ومعلوم أن اللاتينية تغلغلت في بعض البلاد الغربية بين جميع طبقات الناس ، فأصبحت لغة العوام ، وأخذت تتطور من جراء ذلك بصورة تدريجية إلى أن ولدت اللغات التي عرفت فيما بعد بالإيطالية ، والفرنسية ، والأسبانية ، والرومانية . ومع هذا ظلت اللاتينية الأصلية لغة الدين والصلاة ، ولغة العلم والأدب ، حتى في تلك البلاد ، وحتى بعد تكوّن اللغات المذكورة واستقلالها عن دوحتها الأصلية .

إن الجامعات الأوروبية والمعاهد التعليمية التابعة لها أخذت تتأسس

في القرون الوسطى - في دور سيطرة اللاتينية على الحياة الفكرية والدينية سيطرة تامة ، ولذلك اعتمدت على اللاتينية كلغة تعليم في جميع فروعها . وكانت الجامعات المذكورة أدخلت في الواقع في مناهجها مدة من الزمن تعليم اللغات العربية والعبرية واليونانية أيضاً... العربية لأنها مصدر العلوم في تلك القرون ؛ والعبرية لأنها لغة الكتاب المقدس القديم ، واليونانية لكونها لغة الأنجيل الأصلية . غير أن العربية والعبرية خرجتا بعد مدة من ميدان مشاركة اللاتينية في التعليم ؛ وظلت اليونانية اللغة الوحيدة التي تساعد اللاتينية في مهمتها العلمية والتعليمية ؛ وقد رسخت قدمها في هذا الميدان - بمرور الزمن ، ولا سيما بعد أن بدأ الاهتمام بخرائنها العلمية والأدبية . إن معاهد التعليم الثانوى التي تأسست لتهيئة الطلاب للجامعات تأثرت بهذه الحالة العامة ، فاعتبرت اللاتينية أساس كل شئ . ولم تشرك بها لغة غير اليونانية في بادئ الأمر .

وإن تاريخ التعليم في فرنسا يقدم تفاصيل وافية عن أحوال تلك المدارس ومناهجها الدراسية وتعليماتها الإدارية . ونفهم من تلك التفاصيل أن المدارس الثانوية في القرن السادس عشر كانت بمثابة مدارس لاتينية بكل معنى الكلمة ، لا يدرس في سنتها الأوليين شئ غير اللاتينية ، ثم يضاف إليها في السنة الثالثة مبادئ اللغة اليونانية ، وفي السنة الأخيرة بعض المسائل الرياضية .

وأما اللغة الفرنسية أو العلوم الأخرى ، فلم تشغل أى حيز كان في مناهج الدراسة ، حتى أن التكلم باللغة المذكورة كان يعتبر من الأمور المنوعة على المعلمين والطلاب في خلال الدرس أو بعد الدرس ، في

داخل الصف أو في خارج الصف . . . وهذا المنع كان مؤيداً بمقوبات عديدة وشديدة .

— ٢ —

عندما نبحث عن الأسباب التي تدعو إلى استمرار بعض البلاد العربية على فرض تعليم اللاتينية ولو في بعض الفروع من الدراسة الثانوية ، يجب علينا ألا نسهو عن تذكر هذا العهد الذي كانت تسيطر فيه اللاتينية على حياة العلم والتعليم في جميع مرافقها سيطرة تامة . كان من الطبيعي ألا تستمر هذه السيطرة المطلقة على طول الزمن ، كما كان من الطبيعي أيضاً ألا تزول هذه السيطرة المطلقة دون أن تترك أثراً عميقاً .

وكان من الطبيعي أن ترتفع أصوات الاعتراض والاحتجاج على هذه السيطرة ، مع بزوغ عصر النهضة . وكان من الطبيعي أن تقوى الأصوات المطالبة بتخفيف وطأة هذا « النير اللاتيني » - حسب تعبير « لابرويير » الشهير - ؛ وكان من الطبيعي أن تصل هذه الأصوات أخيراً إلى درجة الدعوة إلى الثورة ضد اللاتينية للتخلص من سلطتها المطلقة .

وكان الخروج على سلطة اللغة اللاتينية قد بدأ أولاً على شكل « انقلاب ديني » عندما طالب لوثير بترجمة الإنجيل إلى اللغات القومية ، ودعا إلى إقامة الصلوات باللغات التي يتكلم بها الناس . ثم جاء دور الانقلابات الأدبية ، فخرجت الآداب - من الممالك الأوروبية المختلفة - على سلطة

اللغة اللاتينية المطلقة عندما تهذبت وتقدمت اللغات العامية ، وأنتجت من الآثار الهامة ما رفعها إلى مصاف اللغات الأدبية

وأخيراً جاء دور تخلص « العلم والتعليم » من سيطرة اللاتينية ، فأخذت هذه اللغة تفقد سلطتها المطلقة في هذا الميدان أيضاً شيئاً فشيئاً . على أن الانقلاب الأخير لم يتم إلا بتدرج غريب وبطء عظيم ؛ فمثلاً اللغة الفرنسية لم تتمكن من دخول المدارس إلا باجتياز مراحل عديدة ، تملخص فيما يلي : أولاً إفساح المجال للتكلم بها في أوقات الفرص . ثانياً : تسويغ استعمالها لفهم العقائد الدينية للصغار . ثالثاً : تخصيص ساعات لتعليمها كدرس خاص . رابعاً : تحميلها مهمة تعليم بعض الموضوعات الدراسية . وأخيراً زيادة هذه الموضوعات بصورة تدريجية .

كما أن « التاريخ » أيضاً لم يدخل المدارس إلا بمجتازاً مراحل عديدة ، أولاً على شكل « التاريخ المقدس » مرتبطاً بدروس الدين . ثانياً على شكل « تاريخ اليونان » و « تاريخ الرومان » مرتبطين بدروس اللاتينية واليونانية .

لا أرى داعياً لاستعراض جميع التطورات التي طرأت على المناهج الأساسية في المدارس المذكورة ، حتى أواسط القرن التاسع عشر . غير أنني أود أن أخلصها بكلمة مختصرة وهي : إفساح المجال للعلوم المختلفة شيئاً فشيئاً ، بجانب اللاتينية واليونانية ، دون إخراج هاتين اللغتين من نطاق الدروس الإلزامية

وكان بعض المفكرين والمربين يدعون إلى إحداث انقلاب أساسي في مناهج التعليم من حين إلى حين . كانوا يظهرون ارتياحهم في فوائد

تعليم اللغات القديمة ، حتى أنهم كانوا يصلون بانتقاداتهم هذه إلى درجة القول بضررها ؛ غير أن هذه الآراء قلما كانت تجد آذاناً صاغية ، فلم تستطع أن توجد تيارات فكرية قوية تؤثر على الحالة الراهنة .

ومع هذا اشتدت الحملات على اللاتينية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وأخذت الانتقادات تتغلغل في محامل المفكرين ، من جراء انتشار روح الثورة واشتداد نزعة الإصلاح والتجديد من جهة ، ومن جراء تقدم العلوم وتعدد الحياة الاجتماعية من جهة أخرى ؛ فازداد تساؤل المفكرين والمربين يوماً عن يوم : هل من ضرورة ندعو إلى الاستمرار على تعليم اللغات القديمة في المدارس الثانوية ؟ ألم يكن هذا التعليم من آثار النظم البالية التي توارثتها المدارس المذكورة من عهد القرون الوسطى ؟ ما الفائدة من تعليم هذه اللغات بعد أن لم يبق على وجه الأرض من يتكلم بها ؟ وإذا قيل إنها لا تخلو من فوائد ، فهل تعادل هذه الفوائد الهوة العظيمة والأوقات الثمينة التي تبذل في هذا السبيل ؟ ألا يمكن الوصول إلى الفوائد المذكورة من طرق أخرى بوسائل أقل عمقاً من تعليم اللغات الميتة ؟ إن هذه الأسئلة فتحت ميداناً فسيحاً للأبحاث والمناقشات ، تناولت مسألة (التعليم الثانوي) من وجوها عديدة ، حتى أنها أثارت مسألة (التدريس التثقيفي) من أسمها العميقة ...

انقسم المفكرون والمربون حيال مشكلة اللغتين اللاتينية واليونانية إلى معسكرين متخاصمين : معسكر الذين يقولون بوجوب المحافظة على

هاتين اللغتين القديمتين في المدارس الثانوية ، ومعسكر الذين يعتقدون
بوجوب تخليص المدارس المذكورة منهما

بدأت المناقشات بين المعارضين والمدافعين منذ قرن تقريباً ؛ وهي
تشتد أحياناً وتغتر أحياناً ، وتضطر الحكومات إلى اتخاذ قرارات عملية
جديدة ، تحت ضغط هذه المناقشات ، من حين إلى حين
إن النزاع حول هذه المسألة صار أشد عنفاً وأعمق أثراً في فرنسا
مما كان عليه في البلاد الأخرى . ولهذا السبب ، أرى من الموافق أن نلقي
نظرة عامة على الآراء التي استند إليها المعارضون والمدافعون ، في المأسكة
المذكورة بوجه خاص :

يقول أنصار اللغات القديمة : إن في تعليم هذه اللغات فوائد عظيمة
مباشرة وغير مباشرة ، قريبة وبعيدة ، عملية ونظرية ، تعليمية وثقافية
لا تضاهيها الفوائد التي يمكن الحصول عليها من تعليم أية لغة من اللغات
الحية ، وأى فرع من فروع الدراسة الأخرى
وأما أنواع هذه الفوائد ، فنتأخص في الأمور التالية :

(أ) إن اللاتينية أم اللغة الفرنسية ومصدر مفرداتها ، فإتقان اللغة
الفرنسية إتقاناً يضمن الأخذ بناصرها ، لا يمكن أن يتم بدون معرفة
اللغة اللاتينية

(ب) إن الآداب الفرنسية تأثرت بالآداب اللاتينية واليونانية
تأثراً كبيراً ؛ فمعرفة الآداب الفرنسية معرفة عميقة يتوقف على درس
الآداب اللاتينية واليونانية دراسة كافية

(ج) إن خزائن الأدب اللاتيني واليوناني مملوءة بالآثار الخالدة التي

تصور أسمى نزعات الإنسان بأجل الأساليب ؛ فالاطلاع على هذه الآثار الخالدة من الأمور الضرورية لتكوين الثقافة السامية

(ء) أن الحقوق الفرنسية مؤسسة على الحقوق الرومانية ، والتعمق في هذه الحقوق يتطلب معرفة مصادرها ، وفهم هذه المصادر يتوقف على معرفة اللاتينية

(هـ) لقد أصبحت اللاتينية واليونانية مصدر الاصطلاحات العلمية ولا سيما ما يتعلق منها بالتاريخ الطبي والطب والكيمياء وأنواع المخترعات الحديثة ، ومعرفة معاني هذه الاصطلاحات العلمية - وصوغ أمثالها عند الحاجة - مما يتطلب معرفة هاتين اللغتين

(و) إن تعليم اليونانية واللاتينية من أحسن وأنجع الوسائل التثقيفية ؛ فإن هذا التعليم يلعب دوراً هاماً في تكوين العقل وتقويمه وتعويده على التفكير الصحيح المستقيم ... ولا يوجد موضوع دراسي يضاهي هذا التعليم من وجهة هذا العمل التثقيفي . ولذلك يجب أن نعتبر اللاتينية واليونانية بمثابة حجر الزاوية في صرح التثقيف

إن جميع العظماء الذين نعرفهم ونفتخر بهم - من أساطين الأدب إلى جهابذة الفقه والعلم - قد تتقنوا بهذه الثقافة واستفادوا منها فلا يجوز أن نهملها ... ويجب أن نعلم حق العلم أن إهمال هذه الثقافة التي أثبتت جدارتها بالثمرات الثمينة التي آتتها للأمة الفرنسية يكون بمثابة تعريض مستقبل هذه الأمة إلى خطر عظيم ، خطر انحطاط الثقافة العامة التي تفتخر بها ؛ وخطر اندراس جيل أعظم الأدباء والعلماء الذين نعجب بهم .
هكذا كان يقول أنصار اللاتينية واليونانية

وأما معارضو هؤلاء فيقولون : إن اللاتينية واليونانية من اللغات الميتة التي ترجع إلى العهود البائدة ؛ وأن الحضارات والثقافات التي تتمثل في هاتين اللغتين أصبحت مدفونة في أغوار التاريخ ولو كانت سامية وباهرة إبان حياتها ، فليس من المعقول أن نصرف - في هذا العصر الذي نعيش فيه - كل هذه الأوقات ، ونستنفد كل هذه الجهود في سبيل تعلم وتعليم مثل هذه اللغات البائدة ... وأما الفوائد الآتية الذكر فيفندها المعارضون واحدة فواحدة كما يلي :

(١) لا شك في أن اللاتينية هي أم الفرنسية ومصدرها الأصلي ؛ غير أن ذلك لا يدل على أن إتقان الفرنسية يتطلب معرفة اللاتينية . فالفرنسية اليوم أصبحت مستقلة عن اللاتينية استقلالاً تاماً ، فيجب أن تُدرس درساً مباشراً ، حسب معانيها وقواعدها وأساليبها الخاصة ، بقطع النظر عن مصادرها الأصلية وتطوراتها التاريخية . وأما درس تلك المصادر ، وتتبع تلك التطورات ، فما يجب أن يختص به العلماء الذين يودون أن يتبحروا في فقه اللغة ويتعمقوا في تاريخها ؛ ولم يكن من الأمور التي يجب أن تعتبر من أسس دراسة الفرنسية دراسة عامة ، حتى ولا من أسس دراستها أدبية .

(ب) إن الأدب الفرنسي أدب قائم بنفسه ، وإن كان قد نشأ في أحضان الأدب اللاتيني وتأثر بالأدب اليوناني . إنه اتخذ أسلوباً خاصاً فاكتسب كياناً مستقلاً ؛ فدرس هذا الأدب وإتقانه لا يتطلبان الرجوع إلى منابعه بوجه من الوجوه .

ومن أوضح البراهين على ذلك هذه الحقائق الواقعة : « إننا نعرف

عدداً لا يحصى من المستفيدين الذين درسوا اللاتينية واليونانية ، ومع هذا لم يصبحوا من الكتاب الجيدين في الفرنسية . ومقابل ذلك نعرف عدداً غير قليل من الأدباء الذين أحرزوا مكانة عظمى في تاريخ الأدب الفرنسى ، مع أنهم لم يتعلموا اللاتينية ، ولم يتقنوا بآدابها ... »

(وإن لاروشفوكو ، ووورنيك ، وألكساندر دوماس ، وجورج صان ... من جملة الأدباء الذين يذكرون في هذا الصدد ...)

(ج) إن الآثار الخالدة المكتوبة باليونانية واللاتينية قد ترجمها إلى الفرنسية كبار الأعلام ، فيمكن الاطلاع عليها من تلك الترجمات الجيدة ، دون إضاعة الأوقات والجهود في تعليم اللغات التى كتبت بها هذا . وما يجب ألا يغرب عن البال أن معرفة اللاتينية واليونانية التى يمكن الحصول عليها خلال الحياة المدرسية لا تستطيع أن ترفع الطالب إلى درجة تمكنه من تذوق مضامين تلك الآثار الفكرية والأدبية ومزاياها - فى لغاتها الأصلية - ولذلك نستطيع أن نقول : إن درس الآثار المذكورة فى ترجماتها الجيدة أكثر ضماناً لتذوق مزاياها تذوقاً حقيقياً .

زد على ذلك أن اللغات الحية الراقية أيضاً أوجدت آثاراً خالدة لا تقل أهمية وسحراً عن الآثار التى يشير إليها دعاة اللاتينية واليونانية ، إن لم تقل إنها تفوقها فى هذا المضمار على الأقل من وجهة قربها إلى حياتنا العصرية . فلا يحسن بالثقافة الإنسانية العالية أن تنقى تحت سلطان اللاتينية واليونانية القديمة ؛ بل الأجدر بها أن تستفيد من الآثار الخالدة التى أنتجتها اللغات الحية فى العصور الحديثة ...

إن تعلم اللغات الحية عوضاً عن اللاتينية الميتة واليونانية القديمة يأتي بموائد عظيمة ، من هذه الوجهة أيضاً

(د) لا ينكر أن الحقوق الفرنسية مستمدة من الحقوق الرومانية ، والحقوق الرومانية مدونة باللغة اللاتينية . غير أن النصوص اللاتينية المتعلقة بالحقوق والقوانين قد رُجمت بأجمعها إلى اللغة الفرنسية على يد أقدر العلماء والمتخصصين ؛ فأصبح في استطاعة كل فرنسي أن يدرس الحقوق الرومانية دون أن يتعلم اللاتينية . هذا ويجب ألا يفرب عن البال أن الحقوق والقوانين العصرية لم تبقى تحت سيطرة الحقوق الرومانية ، وإن كانت قد استمدت فيما مضى أصولها منها . فاهم الحقوق الرومانية في الثقافة الحقوقية آخذ في التضاؤل يوماً عن يوم وسائرة نحو مطاوى التاريخ بخطوات سريعة . ولهذا كله لا مجال للتبرير لتعليم اللاتينية — بصورة منطقية — بحجة ضرورة ذلك لفهم الحقوق الرومانية

(هـ) وأما مسألة الاصطلاحات العلمية الحديثة فإنها ليست من الأهمية بدرجة تستلزم صرف الجهود الشاقة لتعلم اللاتينية واليونانية ؛ فإن مصادر هذه الاصطلاحات وأصولها محدودة ، فليس من الصعب تعليمها مباشرة — مع ذكر وجوده اشتقاقها — دون التعمق في أغوار اللغتين القديمتين المذكورتين

فضلاً عن أن المعاني الاصطلاحية قلما تنطبق على المعاني اللغوية ؛ فمعرفة المعاني الأصلية قلما تساعد على فهم المعاني الاصطلاحية . ويمكننا أن نقول : إن عدم ضرورة التقيّد بالمعاني الأصلية في الكلمات والتعبيرات

المستخرجة من اللغات الميتة ، كان من أهم العوامل التي سهلت وضع هذه الاصطلاحات الحديثة ، ونشرها بين جميع الأمم العصرية (وذلك بجانب العامل الآخر ، وهو ملائمة عواطف الأمم التي لا تقبل عادة الاصطلاحات التي تستمد عناصرها من لغات الأمم المعاصرة لها) . ولا تنال إذا قلنا : إن هذه الاصطلاحات إنما أدخلت على اليونانية واللاتينية إدخالاً ، فلأنها عرضت على أبناء اللاتينية أو أبناء اليونانية في حياتهم ، لما فهموا منها شيئاً ، أو فهموا منها أشياء أخرى وعلى كل حال نستطيع أن نقول : إن معرفة المعاني الأصلية ليست ضرورية لفهم المعاني الاصطلاحية ، كما أنها ليست مفيدة لها في أكثر الأحيان

فمحاولة تبرير تعليم اللاتينية واليونانية بحجة ضرورة هاتين اللغتين لفهم الاصطلاحات العلمية الحديثة ، مما لا يتفق مع العقل والمنطق بوجه من الوجوه

أما الفوائد التي تعزى إلى تعليم « اللاتينية واليونانية » من وجهة خدمات هذا التعليم لـ « تثقيف العقل وتقوية المحاكاة » فمن الأمور التي تحتاج إلى إنعام النظر من وجوه عديدة :

فإن نظم المعارف السائدة في أوروبا ، كانت جعلت « الدراسة الثانوية الممزوجة بتعليم اللاتينية واليونانية » السبيل الوحيد الذي يؤدي بالطلاب إلى الدراسات العالية . ولا حاجة للبرهنة على أن عدم وجود سبيل آخر يؤدي إلى ميادين الفكر والثقافة الفسيحة لا يمكن أن يعتبر دليلاً على عدم إمكان إيجاد سبيل أخرى أقصر وأحسن وأقع من ذلك السبيل ...

كما أن ذكر الأمثلة الكثيرة من أعظم العلماء الذين كانوا من النابغين والمتقدمين في دروس اللاتينية ، لا يمكن أن يبرهن على أية قضية كانت في هذا المضمار ؛ لأن التفكير العلمى الصحيح يتطلب التساؤل - تجاه مثل هذه الأمثلة - عما إذا كانت اللاتينية من عوامل نمو عقول هؤلاء العلماء ، أم أن مواهبهم العقلية كانت من أسباب تقدمهم في اللاتينية ؟ ونرى من المفيد أن نوضح هذه القضية بمثال مادى : لنفرض أننا أخذنا حفنة من الحبوب وغربلناها بغربال معين ؛ فمن الطبيعى أن هذا الغربال سيدسقط الحبوب الصغيرة ، ولا يحتفظ إلا بالحبوب الكبيرة . فهل يجوز لأحد أن يدعى - عندما يشاهد هذه الحبوب الكبيرة - أن الغربال سبب « تنمية الحبوب » ؟

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هل يجوز لأحد أن يدعى أن هذا الغربال هو الواسطة الوحيدة لانتقاء البذور ؟ أو أن الغريزة هى أحسن الوسائط لهذا الانتقاء ؟ وهل لأحد أن ينقح احتمال سقوط بعض الأنواع من البذور الثمينة والنافعة - مع ما يتساقط من الغربال ! أو ألا يسلم باحتمال بقاء الأنواع من البذور الرديئة والمضرة ، بين ما يبقى في الغربال ؟ إننا لا نقصد من سوق هذا المثال وإيراد هذه الأسئلة أن ندعى أن (عمل اللاتينية في العقول لا يختلف عن عمل الغربال في الحبوب) ، بل إننا نود أن نقول : إن هذه القضايا كثيرة التعقيد كما يظهر من المثال للمادى البسيط الذى ذكرناه ؛ فلا يجوز لنا أن نبت في مثل هذه القضايا قبل أن ندرسها من جميع وجوهها ونقوم بأبحاث دقيقة وشاملة في شأنها .

فلنفكر كيف يمكن أن يؤثر (تعليم اللاتينية) على القابليات العقلية .
 لا شك في أن هذا التأثير يجب أن ينبج عن ممارسة تمارين الترجمة
 التي تجرى خلال هذا التعليم . فإن الترجمة تحمل الطالب بطبيعتها على
 القيام بأعمال ذهنية هامة : إنها تمرنه على نقل الفكرة الواحدة ، أو المعنى
 الواحد من لغة إلى لغة أخرى ؛ وذلك يضطر إلى تحليل المعاني والعبارات
 إلى عناصرها المختلفة ، ويحمله على إجراء مقارنات دقيقة بين عبارات
 اللغتين ، ويعوده ملاحظة أصغر الفروق وأدق الألوان في معاني الألفاظ
 والعبارات التي تعرض عليه أو تخطر بباله . . . إن الفوائد المثقيفية التي
 ينتظر الحصول عليها من تعليم اللغة اللاتينية أو اليونانية ، لا تخرج
 عن نطاق فوائد هذه التمارين من وجهة التأثير على القابليات العقلية .
 ولا مجال للشك في أن جميع هذه الفوائد لم تسكن من خصائص تعليم
 اللاتينية أو اليونانية ؛ بل هي مما يمكن الحصول عليه خلال تعليم أي لغة
 من اللغات الحية الراقية أيضاً . . .

إن هذه القضية كانت من أهم المسائل التي احتدم النزاع عليها
 ودارت المباحثات والمناقشات حولها . . . وقد قام عدد غير قليل من علماء
 النفس ورجال التربية بدرس هذه المسألة علمياً وتجريبياً . فقد قاموا
 باختبارات واسعة النطاق ، وبرهنوا على أن اللاتينية لا تمتاز على سائر
 اللغات — من حيث القابلية المثقيفية — بوجه من الوجوه

فلا يجوز لنا مع ذلك أن نتوسل بتعليم لغة ميتة إلى « تثقيف العقل »
 بل الأجدر بنا أن نصل إلى التثقيف المذكور عن طريق تعليم لغة حية ليستطيع
 الطلاب أن يستفيدوا منها في الوقت نفسه طول حياتهم الفكرية والاجتماعية

وعند ما فكرت في هذا الموضوع — على ضوء الآراء والأبحاث
التي أشرت إليها — تذكرت قصة صغيرة قرأتها في كتاب مدرسي ،
بين موضوعات الإنشاء :

كان رجل يعتمد في تدبير معاشه على نتاج مزرعته . فلاحظ يوماً
أن البركة أخذت تذهب من مزرعته ، وأن النتاج أخذ يقل عن حاجته ،
فشكا حاله إلى أحد أصدقائه ، فوعده صديقه هذا بسؤال أحد السحرة ،
فأتى إليه — في اليوم التالي — بعلبة سحرة قال إنها كفيلة بإعادة
البركة إلى مزرعته على أن يستصحبها معه كل ليلة إلى بعض أنحاء
المزرعة — من الاسطبل إلى مخزن الحبوب . فأخذ الرجل يحمل
بوصايا صديقه ويطوف بالعلبة السحرية في الأنحاء المذكورة . ولم تمض
على ذلك مدة طويلة ، حتى رأى أن العلبة عملت عملها السحري ،
وأعادت البركة إلى مزرعته . غير أن هذه العلبة ، كانت في حقيقة الأمر
علبة اعتيادية فارغة ؛ وأما سحرها ، فقد نتج من اضطراب الرجل إلى
الطواف بها ليلاً في مختلف أنحاء مزرعته ؛ لأن هذا الطواف ، ساعده على
ملاحظة أحوال مزرعته ، ومراقبة أعمال مأجوريه ، ووضع حد لجميع
الأسباب التي كانت تؤدي إلى تناقص موارده

✓ إنني أشبهه بعمل اللاتينية في حقل التفكير ، بعمل « العلبة
السحرية » التي ذكرتها . فإن السحر ليس فيها ، بل في الأعمال الذهنية
التي تجري بواسطتها . وغنى عن البيان أن هذه الأعمال مما يمكن
أن تجري دون وساطتها ، بل بواسطة أي لغة من اللغات الحية الراقية ...
إن المناقشات التي ثارت حول مسألة تعليم اللغات القديمة لم تحمل

وزارات المعارف في فرنسا على إحداث بعض الإصلاحات لمواجهة الحاجات
إلا بعد انقضاء النصف الأول من القرن الأخير

وأما أول التدابير العملية التي اتخذت في هذا الباب فقد كان إحداث
نوع جديد من الدراسة الثانوية في عهد وزارة (ديكتور دوروي) .
عرف هذا النوع الجديد باسم « التعليم الخاص » واستغنى عن تعليم
اللغات القديمة ، وجعل غايته إعداد الطلاب المدارس العالية الاختصاصية
التي تفتح أمامهم سبيل الدخول إلى الحياة العملية

غير أن إحداث هذا النوع من التعليم أثار موجات أنصار اللاتينية ،
كما أنه لم يحقق رغائب المجددين . فقد اجتمع عليه أنصار اللاتينية
واليونانية قائلين : « إن هذه الدراسة الجديدة ستجذب الشبان إليها
من جراء قصر المدة التي تتطلبها والفوائد العملية التي تتضمنها ، وذلك
سيؤدي إلى انصراف الشبان عن سبيل العلم الخالص ، وإلى انحطاط
الثقافة الفرنسية العالية » . فالواجب تطويل مدة الدراسة فيها لإزالة
أسباب الإغراء منها

وأما معارضو اللغات القديمة فإنهم قالوا بأن هذا الإصلاح غير واف
بالمرام ، لأنه أحدث سبيلاً جديداً للدراسات المهنية العالية وحدها ،
وترك سبيل الدراسات الجامعية على حالها ، في حين أنهم كانوا يطالبون
بإصلاح تلك السبل أيضاً . كانوا يعتقدون بوجود إحداث نوع
في الدراسة الثانوية لا يقصر في أهدافه السامية عن أهداف الدراسة
الكلاسيكية الراهنة ، ولا يهمل شيئاً من المرامي الثقافية التي عرفت
باسم « الإنسانيات » منذ عصر النهضة . إنهم كانوا يدعون إلى إحداث

« إنسانيات عصرية » تعوض عن اللغات القديمة باللغات الحية ، دون أن تحيد عن أهداف العلم الحالى والدراسة الجامعية . .

ولذلك ثابر هؤلاء على مطالبهم إلى أن جاءت وزارة (ليون بورجو) وخطت خطوة جديدة فى السبيل الذى كانوا يدعون إليه ؛ إذ أنها حولت « التعليم الخاص » إلى فرع ثانوى جديد عرف باسم « التعليم العصرى » وأصبحت الدراسة الثانوية بعد ذلك متفرعة إلى فرعين متوازيين :
كلاسيكى وعصرى

بدأ هذا الفرع الجديد يشق لنفسه الطريق بين أنواع شتى من الموانع والمشاكل — من قلة الوسائط ، إلى خصومة المحافظين وعراقيل المعارضين — إذ أن أنصار اللغات القديمة والتعليم الكلاسيكى بذلوا كل ما لديهم من قوة لتحذير أولياء الطلاب من الاعتماد على نتائج هذه البدعة ، وحرصوا حرصاً شديداً على إبقاء الجامعات موصدة الأبواب أمام متخرجى الفرع العصرى من الدراسة الثانوية

فاستمر النزاع والنقاش ، ووصل الأمر — فى أواخر القرن — إلى درجة من الحدة اضطر معها مجلس الأمة إلى القيام بتحقيق برلمانى خاص ؛ فألف لجنة لدرس مسألة الدراسة الثانوية من جميع وجوها دراسة واسعة النطاق ؛ فاستمعت اللجنة لآراء عدد كبير من رجال العلم والأدب والتربية والتعليم ، من رؤساء الكليات والجامعات ، إلى كبار رجال العمل فى المهن المختلفة ، وخصصت فى أبحاثها مكاناً خطيراً لدرس مسألة التعليم العصرى والتعليم الكلاسيكى

وقد أظهر هذا التحقيق الشامل عدة حقائق مهمة حول مسألة تعليم

اللغات الميثة في المدارس الثانوية

إن الدراسة الكلاسيكية المستندة إلى تعليم اللغات القديمة ، كانت لا تزال تتمتع بشهرة عظيمة بين أولياء الطلاب . كان المثقفون منهم قد نشأوا نشأة كلاسيكية ، فتعودوا أن ينظروا إلى أن معرفة اللاتينية — معرفة تمكن من ترصيع الكلام ببعض عبارات منها عند الاقتضاء — من دلائل « الامتياز الفكري » ولوازم « الأرستقراطية المعنوية » ؛ ولذلك قلما كانوا يرضون لأولادهم نوعاً من الثقافة تحرمهم هذا الامتياز ، وتحط من منزلتهم الاجتماعية . وأما الذين نشأوا نشأة أبسط من ذلك — ومع هذا أخذوا يطعمون في رفع منزلة أولادهم عن طريق تعليمهم تعليماً راقياً — فكانوا لا يرضون لأولادهم أن يفترقوا عن أولاد الفريق الأول في هذا الميدان ... ولهذا ظلت رغبة الأثرية متجهة نحو التعليم الكلاسيكي القديم ...

وزد على ذلك أن معظم مديري المدارس الثانوية ومعلميها أيضاً متشعبون بفكرة تعوق الدراسة الكلاسيكية على العصرية ؛ ولذلك كانوا لا يفتأون يشوقون التلاميذ الأذكياء إلى اختيارها ... حتى أن بعضهم كان يغالى في هذا الاعتقاد أشد المغالاة ، فيظهر الفرع الجديد بمظهر « ملجأ المتأخرين » من الطلاب ، ويبدل كل ما لديه من قوة لإقناع المتفوقين منهم للرغبة عن هذا الفرع ...

وأخيراً كان في خدمة الدراسة الكلاسيكية جيش كبير من المعلمين المتمرنين المتزودين بأحسن الاختبارات وأطول التقاليد ؛ في حين أن الدراسة العصرية كانت في حاجة شديدة إلى معلمين خبيرين ، يحسنون

القيام بالمهام المطلوبة من هذه الدراسة الجديدة ...

ومع كل ذلك قامت الدراسة العصرية بأعباء التثقيف أحسن قيام
وأعطت نتائج اهرة ، لا تقل عن نتائج الدراسة الكلاسيكية
واللجنة قررت بعبد أن اقتنعت بذلك إبقاء الفرع المصري
في الدراسة الثانوية (مع العمل لتوسيعه وترقيته) ومع هذا قررت
في الوقت نفسه الاستمرار على اشتراط معرفة اللاتينية ، للقبول في كليتي
الطب والحقوق . غير أنه مما يلفت الأنظار ، أن القرار الأخير لم يتخذه
إلا أكثرية ضئيلة جداً لأن الأصوات التي التزمت جانب اشتراط
اللاتينية للقبول في السكيتين المذكورتين لم تغلب على مخالفيها إلا بصوت
واحد فقط !

ولإظهار قوة الآراء المخالفة لذلك ، أود أن أذكر بعض الفقرات
المستخرجة من التصريحات التي أدلى بها ثلاثة من رجال العلم والفكر
في هذا الصدد : وهم ليون بورجوا ، وأرنست لاويس ، وريمون بوانكاريه
قال الأول ما مؤداه : نحن لا نعتقد أن الذين يتثقفون بالدراسات
القديمة ، هم وحدهم جديرون بتكوين الأرستوقراطية الفكرية ؛ بل
نعقد بإمكان « إنسانيات عصرية » ، مستقلة عن اللغات القديمة .
نعقد أننا نستطيع أن نعطي نوعاً من الثقافة العامة ، يختلف عن نوع
الثقافة الكلاسيكية ، دون أن يكون أقل سمواً منها ... فإن الدراسات
الكلاسيكية بطبيعتها « كلامية » فلا تسد حاجات عصرنا هذا ؛ ومطالبه
الفكرية والأدبية والاجتماعية ... إن العالم قد تبدل تبدلاً أساسياً منذ
عشرين قرناً ؛ فالثقافة الكلاسيكية التي توارثت مكتسبات الحضارات

القديمة وقيمتها ، أصبحت بعيدة عن ملائمة الحضارة الحالية ... »
ثم جابه مخاطبيه بالسؤال التالى : « أيها السادة ، لنسأل أنفسنا
بكل صراحة : من منا يستطيع أن يقول إنه تذوق ما فى مآسى
« سوفوكليس » أو محاورات أفلاطون من جمال فنى ، من قراءة
نصوصها الأصلية ... إذا لم يكن قد أولع باللغات القديمة ولعاً
شخصياً ، فتمعق فى دراستها بعد الانتهاء من الدراسة الكلاسيكية ؟
أما أنا فأعترف — من جهتى — بكل إخلاص أننى لم أنهم عظمة
« أوديب الملك » إلا فى (الكوميدي فرانسيز) .. مع أننى كنت من
المبرزين فى دروس اللغات القديمة وآدابها ... »

وأما « أرنت لويس » — الذى يعد من أشهر كتاب التاريخ
فى فرنسا ، والذى ظل مديراً لدار المعلمين العالية مدة طويلة — فقد
اعترف خلال تصريحاته بأنه كان مرتاباً فى نجاح تجربة الدراسة
العصرية — عند إحداثها — غير أنه تخلص من هذا الريب ، بعد
أن رأى النتائج الفعلية ، فأصبح يعتقد أن قيمة الثقافة التى تكتسب
من مثل هذه الدراسة ، لا تقل — بوجه من الوجوه — عن قيمة
الثقافة التى تكتسب من الدراسة الكلاسيكية . وزيادة على ذلك فندّ
الرأى القائل بضرورة اللاتينية لإجادة الفرنسية ؛ وصرح باعتماده الجازم
فى مساواة قيمة الثقافتين ؛ وقال إن « الحجج التى تذكر لتبرير إغلاق
كلتئى الحقوق والطب فى وجه خريجي الدراسة العصرية ، ما هى
إلا من قبيل الأوهام الباطلة التى لا تستند إلى تجربة وتفكير » وأظهر
استعداداً لمناقشة القضية ، عند الاقتضاء

وأما « بوانكاريه » الذى كان من كبار رجال الفكر والحقوق ،
والذى قام بأعباء وزارة المعارف ، وتدرج بعد ذلك إلى رئاسة الوزراء
فرياسة الجمهورية — فهو أيضاً قد دافع عن الدراسة العصرية من وجهة
قيمتها الثقافية دفاعاً حاراً ؛ وردّ على آراء القائلين بضرورة اللاتينية
للدراسات الحقوقية ردّاً عنيفاً . فقد قال — فى هذا الصدد — ما مؤداه :
« لا أستطيع أن أسلم بضرورة معرفة اللاتينية لدرس الحقوق
الرومانية ، بل أقول بإمكان درس هذه الحقوق بأساليب جديدة غير التى
تعودناها إلى الآن ، كما أعتقد أنه لم يبق لهذه الحقوق من فائدة سوى متعتها
التاريخية . فلست متأكداً من أن الاستعاضة عن دراسة الحقوق الرومانية
بدراسة الشرائع المعاصرة ، لا يكون أشد موافقة وأكثر ملاءمة لمقتضيات
الثقافة الحقوقية العصرية »

هذا ، وإبنى سأذهب إلى أبعد من ذلك وسأزيد على قولى قولاً
آخر — مع علمى بأن هذا القول سيعتبر فى نظر البعض من ضروب
الكفر والإلحاد — فأقول بدون تردد : إن سيطرة الحقوق الرومانية على
الفكر الفرنسى المعاصر ، لا تخلو من مضار . فإننا إذا شاهدنا محافلنا
البرلمانية تسترسل فى المناقشات البيزنطية إلى الحد الذى نعرفه ، يجب أن
نعلم أن مصدر ذلك إنما هى الأساليب الرومانية التى تعودناها فى تفهم
وتصور المناقشات الحقوقية »

غير أن هذه الحجج القوية وأمثالها من النصريجات ، لم تتمكن من
زعزعة الاعتقادات القديمة كلها فى أذهان جميع أعضاء اللجنة البرلمانية ،
ولذلك أيدت اللجنة — بأكثرية صوت واحد — النظام المتبع فى اشتراط

معرفة اللاتينية للدراسة الحقوقية . غير أن ضالة الأثرية التي أقرت ذلك كانت دليلاً واضحاً على أن الحل المذكور لم يكن من الحلول التي نطمئن إليها الأفكار ، وتستقر عندها الأمور . بل كان من الحلول المؤقتة التي تؤجل النتيجة النهائية ، دون أن تضع حداً حاسماً للاختلافات . فكان من الطبيعي ألا تقف الأمور عند هذا الحد ، فتستمر المناقشات إلى أن يتقرر « مبدأ المساواة » بين الثقافتين الكلاسيكية والعصرية

وهذا ما حدث فعلاً ، فإن مناهج الدراسة التي وضعت بعد التحقيق البرلماني الآنف الذكر ، حاولت أن توجد حلولاً متوسطة لكثير من المشاكل ، فأوجدت مثلاً نوعاً جديداً من الدراسة الثانوية ، يحتفظ باللغة اللاتينية ، ويضحي باليونانية لتعوضها بالعلوم أو اللغات الحية . ولا شك في أن هذا النوع كان يشغل موقعاً متوسطاً بين « الكلاسيكية اللقحة » التي تلمسك باللغتين القديمتين في وقت واحد ، و « العصرية البحتة » التي تستغنى عن هاتين اللغتين دفعة واحدة .

غير أن الإصلاحات التي تقررته بعد الحرب العالمية ، انتهت (بعد شيء من الجزر والمد) بتقرير حق المساواة بين الدراسة الكلاسيكية والدراسة العصرية ، واتخذت عدة تدابير عملية لضمان هذه المساواة بصورة فعلية هذا هو ملخص الأطوار الأساسية التي مرت بها مسألة تعليم اللاتينية واليونانية في المدارس الثانوية والفرنسية .

قد يخطر على بال الإنسان أن يتساءل عند ما يليق نظرة عامة على هذه الأطوار المتتالية : هل تقف يا ترى سلسلة هذه التطورات عند الحد الذي وصلت إليه أخيراً ؟ أم ستستمر بعد الآن أيضاً ؟ هل يجوز لنا أن نقول

إن التطور الأخير سيكون خاتمة الأطوار؟ أم يجب علينا أن نتوقع حدوث تطورات أخرى بعد الآن أيضاً؟ ...

أنا لا أرى لزوماً للتنبؤ عن بمستقبل هذه التطورات ، لأننى أعتقد أن ما عرفناه عما حدث إلى الآن كافٍ لتوضيح المسألة التى من أجلها خضنا غمار هذا البحث ... مع هذا أرى من المفيد أن أنقل بعض الكلمات التى قرأتها أخيراً — فى هذا الصدد — فى إحدى المجالات التربوية :

✓ «لقد باعدت ما بين الإنسانيات القديمة والمجتمعات الحالية هوة خطيرة لا تزال تزدد عمقاً وعرضاً ، يوماً فيوماً . إن دور الإنسانيات المذكورة قد انتهى ، ولم يعد فى استطاعتها أن تدعى حق البقاء كمنبع للثقافة العصرية ... إنها لا تعيش الآن إلا عيشة اصطناعية ؛ فقد فقدت كل ما كان لها من قوة وحياة ... »

✓ كذلك أرى من الممتع أن أذكر ما قاله « لاييه دوسان بيير » فى هذا الصدد :

« سيأتى يوم نفهم فيه أن حاجتنا (يعنى حاجة الفرنسيين) إلى تعلم اللغة اللاتينية ، أقل من حاجتنا إلى تعلم اللغة المالائيه أو تعلم اللغة العربية »
 «إنى أعتقد أن الحقائق والوقائع التى سردها آنفاً حول مسألة تعليم اللاتينية واليونانية فى الدراسة الثانوية فى أوربا بوجه عام وفى فرنسا بوجه خاص ، تعين لنا بكل وضوح الموقف الذى يجب أن يقفه مفكرو العرب ، حيال هذه المسألة بالنسبة إلى معارف البلاد العربية : لا شك أن هذا الموقف يجب أن يكون موقف الرفض والإعراض ... »

يجب علينا أن نتذكر — فى هذا الصدد — الحقائق التالية على الدوام :

✓ إن تعليم اللاتينية واليونانية في أوربا لم يشغل الموقع الذي شغله في نظم الدراسة بناء على تأملات وملاحظات تربوية ؛ إنما شغل هذا الموقع تحت تأثير عوامل ووقائع تاريخية كلها خارجة عن نطاق الفوائد التربوية . وأما الفوائد التعليمية والتربوية التي ذكرت فيما بعد لتبرير الحالة الراهنة — بغية إبقاء ما كان على ما كان — فلم تستطع أن تقاوم المحاكات المنطقية والأبحاث العلمية مدة طويلة ... ولهذا أخذ نطاق هذا التعليم يتقلص من جميع الجهات تقلصاً مستمراً ؛ ولم يعد يمتد الآن إلا إلى جزء صغير من ساحة الدراسة الثانوية ... كما أن بقاء هذا التعليم في هذه الساحة الأخيرة أيضاً لا يمكن أن يعلل ويبرر إلا بقوة الاعتقاد والاستمرار من جهة ، وبرابطة الأدب واللغة من جهة أخرى

✓ وأما فكرة اعتبار اللاتينية « واسطة ضرورية لتثقيف العقول » ؛ فهي من النظريات التي ثبت خطؤها كل الثبوت : إذ قد أصبح من المسلم به في علم التربية أنه لا يوجد موضوع مدرسي « مثقف » في حد ذاته ، كما أنه لا يوجد موضوع مدرسي يحتكر قابلية التثقيف لنفسه ... وأما « التأثير التثقيفي » الذي يحصل من الدروس فلا يتبع الموضوع الذي يُدرّس ، وإنما يتبع الطريقة التي يتم بها التدريس ... فعند ما نود أن نجعل « الثقافة » هدفاً الأسمى في الدراسة الثانوية يجب علينا أن نعلم حق العلم أن الوصول إلى هذا الهدف ، لا يتم إلا بالبحث عن أوفق « طرق التدريس » لضمان التثقيف والسير على تلك الطرق على الدوام . وأما إضافة لغة أو لغتين من اللغات الميتة إلى مناهج الدراسة ، فلا يمكن أن يضمن لنا شيئاً من أهداف التثقيف بوجه من الوجوه

فليس من المعقول — والحالة هذه — أن نضيع أوقات طلابنا في المدارس الثانوية في سبيل تعليم اللاتينية واليونانية

هذا. ولا بد لنا من ملاحظة الحقائق الهامة التالية أيضاً في هذا الصدد :
 ٧ (أ) إن تعليم اللغة العربية يستنفد من أوقات وجهود أبنائها أكثر من الأوقات والجهود التي تتطلبها اللغات الأخرى من أبناء الناطقين بها ؛ وذلك لزيادة تعقيد قواعد العربية من جهة ، وللقائص السائدة على أساليب تدوينها من جهة أخرى

٨ (ب) إن حاجة أبناء العربية إلى تعلم اللغات الحية أشد من حاجة الأمم الأوروبية الراقية إلى تعلم تلك اللغات ؛ وذلك لفقر خزانة الكتب العربية من المؤلفات العلمية والأدبية

٩ (ج) إن تعليم اللغات الأوروبية الحية يتطلب من الناطقين بالضاد جهوداً أكبر من الجهود التي يتطلبها من سائر الطلاب الأوروبيين ؛ وذلك لاختلاف الحروف من جهة وتباعد الأصول والقواعد والأساليب من جهة أخرى

ولهذه الأسباب إذا جاز للأوروبيين أن يسرقوا قسماً من أوقات بعض أبنائهم في سبيل اللغة اللاتينية — بأمل الحصول على بعض الفوائد ولو كانت ضئيلة — فلا يجوز لنا نحن أن نفتدى بهم في هذا الباب

وإذا جاز للأوروبيين أن يخيروا أولادهم بين دراسة اللغات الميتة ودراسة اللغات الحية ، فلا يجوز لنا نحن أن نفكر في مثل هذا التخيير .
 إذا يجب علينا أن نتذكر دائماً أننا في حاجة قصوى للاقتصاد في أوقات طلابنا وجهودهم لكثرة الأشياء التي يحتاجون إلى تعلمها ولزيادة

الأوقات التي يحتاجون إليها لأجل هذا التعليم
 هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب علينا أن نفكر في أمر آخر أهم
 من ذلك أيضاً؛ هذا الأمر هو ضرورة الاهتمام بمعالجة النزعة الكلامية
 المستولية على أفكارنا ... إننا كثيراً ما نهتم بالألفاظ اهتماماً كبيراً، وقلماً
 نسعى لتحديد معانيها تحديداً كافياً ... وكثيراً ما ننخدع بالكلمات
 الفارغة، ونترك مجالاً واسعاً لتغلب الكلاميات على مناحي تفكيرنا ...
 فلا نغالي إذا قلنا إننا مصابون — على الأكثر — بداء الكلاميات ...
 إن أوروبا أيضاً كانت مبتلاة بمثل هذا الداء؛ وقد صرف مفكروها
 ومُربوها جهوداً عظيمة لمحاربة هذه النزعات الكلامية، وتغليب روح
 التفكير الحقيقي ونزعة البحث العلمي عليها ... ونحن الآن في حاجة
 شديدة إلى الاقتداء بهؤلاء في هذا المضمار. وأعتقد أن هذه الحقيقة
 يجب أن تبقى نصب أعيننا على الدوام عند ما نمكر في وسائل ترقية ثقافتنا.
 ✓ إنني أعتبر فكرة إدخال اللاتينية واليونانية في مناهج الدراسة
 الثانوية من الأفكار الخاطئة المضرة من هذه الوجهة أيضاً لأنها تؤدي
 — بطبيعتها إلى زيادة حصص اللغات في دراساتها زيادة كبيرة، وذلك
 يزيدنا استغراقاً في الكلاميات ويبعدنا عن مناحي التفكير الصحيحة.

ولهذه الأسباب كلها أعارض هذه الفكرة معارضة شديدة
 هذا ولا أراني في حاجة إلى إيضاح أنني لا أقصد من هذه المعارضة
 أن أعترض على كل من يود أن يتعلم اليونانية أو اللاتينية، بل بعكس
 ذلك أتمنى أن يظهر بيننا من يولع باليونانية ويتخصص في آدابها ويسعى
 لترجمة روائعها؛ كما أتمنى أن يظهر من يتعلم اللاتينية ومن يتعلم الروسية

وحتى من يتعلم اليابانية ، ليتسنى لنا الاستفادة من نتائج تفكير جميع الأمم على اختلاف ثقافتها . غير أن إبداء الثمني لظهور بعض الاختصاصيين من أبناء العرب في الآداب اللاتينية واليونانية شيء واعتبار تعلم هاتين اللغتين من ضرورات الدراسة العالية في الحقوق وغيرها شيء آخر

فأقول لذلك : إننا إذا أدخلنا اللاتينية واليونانية في مدارسنا الثانوية يكون مثلنا كمثل الخياط الغبي الذي تناقلت قصته بعض الأقلام : ذلك الذي بذل جهوداً كبيرة في خياطة « بنطلون » لبحار إنكليزي شبيهاً « بنطلونه » القديم الذي كان ساهمه إياه . وأتقن الخياطة إلى درجة تقليد الترفيع الذي به أيضاً !

بعد أن شرحت رأيي في مسأله تعليم اللاتينية واليونانية شرحاً عاماً أرجع إلى آراء الدكتور طه حسين فيها وأبين ما أعتقده في هذه الآراء ٧٣ إن أول ما يلفت الأنظار في ملاحظات الدكتور في هذا الباب ، هو خلوها من الأدلة والبراهين ، وتسكونها من سلسلة دعاوى معروضة على شكل نصوص قاطعة يجب الاعتماد عليها بدون طلب رهان . كأن لسان حاله يقول على الدوام : « آمنت أنا ، فعليكم أن تؤمنوا أنتم أيضاً » فإنه عند ما يذكر إيمانه العميق بضرورة اللاتينية واليونانية للثقافة المصرية يقول : « والأدلة على ذلك تظهر لي بسيرة هينة وجليلة واضحة » (ص ٢٨١) ، ولكنه لا يذكر شيئاً عن تلك الأدلة . فكل ما يكتبه بعد العبارة المذكورة لا يخرج عن بيان « جهل » معارضيه و « قصص دراساتهم » و « عدم إتقانهم الشؤون الثقافية في أوروبا » و « عدم نظرهم إلى التعليم نظر التعمق والجد ... » ، وما أشبه ذلك

تعبيرات التجهيل والازدراء

وعند ما يتطرق إلى مسألة « تأثير هاتين اللغتين في تكوين العقل » تلك المسألة الهامة التي تكون حجر الزاوية في دعاوي أنصار اللغات القديمة لا يكلف نفسه مشقة شرح المسألة ، إذ يقول : « كل هذا ولم أتحدث وإن أتحدث عن أثر هاتين اللغتين في تكوين العقل وتقويمه وتثقيفه وإعداده للتفكير المستقيم ؛ فإن هذا الحديث إن ذهب إليه لم يفهم عني ، لأن فهمه يقتضى معرفة هاتين اللغتين وممارستهما وابتلاء آثار هذه المعرفة والممارسة ، والذين يعرفون هاتين اللغتين في مصر يمكن إحصاؤهم على أصابع اليد الواحدة أو على أصابع اليدين » (ص ٢٩٧) وأخيراً عند ما يتطرق الدكتور إلى الحالة الراهنة في أوربا ويشير إلى الخصومة القائمة بين أنصار اللغات القديمة وخصومها ، يتهم معارضيهِ « بالإلزام اليسير ، بل بالإلزام الناقص المشوه » بهذه الخصومة ص (٢٨٥) ثم يحاول أن يصف هذه الخصومة « على وجهها الصحيح » . غير أن من يقارن بين ما يقوله الدكتور في هذا الباب وبين التفاصيل التي سردناها آنفاً ، يرى أن « الوجه » المذكور يعيد عن الصحة بعداً كبيراً ...

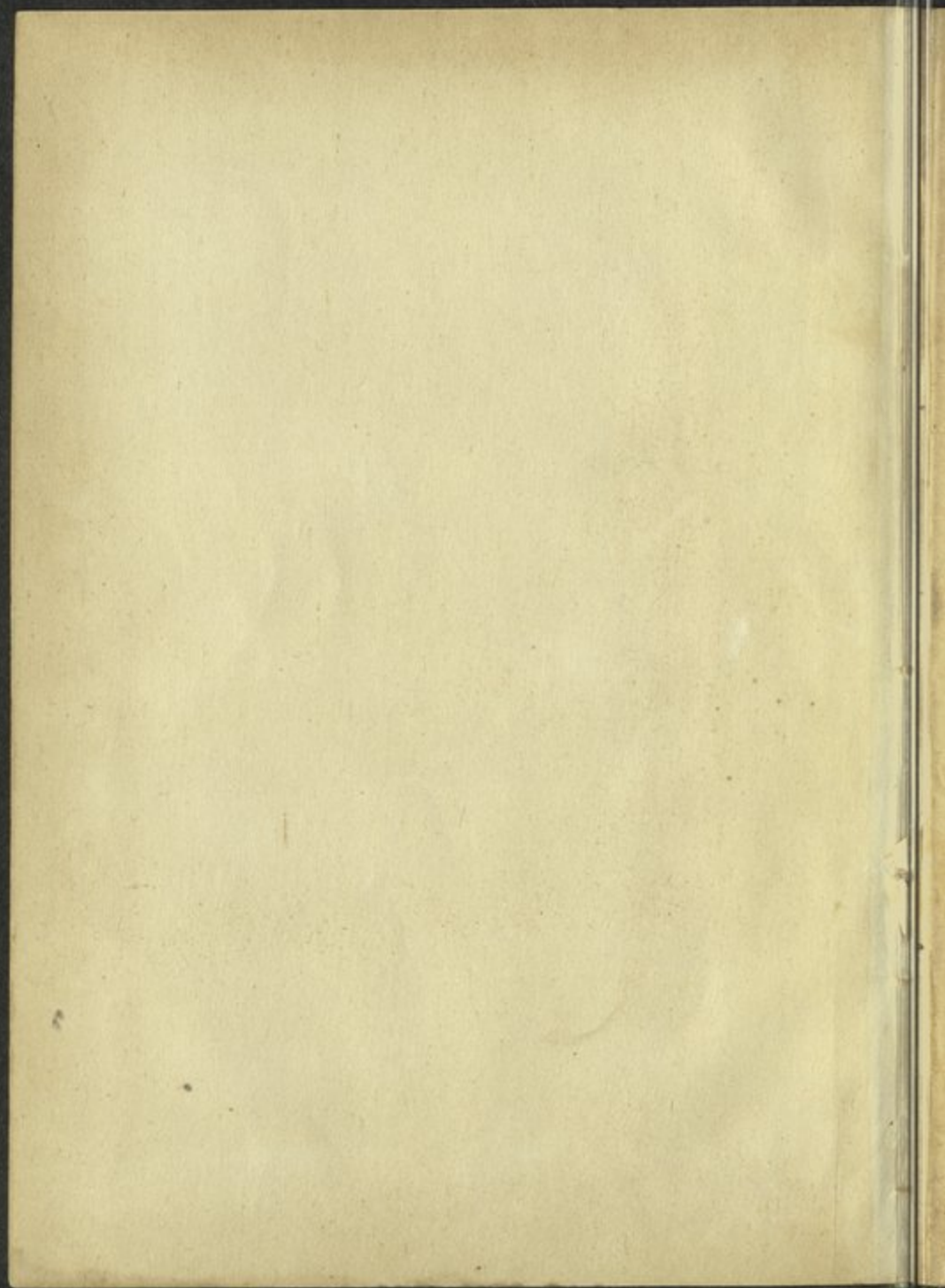
يقول الدكتور طه حسين : « إن موضوع هذه الخصومة لم يكن ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة (ص ٢٨٥) في حين أن المؤلفات والمجلات التريبوية مملوءة بمباحث ومناقشات طويلة عن ضرورة أو عدم ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة

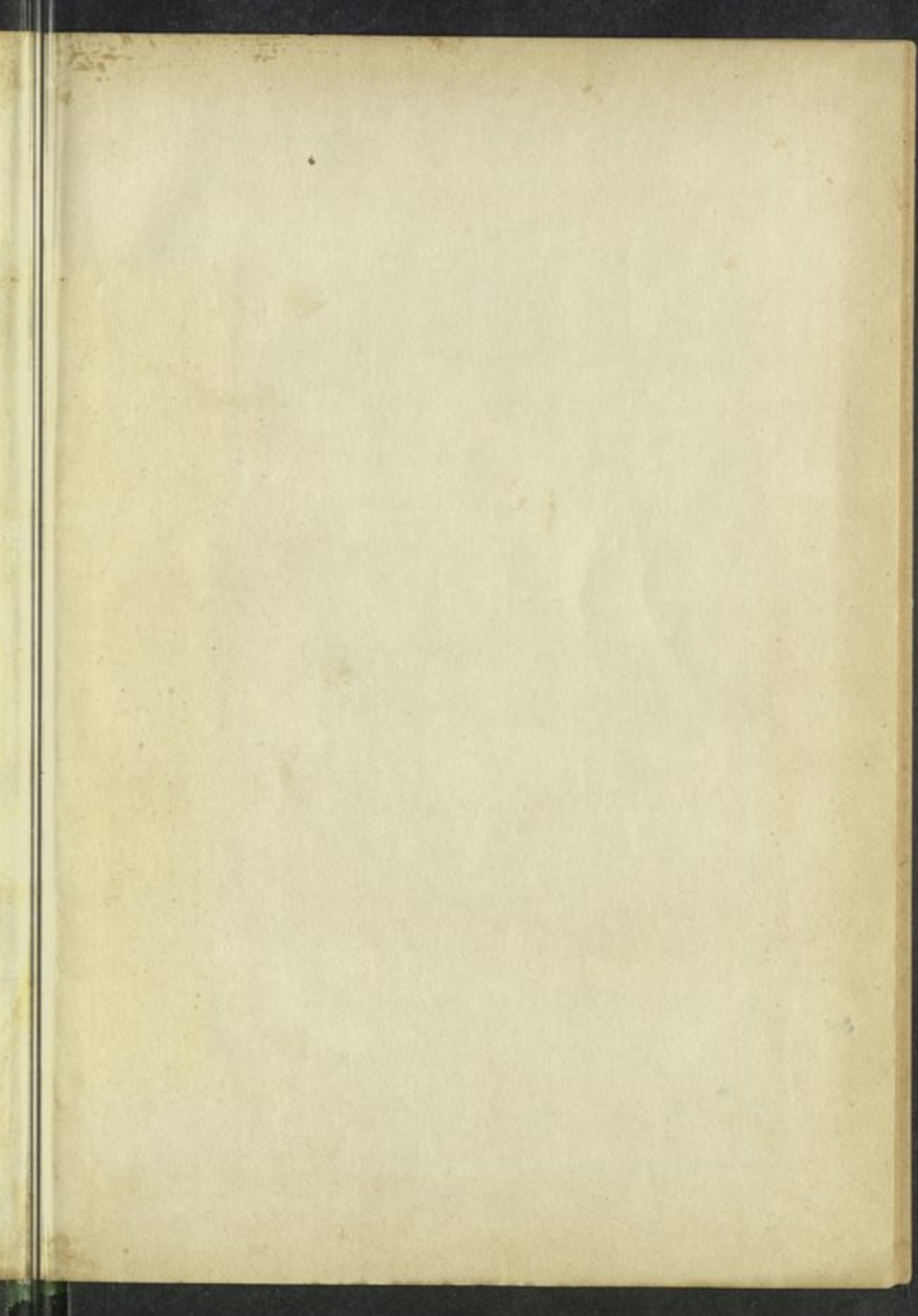
يقول الدكتور : « كان موضوع الخصومة في حفيقة الأمر هذه المسألة : أوجب أن يتهموا الناس جميعاً للعلم والتخصص ، أم يجب أن

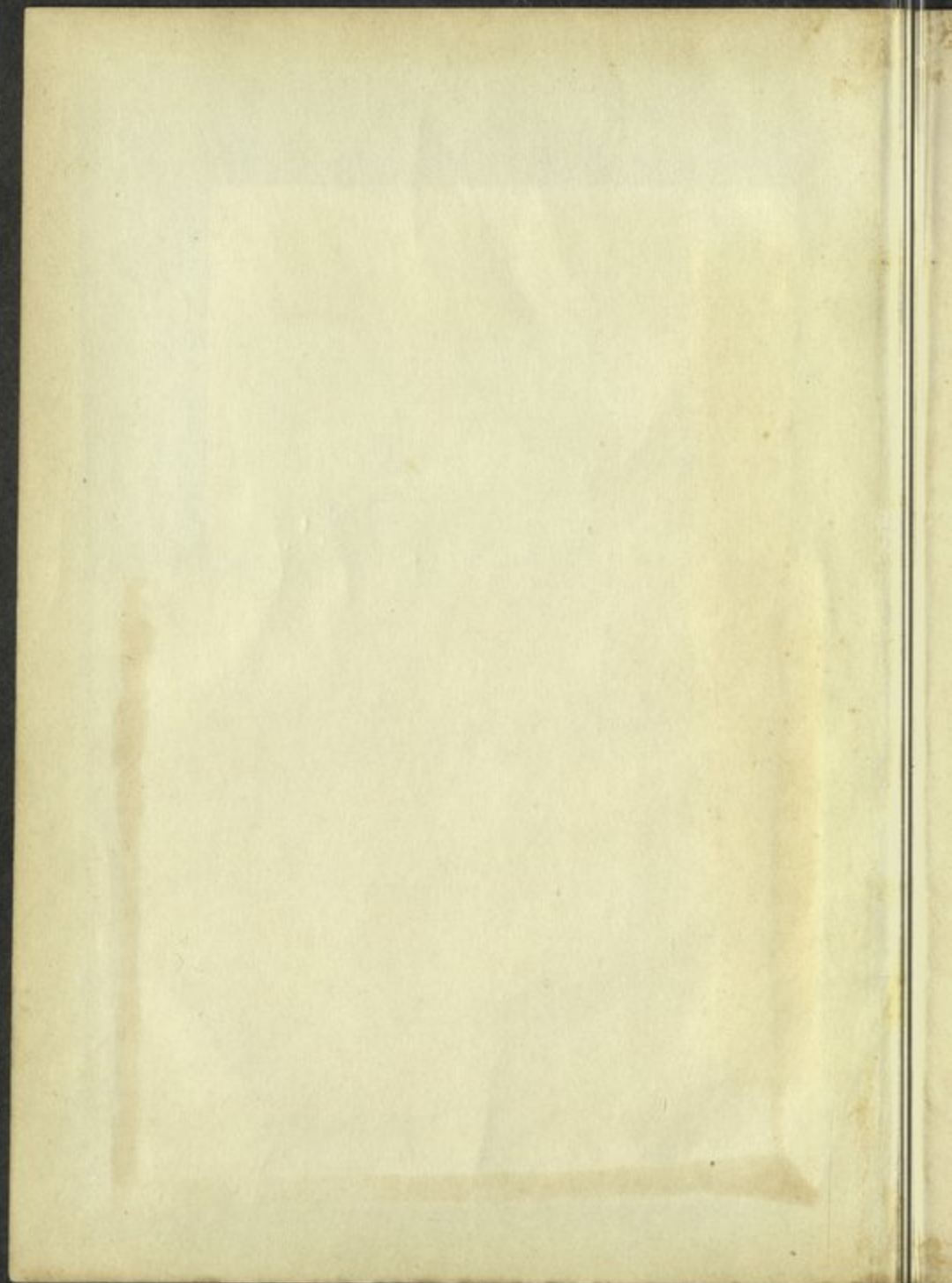
يهياً بعضهم لحياة العلم والتخصص ويهياً أكثرهم للحياة العامة ؟ »
 (ص ٢٨٥) في حين أن ذلك أيضاً بعيد عن حقائق الأمور بعداً كبيراً
 يقول الدكتور : « إن الخصومة حول تعليم اللاتينية واليونانية
 قامت في أوروبا منذ أواخر القرن الماضي بين الديمقراطيين والمتطرفين من
 جهة ، وبين المعتدلين والمحافظين من جهة أخرى » (ص ٢٨٤) في
 حين أن الخصومة كانت قائمة في عالم الفكر والترجمة قبل أن تنتقل إلى
 ساحة السياسة بمدة طويلة

وقد أمهت آنفاً في تلخيص المناقشات التي دارت في أوروبا حول
 هذه المسألة ، فلا أرى حاجة للتوسع في تفنيد أقوال الدكتور طه حسين
 في هذا الباب .

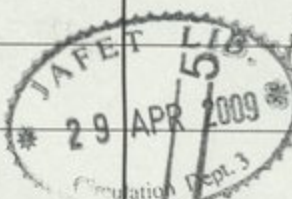
أود أن أختم انتقاداتي هذه بملاحظة صغيرة : عندما يشرح الدكتور
 النظام الذي يقترحه لترقية الدراسة الثانوية يقول : « وكل من أراد أن
 يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الأدبية المختلفة كالتاريخ
 والجغرافيا والفلسفة والآداب الخالصة لإحدى اللغات فرضت عليه اللغة
 اللاتينية ولغة أجنبية حية وخيرته بين اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى »
 (ص ٣٠١) . وإذا لاحظنا أن الطالب المذكور سيدرس — بطبيعة
 الحال — اللغة العربية وآدابها أيضاً ؛ نجد أنه سيتحتم عليه درس أربع
 لغات مختلفة ، على أن تكون الواحدة منها اللاتينية على كل حال .
 إنني أعتقد بأن إشغال الطلاب — خلال دراستهم الثانوية — بهذا
 القدر من اللغويات لا يهيئهم إلى الدراسات المذكورة ، بل يجعلهم أقل قابلية
 لاستساغتها بالمعنى الذي يفهم الآن في دراسة الفلسفة والتاريخ والجغرافيا .







DATE DUE

1988

370.1:H96aA:c.1

الحصري، ساطع

آراء واحاديث في التربية والتعليم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01821317

